مجلد ٦ — عدد ٢٢

يوليو ١٩٤٧

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس



تصدرها دار الكاتب المصرى

شركة مساهمة مصرية

القاهرة

تحت الطبع

كتاب البخــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تحت الطبع



بقلم عبد العزيز البشرى

العقيدة والشريعة في الإسلام

للمستشرق العظيم

إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية وعلق عليه

محمد يوسف موسى

عبد العزيز عبد الحق

على حسن عبد القادر

٤٠٠ صفحة

الثمن ٨٥ قرشاً (البريد ٤٠ مليما)

تحت الطبع

تاريخ قضاة الأندلس

المسمى

بكتاب المرقبة العليا

فيمن يستحق القضاء والفتيا

تأليف

الشيخ أبى الحسن بن عبد الله

ابن الحسن النُّباهى

الأندلسى

نشره وعلق عليه

إ. ليڤى پروڤنسال

أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون

مدير معهد الدروس الاسلامية

بجامعة باريس

بروسپير ميريميه

كولومبا

تعريب محمد غلاب



ظهر حديثاً



٢٢٨ صفحة
الثمن ٢٠ قرشاً
البريد ١٦ مليما

ستندال

دِير پارمْ

مغامرات حب وسياسة

تعريب عبد الحميد الدواخلى



طبعة

فى جزأين



ثمن الجزء

٣٠ قرشاً

البريد للجزأين ٤٠ مليما



١٧٥ صفحة

الثمن ٢٠ قرشاً (البريد ١٦ مليما)

مِن حولنا

قصص مصرية

تأليف محمد سعيد العريان

جيل من الناس فى أفراحه وآلامه ، يرى كل قارئ فى مرآته صورة من نفسه ، أو صورة من حوله ، فى إطار قصصى رائع فى بيانه وفى فنه .

٢٦٠ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٠ مليما)



مدرسة الزوجات

يليها روبير و جنفييف

تأليف أندريه جيد

تعريب صبرى فهمى

فتاة فى نشوة الحب

ثم زوج فى يقظة العقل تتهم زوجها

دفاع الزوج عن نفسه

حكم الابنة على والديها

٣١٢ صفحة

الثمن ٢٥ قرشاً (البريد ٢٤ مليما)

مسابقة مجمع فؤاد الاول للغة العربية

لتشجيع الانتاج الأدبى لسنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨

قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية توزيع جوائزه لتشجيع الانتاج الأدبى على النحو الآتى :

١ — تخصص مائتا جنيه لأحسن إنتاج من الشعر العربى الفصيح ، سواء أكان مخطوطاً أم مطبوعاً منذ أول يناير سنة ١٩٤٥ إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، على ألا يكون قد سبق تقديمه للمجمع .

٢ — تخصص مائتا جنيه لأحسن قصة وضعت بالعربية الفصحى ، سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة منذ أول يناير سنة ١٩٤٥ إلى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بشرط ألا تقل القصة المقدمة عن مائتى صفحة من القطع المتوسط ، وألا يكون قد سبق تقديمها للمجمع .

٣ — تخصص ٤٠٠ جنيه للبحوث الأدبية توزع كالآتى :

ا) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « البيئة الأدبية فى المدينة أيام بنى أمية » .

ب) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « مهيار الديلمى وشعره » .

ويشترط ألا يقل البحث المقدم فى كليهما عن مائتى صفحة من القطع المتوسط .

فعلى الراغبين فى الحصول على هذه الجوائز أن يرسلوا إلى المجمع نسختين مطبوعتين أو مكتوبتين على الآلة الكاتبة من الموضوع المقدم للحصول على الجائزة ، فى موعد لا يتجاوز نهاية نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وسيحتفظ المجمع بنسختى الانتاج الفائز .

وللمتبارين أن يذكروا أسماءهم أو يختاروا أسماء مستعارة ، وعليهم أن يكتبوا عنوانهم واضحاً ، ويوقعوا على كل نسخة يقدمونها .

وترسل الموضوعات المقدمة للمباريات بعنوان لجنة الأدب بمجمع فؤاد الاول للغة العربية شارع قصر العينى ١١٠ بالقاهرة

مسابقة مجمع فؤاد الاول للغة العربية

لتشجيع الانتاج الأدبى لسنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩

قرر مجمع فؤاد الأول للغة العربية توزيع جوائزه لتشجيع الانتاج الأدبى على النحو الآتى :

١ — تخصص مائتا جنيه لأحسن إنتاج من الشعر العربى الفصيح ، سواء أكان مخطوطاً أم مطبوعاً منذ أكتوبر سنة ١٩٤٧ إلى أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

٢ — تخصص مائتا جنيه لأحسن قصة وضعت بالعربية الفصحى ، سواء أكانت مخطوطة أم مطبوعة منذ أكتوبر سنة ١٩٤٧ إلى أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، على ألا تقل القصة المقدمة عن مائتى صفحة من القطع المتوسط .

٣ — تخصص ٤٠٠ جنيه للبحوث الأدبية توزع كالآتى :

ا) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « أثر الحروب الصليبية فى الأدب العربى فى مصر والشام » .

ب) ٢٠٠ جنيه لأحسن بحث بالعربية الفصحى عن « أبى الفرج الأصفهانى وكتاب الأغانى » .

ويشترط ألا يقل البحث المقدم فى كليهما عن مائتى صفحة من القطع المتوسط .

وعلى الراغبين فى الحصول على هذه الجوائز أن يرسلوا إلى المجمع نسختين مطبوعتين أو مكتوبتين على الآلة الكاتبة من الموضوع المقدم للحصول على الجائزة ، فى موعد لا يتجاوز أول أكتوبر سنة ١٩٤٨ ، وسيحتفظ المجمع بنسختى الانتاج الفائز .

وللمتبارين أن يذكروا أسماءهم أو يختاروا أسماء مستعارة ، وعليهم أن يكتبوا عنوانهم واضحاً ، ويوقعوا على كل نسخة يقدمونها .

وترسل الموضوعات المقدمة للمباريات بعنوان لجنة الأدب بمجمع فؤاد الاول للغة العربية شارع قصر العينى ١١٠ بالقاهرة .

الكاتب المصرى

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصرى فى أول كل شهر عن دار الكاتب المصرى ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش فى السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً فى السنة للخارج أو ما يعادلها.
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب المصرى . لا تقبل الاشتراكات لأقل من سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

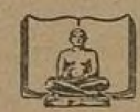
مجلة الكاتب المصرى تعنى بكل ما يرد إليها من المقالات والرسائل ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

ادارة الكاتب المصرى

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الادارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

الكاتب المصرى

شعبان ١٣٦٦ يوليـو ١٩٤٧

لسنة الثانية مجلد ٦ — عدد ٢٢

إجـــازة

لا أريد تلك الإجازة التى كان القدماء من علمائنا يهدونها إلى تلاميذهم فتكون إذناً لهم بأن ينقلوا عنهم هذا الكتاب أو ذاك ، مما نقلوا عن غيرهم أو أنشأوا من عند أنفسهم ، والتى ظل المحافظون من علمائنا يتلقونها من أساتذتهم ، ويهدونها إلى تلاميذهم ، ولا سيما فيما يتصل بالحديث ، يكتبونها نثراً فى أكثر الأحيان ، ويتأنقون فينظمونها شعراً بين حين وحين .

ولا أريد الاجازة التى نشأت عن هذا المعنى القديم ، واستعملت فى العصر الحديث ، لتدل على شئ محدث لم يكن مألوفاً فيما مضى من الزمان ، وهو هذا الإذن الرسمى الذى تمنحه الجامعات ، ومعاهد العلم للذين يتخرجون فيها من التلاميذ ، وتبيح لهم به أن يعلموا الأجيال الناشئة ، ما تعلموا من الأجيال الماضية .

لا أريد إجازة الأستاذ القديم لتلميذه القديم ، ولا إجازة التدريس التى تمنحها الجامعات الحديثة للتلاميذ المحدثين ، متأثرة فى تسميتها بالجامعات الأوربية فى القرون الوسطى ، أكثر من تأثرها بسنتنا الموروثة وتقليدنا القديم . ولا أريد الاجازة التى تصدر عن الملوك والأمراء وأشباه الملوك والأمراء ، الى الشعراء والكتاب ، فتمنحهم الجوائز السنية من الذهب والفضة والجوهر ، ومن الابل والشاء والطعام والثياب ، وإنما أريد الإجازة بمعناها الشائع الحديث بين الموظفين من جهة ، وبين الطلاب والتلاميذ نقلا عن الموظفين من جهة أخرى . فلم نكن أيام الشباب نطلق لفظ الإجازة على ما يتاح

للمعلمين والمتعلمين من أيام الفراغ ، وإنما كنا نسمى ذلك تسمية أخرى يسيرة واضحة قريبة الدلالة ، كنا نسميها « المسامحة » .

وكنا نعرف المسامحات الطوال حين يقبل فصل الصيف ، وحين يظل شهر رمضان أساتذة الأزهر وتلاميذه أثناء الشتاء ، والمسامحات القصار حين تعود الأعياد وتظل المواسم . وكنا نفهم من هذه الكلمة أن النظام الأزهرى أو المدرسى ، يسامح المعلمين والمتعلمين ، ويأذن لهم فى أن يستريحوا من جهد الدرس ومشقة الطلب وخشونة الحياة ، وفى أن يعودوا إلى أهلهم فى المدن والقرى ، ليجدوا عندهم أياماً فارغة ، تستريح فيها العقول ، وتنمو فيها الأجسام، وتستمتع فيها النفوس بشىء من الرَّوح والهدوء . وكانت كلمة المسامحة هذه تؤدى معناها فى قوة ويسر ، لا نكاد ننطلق بها حتى نفهم منها الراحة والدعة والحرية والنوم إلى أن يرتفع الضحى ، لا نستيقظ قبل أن ندعى إلى صلاة الفجر لنشهد الصلاة ونسمع الدروس ؛ والنوم إذا زالت الشمس واجتمعنا حول مائدة الغداء وتفرقنا عنها ، لا نعجل عن ذلك بدرس النحو أو درس البلاغة ؛ والسهر حتى يتقدم الليل فيبلغ نصفه أو يتجاوز النصف ، نسمر أثناء ذلك بما يسلى ويلهى ، ولا نشق على أنفسنا بتلك المشكلات العلمية التى كانت تكلفنا ألوان العناء .

ولست أدرى كيف أعرضنا عن كلمة المسامحة تلك السمحة الحلوة التى يمتد بها الصوت ويشارك فى النطق بها الحلق واللسان والشفتان ، إلى كلمة الإجازة هذه القصيرة التى اجتمع بعض حروفها على بعض فلا يكاد الصوت يمتد بها ، ولا تكاد النفس تجد حين يجرى بها اللسان شيئاً من راحة أو دعة أو هدوء .

وأكبر الظن أن الموظفين هم الذين أدوا هذه الكلمة إلى أبنائهم، فاصطنعوها ليدلوا بها على أيام الراحة والفراغ ، يرون فى اصطناعها شيئاً من ترف ، ويقلدون آباءهم حين يدلون بهذه الكلمة على ماتمنحهم الدولة من أيام الفراغ فى كل عام . ومهما يكن من شىء ، فإنى أريد أن أتحدث عن الإجازة بهذا المعنى الذى يستعملها فيه الموظفون والمحدثون من الطلاب والتلاميذ ، وهو هذه الأيام الطوال أو القصار التى تمنح للموظفين والطلاب والتلاميذ ، والتى نمنحها نحن لأنفسنا حين نكون أحراراً لا من أولئك ولا من هؤلاء ، نرفه فيها على أنفسنا ، ونستريح فيها من عناء الأعمال ، كما يقال .

وواضح أنى إنما أتحدث عن هذه الاجازة ؛ لأنى منحت نفسى إجازة أريح فيها وأستريح من هذا العناء الطويل الثقيل الذى أنفقت فيه العام ، فتعبت وأتعبت ، وشقيت وأشقيت ، وأحسست الحاجة إلى أن أريح نفسى من التعب والإتعاب ، ومن الشقاء والإشقاء ، وأريح الناس الذين يتصلون بى من قرب أو بعد أشهراً أو أسابيع ، فلا أفكر فيهم ولا يفكرون فى ، ولا أشقى بالكتابة لهم ولا يشقون بالقراءة لى ، ولا أضنى نفسى بالاتصال بهم ولا يضنون أنفسهم بالاتصال بى .

وقد يخيل إلى كثير جدا من الناس أن معنى الإجازة مختصر قصير كلفظها، فهى أيام راحة ودعة وفراغ لا أكثر ولا أقل .

ولكنهم لو فكروا قليلا لتبينوا أن معنى الاجازة أوسع وأعمق وأطول من لفظها ، وأنه أدق وأشد تعقيداً مما يظنون . ولو لم يكن أمامنا إلا هذه الألفاظ الثلاثة نحللها ونستقصى معانيها لنفهم معنى الاجازة ، لكان هذا فى نفسه عسيراً شاقا ، فكيف وأمامنا أشياء أخرى أكثر وأعسر من هذه الألفاظ الثلاثة وكلها يحتاج إلى التحليل ، وكلها يحتاج إلى الاستقصاء !

فلنكتف الآن بهذه الألفاظ الثلاثة لا لنستقصى معانيها بل لنلم بهذه المعانى . فالإجازة أيام راحة ، فما عسى أن تكون الراحة ؟ ما موضوعها وما طبيعتها ؟ وما وسائلها وما غايتها ؟

تريد أن تستريح ، فمم تريد أن تستريح ؟ وممن تريد أن تستريح ؟ ألست ترى أن الجواب على هذين السؤالين يختلف أشد الاختلاف ويتفاوت بتفاوت الأشخاص وطبائعهم ، وما يمارسون من أعمال ، وما ينعمون أو يشقون به من ألوان الحياة منذ يسفر الصبح إلى أن يتقدم الليل ؟ أما أنا فاذا ذكرت الإجازة وذكرت أنها أيام راحة لى ، وحاولت أن أعرف مم أريد أن أستريح ، فقد يكون أول ما يخطر لى أنى أريد أن أستريح من ثلاثة أشياء أشقى بها فى مصر شقاء لا يكاد أحد يتصوره أو يقدره : أولها التليفون الذى يصلصل جرسه منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس ، لا ينقطع عن الصلصلة إلا ليستأنفها ، ولا يكف عنها إلا ليعود إليها . وصلصلة جرس التليفون هذه مختلفة متنوعة معقدة ، فيها كثير من العسر، وفيها كثير من الهم ، وفيها كثير من العناء ، وفيها قليل جداً من النعيم الذى تبتهج له النفوس وتطمئن إليه القلوب . فهذه

صلصلة تستلك من السرير استلالا ولما تشرق الشمس ، فاذا قطعتها واستمعت إلى هذا الصوت الذى يدعوك من أقصى الخيط ، كما يقول الفرنسيون ، فقد تقع أذنك أو يقع على أذنك صوت لا عهد لك به ولا أزب لك فيه . صوت مخطئ أراد أن يهدى إلى غيرك خيراً أو شرا ، وأبى سوء الظن إلا أن يغلط به ، فما زال يلح على أداة التليفون ، وما زال الجرس يصلصل حتى أزعجك عن راحتك وأخرجك من نومك ، واستلك من سريرك . ثم تسمع ثم تنكر ، ثم ترد مغضباً أو غير مغضب ، ثم تضع أداة التليفون كما ينبغى لها أن توضع عنيفاً بها أو رفيقاً ، ثم تعود إلى نفسك ، و إذا أنت تجد شيئاً مرًّا بغيضاً يصور الحنق على من أخرجك من نومك الهادئ المطمئن ، وأزعجك عن راحتك واستقرارك ، ويصور خيبة الأمل لأنك لم تجد من وراء هذا كله إلا هباء لا خطر له ولا غناء فيه . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك عن راحتك ويصرفك عن حلم لذيذ ويذود عنك نوماً هنيئاً ، فإذا بلغت أداة التليفون سمعت صوتاً تعرفه فأنبأك فى أكثر الأحيان بما لا تحب وابتدأ لك يوماً منكراً ؛ لأن الناس يبخلون عادة بما يسر من الأنباء ، وتطيب أنفسهم عن الأنباء السيئة يعجلون بها إليك فى غير أناة ولا رفق ولا استحياء . وقد يصلصل جرس التليفون فيزعجك ويثقل عليك ويكلفك من المشقة فنوناً ومن الجهد ألواناً ، حتى إذا سمعت لصوت من دعاك ضقت بالدنيا وضاقت الدنيا بك ؛ لأنك تجد نفسك بإزاء رجل سخيف يسألك عن شئ سخيف أو يحمل إليك نبأ سخيفاً . و إذا ابتدأت هذه الصلصلة المختلفة المتنوعة فهيهات أن تسكن أو تهدأ أو تقطع ، و إنما هى متصلة ملحة ، حتى تصبح جلجلة لا صلصلة ، وحتى تبغض إليك الحياة والأحياء وما حولك من الأشياء .

ولست أدرى أحاول بعض الناس أن يقارنوا بين اصطناع التليفون فى مصر واصطناعه فى غيرها من البلاد . ولكن الشئ الذى أحققه هو أن أهل القاهرة خاصة يسرفون على أنفسهم وعلى الناس فى اصطناع التليفون إسرافاً شديداً ، لا يرفق أحد منهم بنفسه ولا يرفق أحد منهم بغيره ، لا يفرقون بين العجلة والريث ولا بين ما ينبغى أن يؤدى من الرسائل فى سرعة وما يمكن أن ينتظر به إلى وقت يقصر أو يطول . والمصريون أصحاب فصاحة ولسن وفيهم غرور وعجب . وهم يحبون أصواتهم ويحبون ألفاظهم ويحبون ما يصدر عنهم من قول أو عمل . وهم إذا بدءوا الحديث لم يعرفوا كيف يفرغون منه . وهم لا يفرقون بين الحديث

الذى يسوقونه إليك وجهاً لوجه والحديث الذى يسوقونه إليك من أقصى الخيط . وهم يؤمنون بأنفسهم وبحقوقهم وبمنافعهم وبجدهم ولعبهم ، ولايكادون يؤمنون لأحد غيرهم بشئ من ذلك.وهم من أجل ذلك لا يقدرون أن التليفون أداة عامة قد أنشئت لينتفع بها الناس جميعاً لا لينتفع بها إنسان بعينه دون غيره من سائر الناس . وهم من أجل ذلك لا يقدرون أن التليفون أداة قصد بها إلى التيسير والسرعة . فلا ينبغى أن تستخدم إلا عند الضرورة الملجئة وإلا أقصر وقت ممكن . وهم من أجل هذا كله يتحدثون بغير حساب ويطيلون فى غير رفق ، لا يعنيهم أن يصدوا غيرهم عن التليفون ، ولا يعنيهم أن يشقوا عليك بحديثهم الطويل المتصل ، حسبهم أن يقولوا وأن يحسوا أنك تسمع لما يقولون ، وهم لا يرون وجهك حين يربد ، ولا يرون جسمك حين يضطرب ، ولا يرون ماتدفع إليه من حركات الغيظ والضيق ؛ فهم يقولون ويقولون ، وكل شئ يدعوهم إلى القول ، وكل شئ يدعوهم إلى إطالة القول . وكذلك يصلصل التليفون منذ تشرق الشمس إلى أن تشرق الشمس. ولولا أن النوم فرض محتوم على الناس جميعاً لكان التليفون وإلحاح المصريين فى اصطناعه مصدراً خطيراً من مصادر الجنون ، وهو على كل حال مصدر خطير من مصادر اضطراب الأعصاب .

فاذا ذكرت الراحة التى أطمع فيها أو أطمح إليها ، فقد يكون أول شئ أفكر فيه هو صلصلة التليفون . وشئ آخر أفكر فيه إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ، وهو هذه الزيارات المفاجئة التى تصب عليك صبًّا بغير حساب وفى غير تقدير وعلى غير إيذان بها وانتظار لها . فأنت متى عنيت من قريب أو بعيد بالحياة العامة فلست ملكا لنفسك ولست ملكا لأهلك ولست ملكا لعملك؛وإنما أنت ملك للشعب كله،يدبر أمرك كما يريد لا كما تريد، وعلى مايشتهى لا على ما تحب. وليس بالشئ المهم ولا بالشئ ذى الخطر أن تكون رجلا مثقلا بالأعباء التى تتصل بمصلحتك ومصلحة الناس ، أو أن تكون رجلا محبًّا لهذا اللون أو ذاك من ألوان النشاط تريد أن تفرغ له وتعكف عليه ، وإنما المهم كل المهم والخطير كل الخطير هو أن تكون رجلا سمحاً سهلا مفتوح الباب مؤدب الخدام ، لاترد ملما إن ألم ولاتمتنع على زائر إن زار . وقد يكون أظرف شئ فى هذه الخطوب أن يسعى إليك الرجل لم تعرفه قط ولم تتصل أسبابك

بأسبابه ، وليس بينك وبينه مايدعو إلى اتصال الأسباب ، ولكنه قرأ لك كتاباً أو جزءاً من كتاب أو فصلا فى مجلة أو مقالا فى صحيفة أو استمع لبعض أحاديثك فى الراديو أو سمع الناس يتحدثون عنك ، فأحب أن يراك وأن يجلس إليك ساعة من نهار أو من ليل ، لم يؤامرك فى ذلك ولم يشاورك ، وليس يعنيه أن تكون الساعة ملائمة أو غير ملائمة ، وإنما يعنيه أن يراك ويقول لك ويسمع منك ولا عليه بعد ذلك أن يضيع وقتك أو يفسد عملك ، فذلك آخر مايفكر فيه .

والغريب أن الناس الذين يشقون عليك ويكلفونك هذه الألوان من الجهد ولا يحسبون لوقتك ولا لعملك حساباً هم الذين يلحون عليك فى أن تكتب فى كل يوم مقالا وفى كل أسبوع فصلا وفى كل شهر كتاباً ، فان لم تفعل فأنت مسرف فى الكسل بخيل بالأدب غارق فى البخل إلى أذنيك . وإياك أن تجمع لهم فصولا متفرقة وتنشرها فى سفر مستقل ، فانهم لاينتظرون منك ذلك ولا يرضونه لك ولا يرضونه لأنفسهم ، وإنما هم ينتظرون منك أن تقدم إليهم فى كل يوم شيئاً جديداً مبتكراً ، وألا تقرئهم أثراً من آثارك مرتين مرة فى الصحف والمجلات ومرة أخرى فى الكتب والأسفار .

هم إذن يضيعون وقتك ويحاسبونك على هذا الوقت الذى أضاعوه ، وهم على ذلك لايقدرون أن للجهد الإنسانى غاية يقف عندها ، وأن الوقت الضائع لاسبيل إلى استئنافه ، وأن الكاتب محتاج إلى أن يقرأ فيكثر القراءة ، وإلى أن يبحث ويحسن البحث ، وإلى أن يفكر ويطيل التفكير ، لينتج فيجيد الانتاج .

هم لايقدرون ذلك ولا يفترضونه ، وإنما ينظرون إليك كما ينظر الطفل الساذج إلى أبيه يحسبه قادراً على كل شئ فلا يتردد فى أن يطلب إليه كل شئ .

فأى غرابة فى أن أذكر هؤلاء الزائرين المفاجئين إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها ؟ وشئ ثالث أذكره مغتبطاً به وأفكر فيه مبتهجاً له حين أمنح نفسى إجازة وألتمس شيئاً من راحة ، وهو أنى سأفلت وقتاً طويلا أو قصيراً من الكتابة فيما لا أحب أن أكتب فيه ، ومن العناية بما لا أحب أن أعنى به .

والناس لا يقدرون ما يتعرض له الكاتب من الشر والنكر والشقاء من هذه الناحية . فالكاتب المصرى قادر بطبعه عند المصريين على أن يكتب فى كل شئ ، وعلى أن يلم بكل موضوع ، وعلى أن ينتج فى كل لحظة من لحظات الليل

والنهار . الناس كلهم محتاجون إلى الراحة إلا هو ؛ فإن الراحة لم تخلق له كما أنه لم يخلق لها ، كما أن التعب لا يمكن أن يجد إليه سبيلا . والناس كلهم ميسرون لما خلقوا له إلا الكاتب فانه ميسر لكل شئ لأنه خلق لكل شئ . وما ينبغى أن تقول لأصحاب العلم إنى صاحب أدب فلا أستبيح لنفسى أن أقدم كتاباً فى العلم ، ولا أن تقول لأصحاب السينما إنى لا أعرف من أمر السينما شيئاً فلا أستطيع أن أكتب عما يتصل به اتصالا قريباً أو بعيداً .

لاينبغى أن تقول شيئاً من ذلك إذا كنت كاتباً ؛ لأنك بحكم صناعتك قادر على أن تكتب فى كل شئ، وينبغى أن تكتب فى كل شئ . والناس لايعرفون حين يطلبون إليك المقال أو الفصل أو الحديث أو المقدمة رفقاً ولا ليناً ولا مياسرة ، وأكاد أسلى ولا حياء . فهم يطلبون ويطلبون ويلحون ويلحون، فاذا أعياهم أن يبلغوا منك ما أرادوا توسلوا إليك بمن تحب وتشفعوا إليك بمن لا تملك لشفاعته رداً حتى يبغضوا إليك الكتابة ويكرهوا إليك الأدب ويوشكوا أن يزهدوك فى الحياة .

وربما يتجاوز الأمر هذا الحد إلى حدود أخرى غير معقولة ولا منتظرة . فالناس يعرفون رأيك فى السياسة ، وأن هواك مع هذا الحزب أو ذاك ، ولكنهم لايترددون فى أن يطلبوا إليك أن تكتب حيث لا تحب أن تكتب . وهم يقولون لك فى ابتسام ساذج : إنا لانطلب إليك أن تقول غير ماترى ، وإنما نطلب إليك أن تكتب ما تشاء ، أكتب فى الأدب فالأدب فوق السياسة وفوق الأحزاب، ليس له وطن فأحرى ألا تكون له صحيفة ولا حزب . وكذلك تنفق نهارك معرضاً لهذه المطالب التى لاتنقضى والتى لاتعرف الرفق . فاذا ذكرت الصحف اليسيرة العابثة فحدّث عن إلحاحها عليك وتحرشها بك ولا تخش مبالغة ولا إسرافاً . وأكاد أعتقد أن الله إنما خلق التليفون ليتيح لكتاب الصحف اليسيرة العابثة أن يمطروا عليك وابلا غزيراً من الأسئلة لاينقضى، وليس بينك وبين محدثك سبب وليس لك أمل فى أن يكون بينك وبينه سبب، ومع ذلك فيجب أن تستجيب للتليفون إذا صلصل جرسه ، وأن ترد على محدثك بعد أن تسمع سؤاله الغريب ، واعتذر ما شئت أن تعتذر ، فلن تخلص من إلحاحه إلا إذا خرجت عما ينبغى لك من الأدب وحسن المجاملة . وليس من المهم أن يكون لديك من العمل ما هو خليق أن يشغلك عن التليفون وعن الزيارة

وعما يحمل التليفون والزيارة إليك من أسئلة لا رأس لها ولا ذيل ، وإنما المهم أنك رجل قد اصطنع الكتابة واحترف الأدب ، فنزل عن نفسه للشعب أولا وللصحف والمجلات ثانياً ، وإذا لم يتح له أن يرد على أصحابها ومحرريها فلا أقل من أن يسمع لهم .

ومن طرائف هذا الباب أن أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد انتهزوا فرصة حياتنا السياسية فى هذه الأيام الأخيرة ، فطاردوا أصحاب السياسة من الوزراء وأشباه الوزراء ومن الرؤساء وأشباه الرؤساء ومن الزعماء وأنصاف الزعماء ، وما زالوا بهم حتى أنزلوهم على حكمهم . فهم يلمون بدورهم إذا أصبحوا ، ويلمون بدورهم إذا أمسوا ، ويلحقون بهم فى أنديتهم حين يرتفع الضحى أو حين يقبل المساء ، يلقون عليهم الأسئلة وينتزعون منهم الأجوبة ، وينشرون ذلك فى صحفهم متنافسين فيه متهالكين عليه . فاذا سعوا إليك أنت أو تحدثوا إليك بالتليفون وأحسوا منك إباء وامتناعاً كبر ذلك عليهم وأنكروا أن يستجيب لهم الباشوات من أعضاء نادى محمد على وأن يمتنع عليهم كاتب لم يبلغ الوزارة وليس يطمع فى الوزارة ، ولم تتح له الزعامة وليس يطمع فى أن يكون زعيما . فأى غرابة فى أن أفكر فى هذا اللون من العناء البغيض الثقيل إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها .

والحياة فى مصر منذ أثيرت أزمتنا السياسية شقاء كلها بالقياس إلى الرجل المثقف إن كان له قلب أو حظ يسير من العناية بالشؤون العامة . فهو يشارك مواطنيه قبل كل شئ فيما يجدون من شقاء وما يداعبون من أمل وما يحتملون من ألم . وهو بعد ذلك حريص على أن يحسن العلم بما يقع حوله من الأحداث وما يلم بالناس حوله من الخطوب ، وبما يكتب وما يقال فى تلك الأحداث وهذه الخطوب . وهو إذن مضطر إلى أن يقرأ سخفاً كثيراً ، وإلى أن يسمع سخفاً كثيراً ، وإلى أن يحتمل سخفاً كثيراً ، ليس له من ذلك بد إلا أن يكون رجلا قد قسا قلبه وغلظت كبده وآثر نفسه بالسلامة والعافية ، واعتزل مواطنيه وازدرى مايصيبهم من الكوارث والنازلات .

وهو إذا أصبح مضطر إلى أن يتجرع صحفاً أربعاً أو خمساً ، وإذا أمسى مضطر إلى أن يتجرع مثل ذلك ، وإذا دار الأسبوع مضطر إلى أن يتجرع فى كل يوم صحيفة أو صحيفتين من هذه الصحف التى تقصد إلى المزاح ولكنها

تمعن بمزاحها فى الجد إمعاناً خطيراً فى كثير من الأحيان . ثم هو إذا لقى الناس مضطر إلى أن يسمع منهم ويقول لهم. وويل لعقله وقلبه مما يسمع! وويل لعقله وقلبه مما يقول ! وهو بفضل هذا كله مصروف عن العمل المنتج والقراءة الممتعة والعناية بما يغذو العقول والقلوب ، فهو يبدأ يومه بالسخف ، ويقضى يومه فى السخف ، ويختم يومه بالسخف ، وهو سعيد إذا لم ينغص عليه السخف راحة النوم ولذة الأحلام .

أليس من الطبيعى أن أفكر فى هذا كله إذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها، وأن أبتسم لهذه الأيام التى يمكن أن أقضيها دون أن أقرأ الصحف مصبحاً وممسياً ، ودون أن أتحدث إلى الناس أو أسمع أحاديث الناس عن مجلس الأمن وهيئة الأمم المتحدة وما يحيط بهما وبنا من الظروف !

كل هذا ولم أذكر العمل الأساسى الذى أقيم حياتى عليه ؛ لأنى لا أجد فى هذا العمل جهداً ولا مشقة ولا عناء ، وإنما أجد الجهد والمشقة والعناء فى أنى مصروف عن هذا العمل على شدة ظمئى إليه وكلفى به،وعلى كثرة دعائه لى وإلحاحه على. فأنا أشبه الناس بالمسافر الذى يكاد قلبه يتقطع من الظمأ والماء بين يديه عذب صفو زلال . ولكنه لايستطيع أن يدنى منه شفتيه ..

فاذا ذكرت الراحة أو سعيت إليها فانما أذكر راضى النفس مطمئن القلب مبتهج الضمير أن هذه الراحة قد تتيح لى شيئاً من هذا التعب الحلو الذى أتحرق كلفاً به وشوقاً إليه . وقد يصدّقنى القارئ أو لا يصدقنى ولكنى أعلم أنى أنفقت أيام السفينة عاكفاً على قراءة كتاب فى حياة عثمان لا صلة بينه وبين الراحة والدعة والفراغ ، وما أعرف أنى استمتعت بشئ طول هذا العام كما استمتعت بهذه القراءة التى استطعت أن أفرغ لها دون أن تصرفنى عنها صلصلة التليفون أو الزيارة المفاجئة أو الأسئلة التى لا غناء فيها أو قراءة السخف السياسى والمشاركة فيه .

أترى إلى هذا النوع من معانى الراحة كما عرضته عليك فى هذه السذاجة التى لا تكلف فيها أنه معنى إضافى مقصور علىّ أو يوشك أن يكون مقصوراً على ؛ فغيرى من الناس يذهبون فى الراحة غير مذهبى ويبتغون بها غير ما أبتغى، وينتظرون منها غير ما أنتظر، تتقارب آراؤنا وأهواؤنا فى ذلك وتتباعد، ولكنها تختلف على كل حال باختلاف أمزجتنا وطبائعنا وآمالنا وما نسعد أو نشقى به من ضروب الحياة .

فاذا ذكرت الدعة فأمرها فى ذلك كأمر الراحة يختلف معناها باختلاف طلابها ؛ فليست الدعة عندى ترفاً ولا شيئاً يشبه الترف ، وأكاد أقطع بأنى أجد من الترف فى دارى بالقاهرة ما لا أجده بل ما لا أجد قريباً منه فى أى مكان آخر من الأرض ، وإنما الدعة التى أطمع فيها وأطمح إليها حين أمنح نفسى الإجازة من عام إلى عام هى التخفف من أثقال التكاليف التى تفرضها حياتنا اليومية المنظمة ، هى التخلص من العادات المألوفة والنظم المقررة الملحة التى تلقاك إذا خرجت من نومك مع الصبح وأقبلت على طعامك تصيب منه على نحو لا يتغير أولا يكاد يتغير ، ثم على ثيابك تلبسها على نحو لا ينبغى أن تحيد عنه قليلا ولا كثيراً ، ثم على مكتبك ثم على مكانك فى هذا المكتب ، ثم على عملك فى هذا المكان ، ثم على مايلم بك من هذه الأحداث المتشابهة التى تكاد تتنبأ بها قبل أن تنسل من سريرك ، وتكاد تحدد لها أوقاتها من النهار أو من الليل لا يفاجئك إلا مايكون من صلصلة التليفون وزيارة الزائرين ؛ وأنت مع ذلك قد قدرتها وحسبت لها حسابها ؛ لأنها أصبحت جزءاً من حياتك وقطعة من سيرتك لا سبيل إلى أن تخلص منها أو تتخفف من أثقالها. هذه الحياة المنظمة المضطربة التى تطرد ولكنها لا تخلو مع ذلك من الأمت والاعوجاج والنبو هنا وهناك ، والتى تفرض نفسها عليك من أول العام إلى آخره ، قد قدرت نفسها ودقائقها تقديراً مفصلا دقيقاً مضنياً ، هذه الحياة هى التى تضيق بك أو تضيق بها ، أو تبادلك ضيقاً بضيق حين يتقدم العام وما تزال بك حتى تعجز عن احتمالها ، وما تزال أنت بها حتى تعجز هى عن احتمالك . فاذا بلغ العام آخره أصبحت أنت مجهداً مكدوداً لا تقدر على شىء ، وأصبحت هى فارغة سخيفة لا تصلح لشىء ، وأصبحت الدعة هى هذا الشعور الذى يُلقى فى روعك أنك فارقت هذه الحياة وأنها فارقتك ، وأن كليكما قد تخفف من صاحبه إلى حين .

كذلك أفهم الدعة ، وعلى هذا النحو أطمح فيها وأطمع إليها ، ولا علىّ بعد ذلك أن تثقل الأعباء أو تخف ، وأن يغلظ العيش أو يلين ، إنما قصاراى أن أتخفف من هذا الثقل المفروض الذى لا محيد عنه فى مصر ، وأن أحتمل ثقلا غيره ، قد يكون أشد منه تعنية و إضناء ، ولكنه ثقل آخر يصور حياة أخرى ويتيح للشخصية أن تجدد نفسها على نحو ما وهذا يكفى .

فاذا أضفت إلى هذا أن من الجائز أن تتيح لك الأيام أثناء الإجازة متعة

فنية هنا أو هناك فتقرأ كتاباً كان من الممكن ألا تقرأه ، وتقرأ هذا الكتاب رغبة فى قراءته لا أداء لواجب ولاوفاء بوعد ولا تأهباً لكتابة فصل ، وتشهد هذه المسرحية أو تلك،وتسمع للموسيقى هنا أو هناك،وتلقى هذا الأديب أو ذاك من الذين تسمع عنهم وتقرأ لهم ويحول بعد الشقة بينك وبين لقائهم — أقول إذا أضفت إلى هذا أن الأيام قد تتيح لك أثناء الراحة شيئاً من هذا المتاع فقد بلغت الدعة أقصاها وانتهت إلى غايتها .

وقد يفهم غيرى من الناس دعتهم على غير هذا النحو ، بل من المحقق أن لغيرى من الناس صوراً من الدعة لعلها لاتخطر لى على بال ، ولكن هذا كله إنما يدل على ماقدمت آنفاً من أن ألفاظ الراحة والدعة والهدوء تدل على معان أكثر وأعسر وأشد تعقيداً مما نظن . والهدوء ماهو أو ما عسى أن يكون ؟ أهو هذا الهدوء المادى الذى تنعم به حين تستقر فى قرية مطمئنة بعيدة عن المدن وعما يكون فيها من الضجيج والعجيج ؟ أهو هذا الهدوء المعنوى الذى تنعم به حين تفرغ لنفسك وتخلو إليها وحين تفرغ نفسك لك وتخلو إليك بعد أن يتاح لكما الإفلات من الحياة المنظمة المطردة ؟ أهو مزاج من الهدوء المادى والمعنوى ؟ كل ذلك ممكن ، بل كل ذلك واقع؛ ولكن الشىء المحقق أنى أجد الهدوء المادى والمعنوى فى كل مكان إلا فى مصر ؛ فقد أراد الله ألا تتيح الحياة لى فى وطننا العزيز الكريم راحة ولا دعة ولا هدوءا .

والناس يذكرون الفراغ حين يذكرون الإجازة وحين لا يذكرونها أيضاً . وقد يكون من الممكن أن نجد لكلمة الفراغ معنى فى معاجم اللغة ، وأن نجد من النصوص الأدبية فى العصور المختلفة ما يبين لنا عن هذا المعنى فى وضوح وجلاء . بل قد يكون من الممكن أن نجد بين أصحاب الترف والثراء العريض مُثُلاً قوية صادقة تبين لنا عن معنى الفراغ . أما أنا فأعترف ، مع الحزن أو مع السرور لا أدرى ، أنى لم أجد بعد للفراغ معنى أستطيع أن أحققه . وأكبر الظن أن هذا شىء لن يتاح لى إلى آخر الدهر . إنما يتحقق معنى الفراغ حين تستطيع النفس الانسانية أن تخلص من الحس والشعور والتفكير والتقدير والحكم واللذة والألم واليأس والرجاء ، وهى إذا خلصت من هذا كله فقد اشتمل عليها الموت . أتراها بعد الموت قادرة على أن تحقق معنى الفراغ !

فى هذه المعانى كلها وفى معان أخرى كثيرة من أمثالها فكرت حين منحت نفسى إجازة أقضيها خارج القطر كما يقول الموظفون . فالإجازة عندى إذن هى الخروج من حياة إلى حياة ، والتخفف من أثقال لاحتمال أثقال أخرى،والاستعفاء من بعض الواجبات لالتزام واجبات أخرى.فنحن إذن لا نعفى أنفسنا من بعض الالتزام إلا لنفرض عليها التزاماً آخر . ونحن لا نخرج من عمل إلا لندخل فى عمل آخر . فالخير إذن فى أن نعود بالاجازة إلى معناها اللغوى القديم وهو الانتقال من مكان إلى مكان ، والعبور من أحد شاطئى النهر إلى شاطئه الآخر . وإنى لأشهد لقد بدأت إجازتى هذا العام كما بدأتها فيما مضى من الأعوام فلم أشعر إلا بأنى انتقلت من جهد إلى جهد ، ومن جد إلى جد ، ومن التزام إلى التزام . وإنى لأفكر فى هذه الأسفار الضخمة التى ملأ بها صاحبى حقيبة ضخمة والتى يجب أن تقرأ لعل قراءتها أن تؤدى إلى شئ يستطيع الناس أن يقرءوه ، إنى لأفكر فى هذه الكتب الضخمة وفى صلصلة التليفون التى أيقظتنى صباح اليوم فى باريس كما كانت توقظنى كل صباح فى القاهرة ، وفى المواعيد التى تطلب إلىّ وفى المواعيد التى أعطيها ، فأسأل نفسى أحقاً أنى قد منحتها إجازة تقضيها خارج القطر؟ نعم ! إن الإجازات التى تمنح للموظفين والعاملين والتى نمنحها نحن لأنفسنا بين حين وحين ، ليست إلا إجازات صغارا أو قل إنها إجازات بالاستعارة لا بالحقيقة . فأما الاجازة الكبرى ، الاجازة التى يدل لفظها على معناها دلالة لا تتعرض لشك ولا غموض ، فهى تلك التى لا يمنحها الناس للناس ولا يمنحها الناس لأنفسهم ؛ وإنما يمنحها الله للناس حين يريح منهم الحياة وحين يريحهم من الحياة .

طه حسين

باريس ، يونيو ١٩٤٧

فى أفق السياسة العالمية

إيطاليا والبحر المتوسط

سخر موسولينى مرة — كما كان يسخر كثيراً من انجلترا — من قول شاعرها «إن الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا أبد الدهر» . فقال تعقيباً على كلمة الشاعر الانجليزى : ما هذا إلا سخف وقول هراء ؛ فقد جمعت روما قديماً بين الشرق والغرب فى دولة واحدة وتحت قانون واحد ، وكان البحر المتوسط هو واسطة هذه الوحدة التى استمرت عدة قرون . وقد كان البحر المتوسط خليقاً بأن يظل يربط بين الشرق والغرب لولا الاختراعات العلمية والكشوف الجغرافية الحديثة التى أوجدت طرقاً أخرى للملاحة وأنشأت أسواقاً جديدة للتجارة ، فخمل شأن البحر المتوسط وقامت فى العالم مدنية غربية جديدة موسومة بطغيان المادة . وكان موسولينى يؤكد أن الحكومة الفاشية كفيلة بأن تبعث فى إيطاليا روحاً جديدة تعيد إلى البحر المتوسط أهميته كعامل يربط الشرق والغرب ، تحدياً لبريطانيا وشاعرها .

والحق أن الحكومة الفاشية فى إيطاليا ما فتئت تعمل وتنشر دعايتها عن البحر المتوسط طوال عهدها ، حتى وقر فى النفوس ورسخ فى أذهان القوم أن البحر المتوسط مقترن باسم إيطاليا وقوتها ، وأنه جدير بأن يسموه فى كتبهم وخطبهم «بحرنا» . ولم يكتف الفاشيون بالاعلان والدعاية المجردة ، بل رسموا سياستهم الخارجية وخططهم الدفاعية على أساس القوة البحرية حتى أصبح للبحر المتوسط منذ العهد الفاشى فى إيطاليا كيان سياسى قائم لم تلبث الدول أن خصته بأكبر نصيب من اهتمامها وجعلت له مكاناً هاما فى خططها الحربية والدفاعية .

وتمتاز إيطاليا بأنها شبه جزيرة تغمرها المياه من جميع جهاتها تقريباً ، وأن البحر المتوسط يلامس سواحلها الشمالية والغربية والجنوبية على حين تطل سواحلها الشرقية على البحر الادرياتى الذى يتصل بالبحر المتوسط بمضيق أترنتو الذى تبلغ سعته ٤٦ ميلا . ولذلك كانت إيطاليا تقول إن حقها فى البحر

المتوسط لا تدانيها فيه أية دولة أخرى ؛ فليس لفرنسا على البحر المتوسط سوى ساحل صغير فى جنوبها . أما انجلترا فليس لها فيه أية حقوق ثابتة إذا ما أسقطنا من حسابنا المصالح الاستعمارية التى تدعيها بريطانيا وفرنسا فى أجزائه المختلفة . ومع ذلك فقد ظلت إيطاليا وما زالت إلى اليوم تعتبر نفسها دولة سجينة فى البحر المتوسط ، وسجانوها هم منافسوها من الانجليز والفرنسيين . فبينما نرى لانجلترا وفرنسا منافذ ومسالك تجارية عدة تعبر المحيط الأطلنطى عن غير طريق البحر المتوسط تستطيع كلتاهما أن تلجأ إليها عند الحاجة ، لا تجد إيطاليا أمامها منفذاً آخر غير البحر المتوسط إذا بدا لها أن تولى وجهها نحو الشرق أو الغرب . ولا مندوحة لها إذا أعوزتها الظروف إلى التماس منفذ آخر عن طرق إحدى البوابتين اللتين تتحكمان فى مدخل البحر فإما قناة السويس شرقاً وإما جبل طارق غرباً وكلتاهما تقف على حراستها انجلترا وفى يدها دون غيرها المفتاح . لذلك ركزت إيطاليا الفاشية جهودها وسياستها لتحقيق غرض نهائى واحد هو أن تفلت من ذلك الحصر أو السجن البحرى . ولا يمكنها أن تبلغ ذلك إلا عن طريق التفوق البحرى والتوسع الخارجى .



المنطقة التى ضمتها يوغسلافيا أخيراً من ايطاليا
منطقة تريستة الدولية

أما القوة البحرية فان موسولينى لم ين عن تذكير الشعب الإيطالى بماضيه البحرى وتفوق جنوه والبندقية فى مياه البحر المتوسط طوال العصور الوسطى وأوائل العصور الحديثة ، وكان يردد دائماً قوله إن مصير إيطاليا مرتبط منذ القديم بالبحر وسيظل مرتبطاً به ، ولا يحق لأحد أن يزعم أن إيطاليا مقلدة فى ذلك ية دولة أخرى . وقد شفع القول كدأبه بالعمل ، فأقام المصانع الكبرى لبناء

السفن فى جنوه وتريسته ونابلى ، فلم تمض إلا سنوات قليلة حتى صار لايطاليا أسطول كبير به من الغواصات الصالحة للعمل فى البحر المتوسط وفى المحيطات ما يزيد عدده على المائة ، فضلا عن البوارج والمدمرات وسفن الطوربيد والقوارب المسلحة إلى السفن الحربية الصغيرة التى تلائم حاجة الملاحة والهجوم فى البحر المتوسط والتى زادت إيطاليا إنتاجها إلى درجة فاقت كل تقدير .

وقد حاول موسولينى أن يجرب حظه فى البحر قبل أن يكتمل استعداده ، فأمر باحتلال جزيرة كورفو من جزر الأيونيان التابعة لليونان ، ولكن الدول اضطرته إلى التراجع . فقد حدث أن اعتدى اليونانيون فى أغسطس ١٩٢٣ على الرئيس الايطالى للجنة الدولية التى كانت تعين الحدود بين اليونان وألبانيا فاغتالوه ومن معه من الطليان ، ولما تباطأت اليونان فى الاعتذار ودفع الغرامة التى طلبها موسولينى وحدد لها أجلا ، أمر فتحرك الأسطول الايطالى واحتل جزيرة كورفو بالقوة ، فلجأت اليونان إلى عصبة الأمم فتدخل مجلس العصبة فى الأمر وفرض على اليونان أن تدفع التعويض الذى طلبته إيطاليا وقدره ٥٠ مليون ليره إيطالية ، فقبلت اليونان التحكيم وسحبت إيطاليا قواتها من كورفو بعد أن تعلم موسولينى الدرس الأول وهو أن إيطاليا بمفردها لا تستطيع أن تتحدى الدول مجتمعة ما لم تنهض بقواتها إلى مستوى يفوق مستوى فرنسا ويدانى مستوى انجلترا منافستها فى البحر المتوسط .

وعلى ذلك اضطلعت الحكومة الفاشية بحركة الاصلاحات الشاملة التى تناولت جميع المرافق فى إيطاليا ، وفى مقدمتها تقوية أسلحة البر والبحر والجو ، حتى إذا اكتملت معدات الهجوم أو كادت لاحت أمام موسولينى أهدافه الكبرى قريبة المنال ، ليفلت من البحر المتوسط ويتوسع ما شاءت له أطماعه بالسطو على البلاد المستقلة الوحيدة التى تركها الاستعمار الأوربى دون أن يحتجزها لإحدى الدول وهى بلاد الحبشة ؛ حتى إذا ما تم له الاستيلاء عليها أصبحت إيطاليا بمنأى عن خناق البحر المتوسط من جهة وعلى مقربة من بوابة المحيط الهندى وأرض اليمن الدولة الصديقة لإيطاليا من جهة أخرى . وقدر موسولينى فى نفسه أن بريطانيا ومن ورائها عصبة الأمم ستقف لايطاليا بالمرصاد وتعمل جاهدة على إحباط المشروع الايطالى ، ولكنه أمعن فى درس موضوعه واستجلاء العوامل الدولية والسياسية التى تحيط به ما ظهر منها وما بطن ،فأدى به الدرس والتحليل

إلى أن القوات التى تتسلح بها الدول فى الميادين المختلفة لا يقتصر قياسها وتقدير قيمها على حساب عددها وأنواعها ومدى مفعولها ، بل لابد إلى ذلك من حسبان عامل معنوى آخر على درجة عظيمة من الخطورة وهو مقدار استعداد الدولة صاحبة الشأن لاستخدام تلك القوات ومبلغ قوة إرادة الشعب الذى تستند إليه الحكومات فى ذلك الشأن . وقد هداه النظر فى هذه الاعتبارات إلى أن قوات انجلترا سواء فى البحر أو الجو أو البر ليس لها خطر ولا ينبغى أن تدخل فى حسابه ما دامت الحكومة الانجليزية إذ ذاك تبذل غاية جهدها لتفادى الحرب ، وما دام الشعب الانجليزى على اختلاف طبقاته يمقت الحرب ويؤمن بميثاق العصبة ونظرية السلام العام .

وعلى هذا الأساس رمى موسولينى بسهمه وهو واثق من إصابة الهدف ،فتحدى بريطانيا ومعها العصبة ، واعتدت قواته على استقلال الحبشة ووطئت أرضها جيوش إيطاليا بمعداتها وطائراتها وغازاتها السامة مخترقة قناة السويس التى كانت تسيطر عليها بريطانيا ، وتم ذلك كله تحت سمع عصبة الأمم وبصرها .

ومع إجماع بريطانيا وسائر دول العصبة على توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا فلم تقف إلى جانبها من بين الدول المشتركة فى العصبة إلا ألبانيا والنمسا والمجر وإلا ألمانيا التى كانت خارجة على العصبة منذ ١٩٣٣ ، فان إيطاليا لم تتعثر فى طريقها أو تتردد فى مواصلة عدوانها معتمدة على الحالة النفسية التى ذكرناها وعلى ما بدا من خلاف فى الرأى بين انجلترا وفرنسا عقب زيارة الوزير الفرنسى لافال لموسولينى فى روما سنة ١٩٣٥ . وكان تنفيذ العقوبات الاقتصادية على إيطاليا من أقوى العوامل التى استغلها موسولينى فى إثارة حماسة الشعب الايطالى ضد الدول ، وفى تقوية عزمه على المضى فى تنفيذ خططه الحربية مهما كلفه ذلك من تضحية وحرمان .

وعلى ذلك بدأت الحرب بين إيطاليا والحبشة فى أكتوبر سنة ١٩٣٥ ولم تستطع الحبشة أن تقاوم طويلا أمام جحافل إيطاليا ووسائلها الحربية الحديثة المشروعة منها وغير المشروعة ، فتم لايطاليا النصر بعد ستة أشهر وأعلن موسولينى ضم أثيوبيا إلى التاج الايطالى ، وأعلن ملك إيطاليا نفسه إمبراطوراً عليها . ولم يسع الدول بعد ذلك سوى تجفيف عرق الخجل ومواجهة الأمر الواقع فاعترفت واحدة تلو الأخرى بالامبراطورية الجديدة التى أنشأتها إيطاليا فى

شرق إفريقية والتى وقفت فيها على قرب المحيط الهندى تهدد النفوذ الفرنسى فى جيبوتى من الصومال الفرنسى من جهة وتهدد بريطانيا فى السودان المصرى من جهة أخرى .

وما كاد موسولينى يخرج ظافراً من حلبة النزاع الايطالى الحبشى حتى اندلعت شرارة الحرب الأهلية فى أسبانيا بين الوطنيين يرأسهم الجنرال فرنكو والجمهوريين الشيوعيين تناصرهم روسيا وفرنسا وفئات من المتطوعين الانجليز وغيرهم فرأى موسولينى فى محنة أسبانيا فرصة يغتنمها فيقف عند بوابة جبل طارق حائلا دون نفعها بالاستيلاء على إحدى جزر البليار ، وبذلك تقف إيطاليا حجر عثرة فى طريق مواصلات انجلترا فى البحر المتوسط من جهة وتهدد الخط الحيوى الذى يربط فرنسا بمستعمراتها فى شمال إفريقية من جهة أخرى ، فضلا عما تفيده إيطاليا إذا انتصر الوطنيون الأسبان من كبح جماح الشيوعية فى غرب أوربا وتثبيت نفوذها فى داخل أسبانيا . وكانت ألمانيا فى سبيل مناهضة الشيوعية قد عقدت مع اليابان فى سنة ١٩٣٦ ميثاق مناهضة الشيوعية الدولية المعروف بالأنتيكمنترن Anticomintern Pact . والحد من نشاطها فرحبت بالتدخل فى أسبانيا إلى جانب الوطنيين ؛ وكانت هى أيضاً تضمر الافادة بما تستغله من المعادن فى شمال أسبانيا وبتحصين ميناء سبتة المواجه لجبل طارق فى بلاد المغرب الاسبانية . وبذلك استحالت الحرب الأهلية فى أسبانيا إلى ميدان دولى تختبر فيه الدول والحكومات المتنازعة مخترعاتها وأسلحتها وتهيئ فيه لقواتها الفرص للمرانة والتدريب .

وفى الوقت الذى كانت الدول تقرر فيه رسميا عدم التدخل فى الحرب الأهليه كانت الشعوب والحكومات توالى إرسال المتطوعين والمساعدات إلى الفريقين المتحاربين . وقد بلغ ما أرسلته إيطاليا من المتطوعين فى جيش فرنكو نحو ١٠٠,٠٠٠ جندى ، واختصت ألمانيا بارسال الطائرات والدبابات والمدافع والخبراء الفنيين فى مختلف فنون الحرب وصناعاتها ، على حين أنشأت فرنسا فرقة دولية للمتطوعين لمساعدة الجمهوريين ، وسمحت لهم الحكومة باختراق الحدود إلى أسبانيا ، وكانت حكومة السوفيت تزودهم بالطائرات والمعدات . ولكن إيطاليا وألمانيا كانتا أسمى وأسرع فى معاونة فرنكو ؛ ولذلك تفوقت قواته فسقطت برشلونة ثم مدريد بعد حصار دام سنتين ونصف سنة ، وانتهت الحرب فى أبريل

سنة ١٩٣٩ وقد أيقنت كل من إيطاليا وألمانيا بتفوق معداتهما على معدات فرنسا وروسيا . ولـكن سياسة عدم التدخل والاحتفاظ بالحالة الحاضرة التى أقرتها الدول رسميا قد حرمت إيطاليا تحقيق مآربها فى احتلال إحدى جزر البليار . ووجد موسولينى نفسه مضطراً فى مقابل اعتراف انجلترا بالامبراطورية الايطالية فى الحبشة إلى تحسين علاقاته مؤقتاً مع انجلترا ، فتفاهما ووقعا اتفاق « الجنتلمان » أو اتفاق الرجل الشريف فى سنة ١٩٣٨ واعترفت فيه الدولتان بأهمية البحر المتوسط لـكل منهما ، وتعهدتا بأن تحترم كل منهما مصالح الأخرى مع إقرار بقاء الحالة الحاضرة فيه دون تغيير . ولـكن اتفاق « الجنتلمان » لم يفد كثيراً ؛ فما لبثت العلاقات بين بريطانيا و إيطاليا أن توترت على أثر مقاطعة إيطاليا لحفلة تتويج الملك جورج السادس ومعاودتها حملة الطعن والتشهير على انجلترا من محطات الاذاعة الايطالية ، وخاصة محطة بارى التى كانت تذيع باللغة العربية . ثم لم تلبث نيات إيطاليا أن ظهرت فيما بدا من الصلة بين هتلر وموسولينى ؛ فقد زار هتلر روما فى مايو سنة ١٩٣٨ ورد موسولينى له الزيارة فى أغسطس من تلك السنة .

ويظهر أن موسولينى قد أعاد إلى ذهنه تجربة سنة ١٩١٥ حين قررت إيطاليا إهمال المحالفة الثلاثية التى كانت تربطها بألمانيا والنمسا والانضمام إلى صفوف الحلفاء ، فوازن فى دخيلة نفسه بين ما تـكسبه إيطاليا من انحيازها لهتلر وبين ما تستطيع أن تصيبه من جانب الحلفاء ، فآثر فى النهاية أن ينضم إلى ألمانيا إذ كانت إيطاليا تهدف بعد فتح الحبشة إلى ضم تونس وجزيرة قورسيقه ونيس فى جنوب فرنسا ، والحصول على مقعد لها فى مجلس إدارة شركة قناة السويس بعد أن أصبحت مصالح الامبراطورية الجديدة مرتبطة إلى درجة عظيمة بمصير القناة . ولما كان تحقيق هذه الأهداف يتعارض تعارضاً تاما مع مصالح بريطانيا وفرنسا فى البحر المتوسط فقد رجحت فى نظر موسولينى كفة محور روما — برلين لا سيما أنه كان لا يزال ينقم على انجلترا والعصبة توقيع العقوبات الاقتصادية على إيطاليا ، ويتحرق لهفة للانتقام وانتهاز أول فرصة تسنح للقضاء على أعدائه أوعداء نظامه الفاشى . وما كان موسولينى لينقاد بسهولة إلى شهوة الانتقام لو لم تقنعه الحقائق الواضحة لـكل ذى عينين بأنه أمام فرصة يحسن اغتنامها ؛ فقد كان يعارض بشدة فى ضم النمسا إلى ألمانيا ، ولـكنه حين زار برلين فى خريف

سنة ١٩٣٨ راعه ما رآه من هول الأداة الحربية الألمانية وما عرفه عن قوة استعداد ألمانيا إلى درجة تقرب من حد الاعجاز البشرى ، فاقتنع اقتناعاً ملك عليه عقله وإحساسه ومنطقه بأن ألمانيا هى حقا فوق الجميع وأنها لا يمكن أن تقهر بأية حال. ومن ثم قبل على مضض اندماج النمسا فى ألمانيا ، وفوّق السهم للمرة الثانية إلى هدف جديد ، فانضم إلى جانب ألمانيا وسايرها فى مناهضة الشيوعية الدولية وفى التشريع ضد اليهود ، ثم فيما هو أهم من ذلك كله وهو الخروج من عصبة الأمم وعقد المحالفة الدفاعية الهجومية مع ألمانيا فى سنة ١٩٣٩ .

وكانت أول ثمرة للمحالفة الجديدة أن سطت إيطاليا على ألبانيا فى يوم الجمعة الحزينة لعام ١٩٣٩ وشردت ملكها ومليكتها النفساء وضمت البلاد إلى التاج الايطالى ، وكانت ألبانيا هى المجاز الذى قررت إيطاليا متى اندلعت شرارة الحرب أن تثب منه على عدوتيها يوغوسلافيا واليونان . ومع أن موسولينى قد التزم الحيدة فى بدء نشوب الحرب لهول الصدمة التى تلقاها باعلان التحالف بين ألمانيا وروسيا ، فانه لم يلبث أن انساق لتنفيذ الخطة الموضوعة . وقد خاب فأله فى هذه المرة وجافاه التوفيق ، إذ تنكر لمبدأ إرادة الشعب فى الحرب وهو المبدأ نفسه الذى استند إليه موسولينى نفسه فى أثناء الأزمة الحبشية فأفلح . فقد كانت كثرة الشعب الايطالى فى هذه الفترة تكره أن تنساق وراء ألمانيا فى حروبها ، وتود لو أن إيطاليا لزمت الحيدة وحافظت على موقفها من الحلفاء ما دامت بأيديهم مسالك البحار والمحيطات حتى لا تتعرض إيطاليا لخطر الجوع والحرمان . ولكن موسولينى أغمض عينيه وأصم أذنيه وكأنما عميت بصيرته وغفل عن كل مايراه ويسمعه وما قد تجره الحرب على بلاده من ويلات ، واغتر بثقة الشعب به وإيمانه بأنه الزعيم الذى لا يمكن أن يخطئ ، فجرفه تيار الحرب وربط مصير بلاده بعجلة آلة الحرب الألمانية ، وانتهز فرصة انهيار فرنسا أمام ألمانيا فى يونيه سنة ١٩٤٠ فهاجمها من الخلف . وبدأت منذ ذلك الوقت محنة إيطاليا وارتفع الستار عن مأساتها الأخيرة .

لقد خان زعيم إيطاليا أمانة السلم والأمن التى كانت فى عنقه لبلاده ، فغامر بمستقبل الأمة التى عبدته والتى أفنى أكثر من ربع قرن فى تجديدها وتنشئتها خلقاً جديداً ؛ إذ أكرهها على دخول الحرب إلى جانب الشعب الذى كان الايطاليون يخشونه ويرهبونه ويضمرون له فى قرارة أنفسهم إلى ذلك مقتاً

شديداً . ولذلك لم يكن غريباً أن تتابع الكوارث الحربية على إيطاليا ، فمن تقهقر أمام اليونان فى البلقان إلى ضياع للامبراطورية الايطالية فى أثيوبيا وشرق إفريقية ثم إلى ارتداد وخذلان وفرار من ليبيا والجبهة الشرقية فى شمال إفريقية .

وقد حاول الألمان فى أول الأمر إصلاح حال حليفتهم ، فلما استعصى العلاج ونفد الصبر وضع الألمان أيديهم على أداة الحرب فى إيطاليا ؛ ولم تمض إلا ثلاث سنوات على دخول إيطاليا الحرب حتى فقدت البلاد تماسكها وتحكم الأجنبى فى مصايرها . ثم جاءت الساعة الحاسمة ؛ فما كاد الحلفاء يعبرون البحر المتوسط من تونس إلى جزيرة بنتالاريا وصقلية حتى زالت الغشاوة التى كانت ترين على أبصار الشعب الايطالى فى السنين الأخيرة . فبدلا من أن يستميت فى المقاومة كما نصح موسولينى ، مد الطليان أذرعتهم لاستقبال مخلصيهم من طغيان الفاشيين ومن النظام الألمانى الصارم ، ووضح للملك ولأعوان موسولينى وللناس جميعاً أن موسولينى قد خسر الموقعة الأخيرة ، فاجتمع المجلس الأعلى للفاشية وقرر فى ٢٤ يوليه ١٩٤٣ بأكثرية تسعة أصوات ضد سبعة أن يتولى الملك قيادة القوات الايطالية ، وكان معنى ذلك إبعاد موسولينى ، وعين الملك المارشال بادوليو Badoglio رئيساً للهيئة التنفيذية فحل الحزب الفاشى وقبض على موسولينى وأبعد الفاشيين من إدارات الحكومة ، وبدأ يفاوض الحلفاء على شروط الهدنة فتقررت فى سبتمبر سنة ١٩٤٣ وانضم الطليان إلى جانب الحلفاء ، ثم أخذ الحلفاء يزحفون ببطء داخل إيطاليا حتى استطاعوا دخول روما فى يوليه سنة ١٩٤٤ .

وكان الألمان قد خطفوا موسولينى من معتقله بالطائرة . فلما ارتد الألمان أمام زحف الحلفاء الأخير فى الشرق والغرب والجنوب حاول موسولينى الهرب إلى سويسرا ، ولكن مواطنيه الطليان باغتوه وقبضوا عليه وقتلوه فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٥ ومثلوا به شر مثلة . وفى أوائل مايو استسلم القواد الألمان ، فانتهت بذلك الحرب فى ميادين أوربا . وخرجت إيطاليا من الحرب ذليلة مهيضة الجناح منكسة الرأس يلطخ العار جبينها ويغض أبصارها ، لا لانكسارها الحربى فحسب فقد سبق أن انهزم الطليان أمام الأحباش هزيمة منكرة فى موقعة عدوة كما أذاقهم العرب والترك من قبل فى طرابلس وبرقة طعم الهزيمة فى مواقع عدة ،

ولكنهم لم يجازفوا فى مرة من تلك المرات أو يقامروا باسم بلادهم وشرف زعمائهم كما فعلوا فى هذه المرة . فقد أذعنوا أو سلموا قيادهم لموسولينى وكان قويا بهم مع أنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنه على خطأ فيما جرهم إليه ، وأن دخول إيطاليا الحرب وهى لاتزال مكلومة من حرب الحبشة سينتهى بها حتما إلى الهاوية. ثم لم تكد الهزيمة تكشر عن أنيابها ويتحرج مركز الزعيم المعبود حتى انقلبوا عليه وأنزلوه من حالق فهوى إلى مواطئ نعالهم ، فداسوه وداسوا معه المبادئ التى طالما آمنوا بها ودعوا إليها . وكأنما كان معبود إيطاليا العتيد تمثالا من طين عبدوه فترة من الزمن وأحرقوا من حوله البخور ودقوا له الطبول ، ثم ما لبثوا أن كفروا به فهشموه حتى أحالوه تراباً . على أن إيطاليا التى جالدت خطوب الزمن وصارعت أحداثه آلاف السنين لم تفقد يوماً حيويتها ولم تعدم وسيلة لتلائم بين ظروفها وحاجاتها . فما كاد الحلفاء يسلمون زمام الأمور فى البلاد للهيئة الحاكمة الجديدة حتى بدأ الايطاليون يعوضون ما خسروه فى الحرب من إنتاج وأسواق فأقاموا كثيراً من مصانعهم ، واستعاضوا عن الوقود الذى قل فى أوربا جميعها والذى فقدته إيطاليا بعد ضياع شبه جزيرة استريا باستخدام الكهرباء من مساقط الماء وخاصة فى القسم الشمالى حيث جبال الألب والأنهار السريعة الجريان . وقد أبقت الحرب على كثير من محطات القوى المائية التى أقيمت بكثرة فى العهد الفاشى فلم ينلها عطب يذكر .

واغتنمت إيطاليا فرصة خروج ألمانيا واليابان من ميدان التنافس التجارى فنهضت بانتاجها الصناعى والزراعى ، واستبدلت بمنتجاتها الخامات من بريطانيا وأمريكا ومصر والهند ، ولم يبق مغلقاً أمامها إلا أسواق شرق أوربا ؛ فاذا سويت مسألة التعويضات بينها وبين روسيا انفتحت لها أسواق روسيا والبلقان ، واستطاعت إيطاليا أن تسترد كثيراً مما فقدته بسبب الحرب . وإذا كانت مالية البلاد قد تضعضعت إلى حد الافلاس — إذ بلغ العجز بين الايراد والمنصرف فى سنة ١٩٤٥ أكثر من ١١٥ ألف مليون ليرة كما بلغ الدين الوطنى ٨٠٠ ألف مليون ليرة عدا القروض الأجنبية — فان القرارات الأخيرة بشأن تخفيض قوات إيطاليا المسلحة إلى أدنى حد ممكن سيكون من شأنها أن ترفع عن كاهل البلاد جانباً ثقيلا من التبعات المالية التى كانت ترهق ميزانية البلاد قبل الحرب الأخيرة ، كما سيكون لإبعاد إيطاليا عن مستعمراتها أحسن الأثر فى

تركيز ثروة البلاد وإعفائها من تحمل تبعات الدفاع عنها واستتباب النظام فيها هذا إلى أن الايطاليين الذين يرغبون عادة فى الهجرة من بلادهم قوم فقراء تعوزهم رءوس الأموال اللازمة للتشمير . والتعمير وقد دلت التجربة القاسية فى ليبيا والحبشة على قلة استعداد الطليان لحكم المستعمرات على رغم حسن قابليتهم للاندماج مع الأهالى والعيش على الكفاف . وإذ كانت إيطاليا أول دول المحور استسلاماً وطلبا للصلح والانضمام إلى جانب الحلفاء ، جاءت قرارات الصلح الذى أبرم فى مارس الماضى مع حكومة إيطاليا الجمهورية الجديدة أخف وقعاً مما كان ينتظر . وتنحصر التعديلات والتغييرات الاقليمية التى اقتضاها الصلح فى تصحيح فرنسا لحدودها الشرقية باضافة بعض مساحات صغيرة إليها من الأراضى الايطالية ؛ وقد أصرت فرنسا على ضرورة ذلك عقاباً لايطاليا على هجومها المفاجئ فى يونية سنة ١٩٤٠ ومع ذلك فقد اشترط الحلفاء على فرنسا أن تحترم مصالح الايطاليين فى تلك المناطق ، وأن تحتفظ للطليان بمحطات القوى التى أنشئت بها . وأما جزر الدوديكانير فقد كانت حجة إيطاليا فى الاستمساك بها بالغة منتهى الضعف ؛ إذ كانت تلك الجزر تابعة فى الأصل لتركيا ، وهى من حيث الجنس واللغة والدين والتقاليد تنتسب إلى اليونان ، وقد تسلمتها اليونان فعلا فى مارس الماضى . وأما مستعمراتها فى إفريقية فقد أرجئ تقرير مصيرها عاماً منذ تاريخ إقرار الصلح مع إيطاليا حتى تستطيع اللجنة التى ألفها الحلفاء أن تدرس الحالة وتقدم مقترحاتها . ولا يزال النزاع بشأنها شديداً بين حكومة اتحاد السوفيت من جهة والحكومات الديمقراطية من جهة أخرى . ويكاد أمل إيطاليا فى استرداد شئ منها يكون فى حكم المستحيل بعد الذى عاناه أهالى المستعمرات من الحكم الفاشى قبل الحرب الأخيرة .

بقيت مشكلة تريستة ومنطقة فنيزيا جوليا وشبه جزيرة أستريا Istria وهى الحاجز الذى يفصل بين شرق أوربا وغربها والذى تصطدم فيه مصالح يوغسلافيا بمصالح إيطاليا . وقد كانت هذه المنطقة منذ الحرب العالمية الأولى مصدر نزاع بين الدولتين ، وقد أصرت يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية على استرداد تلك المنطقة من إيطاليا ، ووجدت من جانب حكومة السوفيت سنداً لها ، فضمت معظم المنطقة ما عدا تريستة التى احتلها الحلفاء ولايزالون بها حتى

الآن ، وقد دعا هذا إلى تحرج الموقف بين حكومات الغرب والشرق . وليس خافياً أن الموقف فى البحر الادرياتى لا يحتمل وجود دولة كبيرة كايطاليا إلى جانب دولة متوسطة كيوغسلافيا ، وأن كتلة الدول الشرقية حريصة على تكبير شأن يوغسلافيا وصبغ المنطقة جميعها باللون الأحمر . وبما أن إيطاليا بحكم تقاليدها وميولها قد اتجهت بسياستها نحو الدول الغربية فقد اشتد النزاع بين الجانبين بشأن تريستة وتقرر فى النهاية أن تكون منطقة دولية محايدة تخدم مصالح أوربا الوسطى جميعا . أما يوغسلافيا فقد وضعت يدها على جزر البحر الأدرياتى وعلى ميناء فيومى وبولا ومنطقة فنيزيا جوليا ، ولم يعد لايطاليا فى البحر الأدرياتى سوى البندقية ثغرها القديم وفيه ستركز إيطاليا الجديدة نشاطها البحرى والتجارى فى البحر الأدرياتى .

وبذلك تكون إيطاليا قد قصت أجنحتها البحرية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ؛ إذ خسرت مستعمراتها فى ليبيا وأرتريه والحبشة ، وضاعت عليها جهود ساستها فى مدى خمسين عاماً أو أكثر ، كما فقدت قواعدها فى جزر الدوديكانيز وفى البحر الأدرياتى . وتقضى معاهدة الصلح أن تهدم تحصيناتها فى جزيرة سردانية وبنتالاريا وغيرها لمعاهدة الصلح ومن الجزر الصغيرة التى كانت فى موقعها من وسط البحر المتوسط تهدد القواعد الانجليزية والفرنسية وتعلن عن قوة إيطاليا فى البحر الذى كانت تدعوه بحرها .

ولكن إذا كانت إيطاليا قد تركت — إلى حين — سياسة البحر المتوسط فان هذا البحر لن يتركها ، وسيظل من أهم العوامل الطبيعية التى تؤثر فى بعثها ونهضتها . وها هى ذى الآن وهى لم تزل فى محنتها تحرص على إحياء صناعة السفن من جديد فتشيدها وتجريها لمنفعة غيرها . وتحاول حكومة الجمهورية الجديدة بكل قواها أن تعيد إيطاليا إلى مكانتها الدولية ، فتتبادل الممثلين السياسيين مع سائر الدول وتطلب الاشتراك فى هيئة الأمم المتحدة ،وتريد أكثر من ذلك أن تنهض من كبوتها فتستأنف العمل على بسط نفوذها التجارى والدينى والثقافى فى منطقة البحر المتوسط دون أن يكون لها فى الوقت الحاضر من النفوذ السياسى أو الحربى مايؤدى بها إلى الهاوية مرة ثانية . وإنها لتفضل وهى فى حالتها الحاضرة أن تنسى ماضيها القريب وتكسب صداقة

الدول الديمقراطية من جهة ورضاء حكومة السوفيت وصاحباتها من جهة أخرى ، وبذلك تطمع أن تكون أداة الوصل بين الشرق والغرب . وإن لدى إيطاليا من قوة رجالها واطراد زيادة عدد سكانها مع ماعرفوا به من الوطنية والكد وقوة الاحتمال والبناء لصفات لو أضيفت إلى تالد مجدهم وموقع بلادهم الجغرافى فى وسط البحر المتوسط لكفلت لهم جميع المزايا التى تؤهلهم قبل مضى وقت طويل إلى اجتياز طور النقاهة سريعاً ، ثم الانخراط فى سلك الدول العظمى .

محمد رفعت

صور وصفية لشخصيات لامعة

عبد العزيز فهمى

كان شأنى مع عبد العزيز فهمى هو شأن كل امرئ مع الكبراء الذين يملأون الدنيا ويشغلون الناس، هؤلاء الذين تتناثر أنباء بطولتهم على الأسماع ، وتتعطر بأحاديثهم الأندية والمجالس ، وتتجلى صورهم فى الصحف مختلفة الأوضاع . فان تاح لك أن تراهم لمحتهم عبراً فى سيارة ، أو خطفاً فى مجتمع . وإن صورتهم التى تتمثل فى الأذهان لصورة أقرب إلى صور الأطياف ذوات الهالات من نسج الخيال . . .

ظلت علاقتى بعبد العزيز فهمى لا تتجاوز هذا المدى . . .

أعلم أنه أحد ثلاثة ، كانوا هم طليعة الوثبة الوطنية للمطالبة بحق الأمة المغتصب . . .

وتتناهى إلىّ تلك الأحاديث النادرة التى تصف مواقفه الرائعة الجبارة فى السياسة والتشريع والقضاء . . .

وأول مرة اجتليت فيها صورة الرجل عن كثب ، كانت بدار المجمع اللغوى ، فى زيارة لتلك الدار . . .

لمحته على أريكة يجلس جلسة تتوضح فيها الوداعة البالغة ، متراخى الأوصال ، قليلا على الأريكة شخصه الضئيل . . .

فاسترعى انتباهى منه طول إطراقه ، وقد أزاح طربوشه إلى الوراء ، كأنما يفسح لأفكاره مجال الانطلاق !

فناجيت نفسى :

أهذا صاحب مشروع الحروف اللاتينية لكتابة العربية ، ذلك المشروع الذى انبعث من المجمع قذيفة اهتاج لها رجال الفكر فى أرجاء الأمة العربية ، وكانت مثار يقظة ونشطة وانبعاث ؟ . . . .

ووقعت فى يدى نسخة من ذلك الكتاب الذى ترجمه عبد العزيز فهمى

منذ عهد قليل ، ذلك هو « مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى » . . . مجلد ضخم زاخر بخلاصة التشريع فى ذلك الزمن البعيد ، هو آية إعجاز فى دقة التعبير، وإحكام الأداء ، تتجلى فى ديباجة عربية بليغة عليها رونق ورواء . . .

ونمى إلىَّ أنه احتبس فى داره ثلاثة أشهر ، يزاحم ليله بنهاره فى الترجمة والمراجعة والتنقيح ، حتى فرغ مما أراد فى الشهر الذى أكمل به عامه الخامس والسبعين ، فكأنه يتوج تلك السن المباركة بذلك الجهد العلمى الرفيع !

كنت أقلب من صفحات ذلك الكتاب ، فترف حوالىَّ صورة ذلك الرجل الذى لحته منكمشاً على الأريكة فى دار المجمع ، غارقاً فى تأملاته ، أشبه ما يكون بفيلسوف هندى من أولئك الذين أخذوا أنفسهم برياضات صوفية لا يطيقها إلا الأقلون الأندرون . . .

وذكرت بيت القائل :

وما المرء إلا الأصغران لسانه ومعقوله والجسم وهم مصور

شاء القدر بعد ذلك بفترة أن أمضى فى الريف بعض يوم ، فجزت فى طريقى بكفر المصيلحة ، بلد عبد العزيز فهمى . . . فألفيتنى أقف برهة متطلعاً إلى تلك البلدة ، محدقاً فى بيت عبد العزيز فهمى الشامخ ، ذلك البيت العتيق الذى هو بقية من دور الأسر العريقة فى الريف ، تلك الدور التى كانت مثابة الآباء والأبناء والحفدة ، كل دار منها كأنما هى وطن يحوى أمة !

ولبثت أتسمع أحاديث الناس ، فاذا هى ألسنة تمجد مآثر الرجل ، وتشيد بما له من فضل على تلك القرية السعيدة وأهليها المتصافين . . .

هذا يخبر باهتمام الرجل بالزراع من أهل منطقته ، يأخذ بناصرهم ، ويوجههم وجهة التثمير والتعمير . . .

وذلك يفيض فيما كان للرجل من أياد كريمة لتمدين البلدة وتجديدها بتعبيد طرقها وتوشيتها بالمنازه والمؤسسات ، حتى لقد أضحت « هليوبوليس » الريف ، وأصبح هو « بارون أمبان كفر المصيلحة ! »

وثالث آخر يذكر كفاح الرجل فى سبيل نشر التعليم بين أبناء بلده ، فإن الأمية هناك لتتوارى فراراً أمام تلك المعاهد التى نفخ فيها الرجل من روحه ، فانبرت ترسل النور . . .

فى هذه القرية المنزوية بين حواضر الأقاليم ، مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ، فلا بدع أن يقص علينا متحدث رابع أطروفة فكهة ، تلك هى أن الفلاحات يخرجن فى الأصائل إلى النيل ، حاملات جرارهن يستقين ، فإذا ما صدرن عن الماء آيبات إلى الدور ، وقفن فى منعطف الطريق ينتظرن . . . ينتظرن بائع الصحف ، حتى إذا أهلّ عليهن برزمته ، تخاطفن منه الصحف فى حمية وشغف ، واستأنفن سيرهن يتخطرن ، وقد أملن على رءوسهن الجرار ، ومضين يروين ظمأهن من أنباء السياسة وشئون البلاد !

أذكت هذه الأحاديث شوقى إلى أن أجلس إلى عبد العزيز فهمى جلسة تحية وتعارف . فلما قفلت إلى القاهرة لم يهدأ لى بال حتى رغبت إلى صديق فى أن يضرب لى معه موعد لقاء .

وفى منتصف الثامنة من أمسية يوم ، كنت أنا وصديقى أمام دار الزعيم ، تلك الدار الصغيرة التى ترفعت عن أن تنافس فى ترف القصور . . .

وما هى إلا لحظة حتى احتوانا بهو الضيافة ، ولبثت واقفاً أجيل الطرف حولى ، وقد شملتنى رهبة ومهابة ، على الرغم من سذاجة ما يحيط بى من مظاهر . طابع شرقى محافظ ، مشبع بجو عائلى تشيع فيه الطمأنينة والهدوء . . .

فرحت أهجس :

هنا فى هذا البهو تلاقت شخصيات عظيمة ، واختمرت أفكار حاسمة . . . وإن حيطانه الصوامت لتختزن أصداء ذلك اللفيف من الرعيل الأول الذى كانت خطاه رسما لأقدار مصر الحديثة فى نهوضها السياسى والاجتماعى والعلمى .

هذا البهو كعبة تكسوها غلائل من الجلالة والتقديس ، وإنى لأكاد أجثو من روعة التذكار لما دار فى تلك المثابة من قول لم يذهب مع الريح !

لم تكد تمضى بضع لحظات ، حتى ارتقينا الدرج إلى عش الزعيم ، فأقبلنا عليه فى حجيرة خشبية تصفها الأعلى نوافذ تنسدل عليها الأستار ، وكان الزعيم جالساً فى ركن خلفه مصباح ساطع النور ، وبين يديه منضدة بسطت عليها صحف فوقها كتاب مفتوح . . .

ورأيناه فى لبسة المتفضل : منامة صيفية ، وقلنسوة بيضاء تترامى على مؤخر رأسه . . . وكان لقاؤه لقاء السمح الأريحى فى حفاوة شرقية أصيلة تنشرح لها الصدور . . .

جلست إليه دقائق ، مستغرقاً فى صمتى ، شاخصاً ببصرى ، لا أريم وجه ذلك الرجل الذى تتضوأ شيخوخته أنيسة محببة ، وأنا أصغى إلى كلمات الترحيب تتدفق من بين شفتيه فى عذوبة وصفاء . . .

وراعنى أول وهلة أنه مجهود الصوت ، مبهور الأنفاس . حتى إنه ليقطع ترحيبه بفترات استجماع واستجمام ، فخشيت أن أكون قد لقيته فى وقت غير ملائم ، وجعلت أخالس صديقى النظر أسائله ، فطمأننى بأن زعيمنا قد ألف هذه المجاهدة ، فليس عليه من ضير . . .

وأسرعت إلينا أقداح القهوة ، وكشفت علبة اللفائف ، وما هى إلا أن تفجرت ينابيع الموضوعات يطغى بعضها على بعض ، وجرى الحديث طلقاً زاخراً لا لغو فيه ولا فضول . فلبثت أستمسك بالاصغاء ، مؤثراً ذلك السكوت الذهبى الذى يتيح لى أن أودع سمعى غوالى الحديث . . .

حديث عبد العزيز فهمى صورة واضحة من شخصيته : خلابة فى المنطق ، ونصاعة فى العرض ، وصدق فى اللهجة . . .

إن الكلمات لتندفع على شفتيه مشبوبة الحيوية تتوهج ، وإنك إذ تستمع إليه لتستشعر خفوق قلبه وفورة دمه ، فيتجلى لك مظهر رائع من حرارة الايمان ، ونقاء الطوية ، وصراحة الرأى . . .

حسبك أن تجلس إلى الرجل جلسة واحدة تسمع ما يفيض فيه من الحديث، لكى يستبين لك جماع الخصائص النادرة التى عرف بها فى حياته العامرة . . .

للرجل افتنان فى الحديث يتيح له أن يجوز بك آفاقاً رحاباً فى عالم الفكر ، وله عون أى عون من ذاكرة أمينة بالغة الأمانة ، وذكاء عبقرى لا ترده حدود ، ونزعة إلى الاطلاع تعب ولا تروى !

وإنه ليحاورك ، ويطارحك القول ، دون أن يفرض عليك وجهة نظر ، ولكنه يتجمع لبسط رأيه ، والإقناع به ، قوى العارضة ، طيع البديهة ، مسكت الجواب !

كان الباشا يستريح بين الفينة والفينة ، وهو يدور بعينيه حوله ، كأنما يتلمس من الهواء عوناً على تجديد الأنفاس . . . ثم إذا هو يستأنف الحديث أندى صوتاً ، وأقدر على مواصلة الكلام . . .

ودخلت علينا الحجرة سيدة ما إن لمحت سمتها حتى عرفت أنها قهرمانة

البيت ، تفصح ملامحها عن إغريقية واضحة . . . دخلت تحمل حفيد الزعيم ، يزود جده بتحية المساء ، فما إن رأى الطفل جده حتى تعلق بعنقه ، وأقبل عليه الجد يبادله التحية والعناق . . . وكانت التحيتان كلتاهما تتشابهان وتنسجان فى الوداعة والسذاجة واللطف ، فلا غرو أن يلتبس الأمر على الناظر لايدرى أيتهما تحية الجد وأيتهما تحية الحفيد !

وانصرفت القهرمانة بالطفل ، وما هى إلا أن رجعت تحمل قدحاً فى قرارته جرعات الدواء ، فارتشفها الزعيم فى طوع واستسلام . . .

وكنا بين حين وحين نسمع الباشا ينادى تلك السيدة ، راغباً إليها فى إحضار كتاب ، أو علبة لفائف ، أو كوب ماء ، أو غير ذلك من الأشياء ، فتلبى السيدة النداء رزينة السمت ، موفورة النشاط ، تزاول عملها فى جد وإقبال ، تغدو وتروح فى خفة بنت العشرين ، وإن كانت بادنة تقدمت بها السنون !

إذا دخلت الحجرة دبت بخطا متزنة ، عليها طابع السيادة والتأمر ، فيظهر لنا أول وهلة أنها قد وكل إليها أن تتعهد شأن الزعيم ، وتسهر على راحته ، لا ينازعها فى مهمتها منازع . . .

وقد نرى الباشا منبرياً يتحدث عن قصص القرآن ، وما له فى شأنه من رأى ، فاذا برغبة تهجس فى نفسه ، فلا يكاد يرفع الصوت منادياً تلك القهرمانة ، حتى نبصر بها أمامنا كأنما انشقت الأرض عنها . . . إنها لتحس رغباته قبل أن تسمع نداءه ، فتخف إليه بما يطلب فى أسرع من رجع الطرف وخطف البرق !

حان وقت العشاء ، فجئ لكل منا نحن الثلاثة بصينية مستقلة ، زودت بمعدات الأكل وصحاف الطعام ، فأذكرتنى هذه الطريقة أسلوب الاطعام الأمريكى فى الطائرات والمطاعم المسماة فى أمريكا « كافيتريا » . . .

وهالنى ما حفلت به صينيتى وصينية صديقى من أطعمة شهية مختلفة الألوان ، فرفعت عينى إلى صينية الباشا فاذا أوضح مافيها قارورة ملئت حساء مجمداً يؤخذ منه القدر المطلوب ليذاب فى قليل من الماء السخين . . . وبجانب القارورة صحفة عليها شرائح رقيقة من شواء ، وخلفهما صحفة فيها قطع من الطماطم ، وغير بعيد صحفة ثالثة فيها شقة ضئيلة من فاكهة الشمام . . .

والتفت إلى الصديق أسائله فيما أرى ، فأخبرنى بأنه لا يعرف أن الباشا زاد فى طعامه على هذا النحو ، منذ وصلت بينهما أسباب اللقاء . . .

وكانت القهرمانة تشرف على الخدم ، تومئ إليهم فيأتمرون ، وتشير فينتهون . . . وما لبثت أن تولتنا بالرعاية والتعهد ، تلح علينا فى أن نأكل من هذه الصحفة أو من تلك ، وكأنها بذلك تسلكنا فى عداد أطفالها المدللين . . . لزام أن نملأ البطون ، لنكبر ونترعرع ، ونكسب رضاها الثمين ! . . .

ويا طالما وقفت تجاه الباشا تأبى عليه أن يتكلم ، وتحثه على أن يستوفى حظه من الطعام غير منقوص . فلا يملك زعيمنا العظيم إلا أن يرفع إليها بصره فى صمت هادئ ، وعلى محياه طابع الحمل الوديع !

وفرغنا من الطعام ، وحملت الصوانى ، فعادت منضدة الباشا إلى وضعها الأول : كومات من الصحف والأوراق يعلوها كتاب . . . ولاحظت أن الباشا يعنى بهذه الكومات ، وكثيراً مامد إليها يده ، يخشى أن يند منها شئ . . . فنظرت إلى الصديق ، فإذا الباشا يفطن إلى مادار فى خاطرى من سؤال ، فأخذ يحدثنى عن هذه المنضدة ، يزهدنى فيما حوت أكبر تزهيد ، ويهوّن من شأنها أكبر تهوين !

ولكنه فى ثنايا حديثه ، أشار إلى أنه ينهى أن يمس أحد منها ورقة أو يكشف عن مكنون مهما يكن من أمر ، وأنه يبسط عليها الصحف واحدة تلو الأخرى . . . فأدركت أن الباشا يتخذ الصحف دريئة تستخفى تحتها ذخائر وكنوز ، كما يتخذ الجندى أغصان الأشجار وألوان الرمال فى مناطق القتال ، تعمية لما يرغب فى ستره عن العيون !

سطح هذه المنضدة طبقات ، فى كل طبقة رسائل وأوراق وأسانيد ، تتشابك بها ضروب من وقائع تاريخية ، وذكريات عزيزة ، وتعليقات فى علم وأدب وسياسة وتشريع .وكأن كل طبقة من هذه الطبقات حقبة من التاريخ وكرة من الزمن عامرة بالكوائن والأحداث . . .

ذلك هو سر المنضدة ، نكشف عنه الستار ، وأمرنا إلى الله فيما يكون من عتاب وحساب !

عاد الباشا إلى حديثه الطلى ، حتى مر هزيع من الليل لم نكد نصدق

أنه سر . ولولا أنى آثرت راحة زعيمنا العظيم ، لما صدرت عن ذلك المجلس الذى أصبت فيه رفيعاً من إمتاع السمع والعقل والروح !

وقفت خاشعاً أمام مضيفنا الكريم ، آخذ بيده أحييه . . . أحيى قوة شعت أضواؤها ، فكان منها دستور ، وكان منها تشريع ، وكان منها توجيه وطنى آتى مصر أبرك الثمرات . . .

فى تلك اللحظة انتظمتنى تلك النشوة العلوية التى يستشعرها المرء فى مواقف الاكبار والتمجيد . . . وخرجت راضياً عن نفسى كل الرضا بما كسبتنيه هذه الزورة من التسامى فترة فى أفق مثالى خالص من شوائب الأغراض التافهة وشواغل الحياة الرخيصة مما يزحم دنيا الناس !

غادرت تلك الدار ، وقد طوفت برأسى خواطر : ذلكم زعيمنا العظيم يركن إلى هذه الدار المتواضعة المستأجرة ، قانعاً فيها بتلك الحجيرة الزجاجية ذات الأستار ، يقضى شيخوخته النبيلة فى حشد من ذكرياته العطرة بالمآثر والأمجاد . . .

لم تمتد عين عبد العزيز فهمى إلى أن تكون له قصور يتجلى فيها البذخ والترف ، بل لقد عف قادراً عن ذلك الضرب من كسب الحياة ، وآثر لكرامته ولضميره أن يظل كلاهما بنجوة عن متاع خداع مصيره للزوال . . .

أعجب مايروعك من خصائص عبد العزيز فهمى ظمؤه الدائب إلى العمل ؛ فانه ليقضى أطول يومه فى تلك الحجيرة الحبيبة إليه ، عاكفاً على المطالعة والمراجعة ، كأنه موكل بالهوامش البيض فى الكتب ينمنمها بما يجرى به قلمه من ملاحظة وتعليق . وإن العمل ليمتد به حتى يطغى على ليله ، وربما أسلمه إلى مطالع الأسحار ، وما برحت أقداح القهوة توافيه ، وعلب اللفائف تغدو ملأى وتروح خالية ، والخدم يتناوبون خدمة ذلك المتهجد اليقظان !

حياة عبد العزيز فهمى سلسلة من المغامرات فى سبيل العمل ؛ فهو لا يحل مثابة ولا يشترك فى شئ إلا كان العمل رائده فيه ، فاذا هو يثير حوله فورة النشاط والدءوب . هيهات أن يكون سلبيا فى موقفه ، مكتفياً بملء كرسيه ، فهو على يقين أنه صاحب رسالة لا يستأنى فى أدائها حيثما حل ، مقتحما فى سبيلها أشتات العوائق والأشراك . . .

يجلس عضواً فى لجنة الدستور ، فيكون أبا الدستور . . .

ويهبط الريف ، فيثير فيه ثائرة تعمير وتمدين وإصلاح . . .

ويتسنم ذروة القضاء ، فيقيم بأحكامه صرحاً من القواعد الجديدة يتمثل فيه استقلال الرأى وعبقرية الذهن ، ويصبح شغلا شاغلا لمعاهد الفقه والتشريع . . .

ويدعى إلى المجمع اللغوى فاذا هو السباق إلى ارتياد آفاق جديدة تحدوه إليها حرارة العقيدة وألمعية التفكير . . .

عبد العزيز فهمى فى شيخوخته العالية فتىّ العقل ، طلاع دائماً إلى التجديد ، وهو إلى ذلك قوى الشكيمة ، غلاب الحجة ، لا يتهيب مواقف الاقتحام !

لا خلاف على أن عبد العزيز فهمى زعيم ، فإن زعامته ملء القلوب ، والأسماع والأبصار ، ولكن الحق أنه زعيم من طراز خاص . . .

وكان محالا أن يكون الرجل زعيما من ذلك الطراز المعروف الذى تتولى فيه الزعامة قيادة الجماهير ، وتلف حولها أشتات الطبقات ، وتحرص على اجتذاب الناس بشتى الذرائع والأسباب ، وتؤثر فيهم بألوان المغريات ، حتى تأخذ بنواصيهم إلى ما تهدف إليه من أغراض وغايات . . .

ليس عبد العزيز فهمى ذلك الزعيم الشعبى ؛ فان الزعماء الشعبيين يفتقرون إلى مزاج خاص تتجلى فيه وفرة المرونة ، وسعة الحيلة ، وممالأة الأحداث ، وتحسس الأهواء ، والتردد بين اللين والعنف طوعاً لطوارئ الجزر والمد . . وإن ذلك كله ليتطلب من الزعيم ألا يكون متطرفاً فى مثاليته، صلباً فى عقيدته ، متفرداً برأيه ، متحنثاً فيما يتخذ من وسائل لبلوغ الأهداف . . .

وعبد العزيز فهمى مزاج رفيع من التطرف والصلابة والتفرد والتحنث ، تلك الخصائص التى تجعله زعيما من ذلك الطراز الخاص الذى يورى الزناد ، وينفخ فى الروح ، ويبعث اليقظة ، ويختط الطريق ، ثم يدع لغيره من الزعماء أن يخوضوا وسائل التنفيذ ، ويمارسوا فى ذلك ضروب التجاريب !

هو صاحب « فكرة » يطرحها على أعين الناس ، وليس عليه بعد ذلك أن ينافس فى تحقيقها ، وأن يحتمل مايقتضيه ذلك التحقيق من أعباء دنيوية لا يصبر عليها أصحاب المزاج المثالى المتحنثون !

لعبد العزيز فهمى فى أذهان عارفيه صورة تملأ الأفئدة رهبة وخشية ، بما علموه من حدة نفسه ، وعنف مواقفه ؛ ولكن هذا الرجل الجبار فى المواطن التى يشايع فيها حقا أو يدفع ظلامة ، ينطوى على إنسانية تتوهج فيها رقة العاطفة ورهافة الشعور . . .

ولعل أوضح ظاهرة تتمثل فيها إنسانيته العاطفية أنه فى بيته لا يأبه له اثنان : الطفل ، والقط .

فحفيده إذا دخل عليه أخذ يعابثه فى جسارة واجتراء ، وراح يختطف ما يحلو له مما بين يديه ، وهو على ثقة أن جده الشفيق لن تبلغ به الثورة إن ثار حدا يخاف !

وأما القط فإنه يقارب مجلس الزعيم ، فاذا زجره لم يكترث ولم يتحلحل ، وربما سمع القط نأمة بعيدة من أحد من أهل الدار ، فلا يلبث أن يلوذ بالفرار . . . وما أقر القط فى مكانه من مجلس الزعيم إلا إحساسه بأنه فى رحاب طمأنينة وأمن ، وأن الزعيم وإن زجره بلسانه ، فلن يصيبه منه أذى ! . . .

لأستاذنا الأكبر تحية اعتذار ، ومودة إكبار . . .

محمود تيمور

رابطة الجنس والثقافة فى وادى النيل

فى مقالنا السابق[1] عالجنا رابطة الماء فى وادى النيل ، ورأينا كيف أن أسباب الحياة تمتد بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وكيف أن سكان الوادى جميعاً يرتبطون بهذا النهر العظيم الذى اعتمد عليه أجدادهم واستمدوا منه الحياة منذ استقروا على ضفافه وفى جنبات واديه . ولكن هذه الدراسة التى تتصل بموارد الحياة ومقوماتها الطبيعية لا تكتمل ولا تنتهى بنا إلى صورة جلية شاملة إلا إذا عرضنا للجانب البشرى الخالص من حياة الناس ، ذلك الذى يتصل بأصل السكان وسلالاتهم من جهة ، وبثقافتهم وتراثهم الروحى والفكرى والانسانى العام من جهة أخرى . وإذا كنا فى المقال السابق قد حاولنا أن نرد الوحدة إلى بعض أصولها الطبيعية ، وأن نربطها بمقتضياتها العملية والمادية ، فان علينا فى هذا المقال أن نستعرض وجهاً آخر من تلك الوحدة ، تبرز فيه صلات الدم والأنساب بين من يقطنون الشمال ومن يقطنون الجنوب ، ويتجلى فيه ذلك الرباط الانسانى الذى يميز حياة البشر ويخلد روحها على مر العصور . وواضح أن هذا الجانب البشرى والانسانى من الوحدة فى وادى النيل لا يقل فى شأنه وروعته عن الجانب الطبيعى والمادى الذى جلوناه من قبل ؛ بل واضح أن الجانبين متكاملان ، أو هما فى واقع الأمر وجهان لصورة واحدة من هذه الوحدة الرائعة التى أرادها الله فسخر فى إخراجها موارد الطبيعة من جهة ، وزكاها بدم الانسان وروحه من جهة أخرى .

وقبل أن نعرض لمسألة الجنس والسلالة ينبغى أن نشير إلى بعض الأسس والقواعد العامة التى تقوم عليها دراسة السلالات أو الأنثروبولوجيا بناحيتيها الطبيعية والاجتماعية . وأول هذه الأسس أننا فى دراسة « الشعوب » لانستطيع

(١) الكاتب المصرى عدد ٢١ (يونيه ١٩٤٧) .

أن نفصل فصلا تاما بين دراسة التكوين الجنسى الذى يرتبط بالمميزات الجسمية ، وتعرف أبحاثه بالأنثروبولوجيا الطبيعية ؛ وبين دراسة التكوين الاجتماعى وما يتصل به من ثقافة للروح أو النفس أو الفكر ، ومن نظام للحياة والاجتماع ، ومن تقاليد تتناقلها الجماعات وتتوارثها الأجيال ، وكل ذلك يعرف بالأنثروبولوجيا الاجتماعية . ولذلك فنحن إذ ندرس شعب النيل ينبغى أن نجمع بين أطراف شتى من تكوين الجسم ، وتكوين الروح والثقافة ، وتنظيم المجتمع والحياة بما يحكمهما من تقاليد وما يستندان إليه من تراث... وذلك كله حتى نخرج بصورة هى أدنى إلى الكمال وأقرب إلى الشمول مما لو درسنا ناحية واحدة .

وثانى هذه الأسس والقواعد أننا فى دراسة « السلالات » نعتمد على صفات جسمانية محددة ، ومقاييس أو ملاحظات يتصل بعضها بشكل الرأس أو لون البشرة أو شكل الشعر أو ملامح الوجه أو طول القامة أو غير ذلك من الصفات والمميزات التى تقاس أو تلاحظ . ولكن علماء الأجناس قد مالوا فى السنوات الأخيرة إلى الشك فى قيمة تحديد « الجنس » تحديداً دقيقاً ، ومالوا إلى تقسيم البشر إلى «سلالات» تجتمع فى كل منها صفات جسمية كثيرة متداخلة ومشتركة بقدر ظاهر أو غير ظاهر بين أكثر من سلالة واحدة . وهذه السلالات لا توجد نقية خالصة مهما بدا غير ذلك لمن لا يتعمقون الأمور . بل إن علماء الأجناس الآن ينظرون إلى اختلاط الصفات وتنوع المميزات الجسمية فى مجموعة من البشر، فيرون فى ذلك علامة من علامات القوة والصلاحية للبقاء والتطور ؛ وكلما جمعت سلالة بين عدد من تلك الصفات كان ذلك دليلا على تنوع الملكات والمؤهلات بين أفرادها ؛ وذاك عامل هام فى حياة الجماعات . بل كلما جمع « شعب » بين أكثر من سلالة واحدة تمتزج فيه وتأتلف منها أمته كان ذلك مصدراً من مصادر القوة والحيوية ، على شرط أن توحد المصالح المادية والحياة الثقافية والبشرية العامة بين تلك السلالات ليتكون منها « شعب » واحد ولتأتلف منها « أمة » واحدة . والأمثلة على ذلك كثيرة فى عصرنا الحديث . فالولايات المتحدة الأمريكية تأتلف من سلالات كثيرة ، بعضها متداخل متزاوج ، وبعضها منعزل محدود الاختلاط بغيره . والاتحاد السوفيتى يأتلف من سلالات كثيرة ، بعضها

صقلبى ، وبعضها الآخر فى الشرق والجنوب وأقصى الشمال من سلالات غير صقلبية ، ولكنها مع ذلك مرتبط بعضها مع بعض برباط المصلحة المشتركة ، والثورة الاجتماعية الواحدة . وهاتان فى أمريكا وأوراسيا تجربتان هائلتان من تأليف أمة واحدة متماسكة من سلالات بشرية متباينة ، ولكن لكل منها مؤهلاته وملكاته التى تغذى ينبوع القوة فى الأمة الواحدة . بل هناك أمثلة أخرى من أمم أعرق فى التاريخ الحديث ؛ ومنها بريطانيا التى يقال إن شعبها قد امتزجت فيه دماء سلالات ثمان أو نحو ذلك ؛ وفرنسا التى تتمثل فيها ثلاث سلالات أصلية وعدد من السلالات الفرعية ، والتى تجتمع فيها صفات أهل شمال أوربا من جهة وصفات أهل الوسط والجنوب من جهة أخرى ؛ ولعل ذلك أن يكون سر القوة والحيوية فى أمتى غرب أوربا العتيدتين ، وفيما كتب لأبنائهما من تبريز متنوع المظاهر فى حياة أوربا والعالم كله فى التاريخ الحديث ، تبريزاً ظهرت آثاره فى نواحى المدنية المادية من جهة ، والحياة العقلية والفكرية وفى النظم الاجتماعية والسياسية من جهة أخرى . بل إن ألمانيا ذاتها تأتلف من خليط من سلالات الشمال وسلالات منطقة الجبال الألبية ؛ وعندما حاول قادتها فى العهد الأخير أن يطهروها مما أسموه خطأ « بشوائب الجنس » كان فى ذلك ما أضعف الأمة فى تكوينها الجنسى وأصاب حياتها العملية والفكرية فى الصميم ، ومهد السبيل آخر الأمر لنكبة هائلة ترتبت على أن قيادة الأمة حاولت أن تسير بها ضد طبيعة الأشياء .

وإذا نحن رجعنا إلى التاريخ القديم رأينا أمماً كثيرة أنتجت وأضافت إلى تراث الانسانية لأنها جمعت من العروق والأنساب فى دماء أبنائها ماجعلها أقدر على الحياة المتطورة والعمل المثمر المتنوع الانتاج من غيرها من الأمم والشعوب . ومن تلك الأمم القديمة أمة وادى النيل ، وهى التى سندرسها الآن بشئ من التفصيل ؛ ثم أمة اليونان حيث اختلطت دماء أهل البحر المتوسط بدماء غزاتهم الذين أتوا من الشمال ، فمهد الاختلاط لظهور المدنية اليونانية المعروفة ؛ بل منها الأمة العربية ذاتها حيث يشتد اختلاط السلالات فى العراق والشام وجنوب غرب الجزيرة ، وقد كانت كلها من مواطن نشأة المدنية العريقة فى الجزيرة العربية . . . وغير ذلك أمثلة كثيرة يغنى عن ذكرها ما أشرنا إليه .

ولأمة وادى النيل فى واديها وما جاوره من أراضٍ ملحقة به مواطن عدة استقر بها السكان فى أعصر متلاحقة ؛ منها الشطر الشمالى من الأرض الزراعية فى مصر شمال أسوان ، ومنها تلك الأراضى الزراعية المتقطعة فى السودان بمنطقة دنقلا وبعض أراضى النيل الأزرق ، ومنها أعالى النيل فى حوض الجبل والغزال ، ثم منها أرض الرعاة والرحل فى مناطق الأعشاب بالصحارى المصرية أو بسهول السودان . وقد اتصل السكان بعضهم ببعض فى هذه المواطن المختلفة منذ أقدم العصور ؛ بل منذ بدأت الحياة المتمدنة وعرف الانسان الزراعة والرعى وما إليهما من حرف ارتفع معها الانسان من الحياة البدائية إلى الحياة المتحضرة . ويبدو أن هذه المنطقة جميعها فى شمال شرق القارة الافريقية كانت فى أول الأمر موطناً هاما من مواطن الحاميين ، وهم فريق من السلالة الكبرى التى تعرف أحياناً بالسلالة القوقازية ، والتى تعتبر سلالة البحر الأبيض المتوسط أبرز أفرعها فى المناطق المعتدلة . ويرجع استقرار هؤلاء الحاميين — أو الحاميين الشرقيين تمييزاً لهم عن البربر ومن إليهم من الحاميين الغربيين فى شمال غرب إفريقية — إلى نهاية العصر الحجرى القديم ، أو فى القليل إلى العصر الحجرى الحديث . ومن المسلم به الآن أن المصريين الأقدمين إنما اشتقوا من هذه السلالة الحامية ؛ تشهد بذلك هياكلهم القديمة ، كما تشهد لغتهم وثقافتهم . ومن الطريف أنه قد كشفت هياكل لجماعة كانت تعيش فى مصر العليا ، وتعرف حضارتها باسم حضارة البدارى — نسبة إلى بندر البدارى المعروف ، شرق النيل فى مديرية أسيوط — ويرجع تاريخ تلك الجماعة إلى الألف الخامسة قبل الميلاد ، أو مابعد الحجرى الحديث مباشرة . وتبينت من دراسة تلك الهياكل بعض أوجه الشبه فى الجنس والتكوين الجسمى بين هذه الجماعة الأولى وبين بعض العناصر الحامية التى تقطن الآن شرق السودان ، ولا سيما قبائل الهدندوة ؛ بل إن سكان البدارى الأقدمين تظهر فيهم علامات الاختلاط بين الحاميين وبعض العناصر الزنجية القديمة . وإذا صح مايرجحه الباحثون الآن فان المصريين فى ذلك العهد إنما هبط فريق منهم أرض الوادى من الجنوب ، وبقوا على صلة بأسلافهم وأنسابهم فى مناطق السودان الشرقى ، وإن كانت قد أضيفت إليهم فى شمال مصر ووسطها بعض عناصر أخرى هبطت الوادى من الشمال .

ومهما يكن من أمر فقد احتفظ المصريون الأقدمون قبل بداءة العهد التاريخى وخلال العهد الفرعونى بصفاتهم الحامية الغالبة ؛ وبقيت تلك الصفات الجنسية متوارثة فيهم حتى الآن ؛ وإن كانوا قد أضافوا إليها بعض صفاتهم السامية المكتسبة ، كما استبدلوا بثقافتهم ولغتهم القديمة لغة وثقافة أو ثقافات جديدة هى أقرب إلى العالم السامى منها إلى الحامى . . . ثم نشروا بدورهم هذه اللغة والثقافة ، بل كثيراً مما أخذوه عن الساميين من الناحية الجنسية الخالصة فى ربوع السودان الشمالى والأوسط .

وأغلب الظن أن منطقة النيل الأدنى قد تعرضت لأكثر من موجة واحدة من موجات الهجرة الكبرى فى الأعصر الأولى وقبل أن يبزغ فجر التاريخ ؛ فانحدر إليها الحاميون من الجنوب والجنوب الشرقى أول الأمر ، لا سيما فى عصر حضارة البدارى ؛ ثم جاءت موجة كبيرة من الشمال فيما يعرف بالقسم الأوسط من عصر ماقبل الأسرات ، أى خلال الألف الرابعة قبل الميلاد . وترتب على ذلك الضغط الآتى من الشمال أن اندفعت بعض العناصر من سكان مصر العليا إلى بلاد النوبة والسودان الأوسط . ولا يعرف بالضبط مدى ماوصلت إليه تلك العناصر فى انتقالها نحو الجنوب ، ولا الطريق الذى سلكته ؛ وإن كان من المعلوم والثابت الآن أنها وصلت على الأقل إلى ملتقى النيلين عند موقع الخرطوم . ومن المرجح أنها سلكت بعد ذلك طريق النيل الأزرق ، واحتكت هناك ببعض سكان أقصى الجنوب ، وربما وصل تأثيرها إلى شرق إفريقية .

والظاهر أن هذه كانت أولى موجات هامة من الشمال إلى الجنوب ، وأنه قد تلتها موجات متلاحقة فى أعصر التاريخ . ولابد أن تكون هذه الموجات قد حملت بعض العناصر الشمالية إلى الجنوب ، فاختلطت بأهله . ولكن معلوماتنا عن المؤثرات الجنسية القديمة لا تزال ضئيلة للغاية . فهذا جانب من البحث لا يزال مهملا حتى الآن ؛ ولكننا مع ذلك نستطيع أن نتتبع تلك الصلات بين أقاصى الوادى فى شماله وجنوبه إذا ما رجعنا إلى الناحية الاجتماعية والثقافية من الحياة الشعبية فى أقاصى السودان وفوق الهضبة الاستوائية من ناحية الجنوب ، وقارناها بما هو معروف عن حياة المصريين فى عصورهم الأولى قبيل التاريخ وخلال العهد الفرعونى ؛ إذ الظاهر أن كثيراً من

المؤثرات الثقافية والاجتماعية التى نفذت من مصر نحو الجنوب قدّر لها أن تعمر وأن تبقى على الزمن فى أقاصى الجنوب ، حيث لم تكن الجماعات البشرية معرضة لنزعات التجديد والاتصال بالعالم الخارجى كما كانت الحال فى مصر ذاتها ؛ ولذلك فقد كان جنوب الوادى أصلح لأن تعمر فيه النظم الاجتماعية دون أن يصيبها التغيير ، ولأن تمارس فيه التقاليد والعادات القديمة دون أن يجرى عليها الزمن أو أن تجددها الأيام . وشواهد هذه الصلات القديمة بين مصر وأعالى النيل فى أقصى السودان كثيرة ؛ منها مايرجع إلى مايصح أن نسميه بالعهد الحامى الخالص ، قبل التاريخ ، عندما استقر الحاميون الشرقيون الذين أشرنا إليهم فى مناطق متباعدة بين أدانى النيل وأعاليه ؛ ومنها مايرجع إلى العهد الفرعونى ، عندما بدأت السلالات والثقافات الحامية والسامية يخالط بعضها بعضاً فى شمال الوادى ، ثم ينفذ نتاج تلك المخالطة وثمارها رويداً رويداً نحو الجنوب . وقد يفيد أن نذكر بعض شواهد الصلة الثقافية القديمة بين الشمال والجنوب ؛ فهى وإن كانت مما يهتم به علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية والاثنوغرافيا أو علم وصف الشعوب ، فهى ولا شك تهم الباحث العام ؛ لأنها تلقى ضوءاً على مبلغ ما بين أطراف الوادى من صلات عريقة تمس حياة الشعب فى أسسها الأولية ، وتؤثر فيها إلى أبعد كثيراً مما قد يظن من يكتفون بالنظر إلى السطحيات .

ومن أبرز هذه الصلات مانراه متمثلا عند سكان حوض بحر الجبل والغزال، أو مايسمونه بالسودان الجنوبى أو السودان الزنجى ، وهو فى الحقيقة ليس زنجيا خالصاً،وإنما تأثر سكانه كما تأثر سكان الهضبة الاستوائية بالعناصر الحامية الشرقية ، أولئك الذين أثروا من قبل بدمائهم وثقافتهم فى بقية السودان وفى مصر بالذات . وفى حوض الجبل والغزال تعيش قبائل من النوير والرنكا وغيرهم ممن يحيون حياة الفطرة ، ولكن لهم ثقافتهم التى تتصل بثقافة مصر الأولى . وإلى جنوبهم فى أوغندة تعيش قبائل ممن يعرفون بأنصاف الحاميين ، وهم أيضاً قد اتصلت حياتهم فى نشأتها الأولى بحياة أهل الشمال. يتمثل ذلك كله فى بعض العادات المتأصلة ، ومنها نظام « الملك الإله » أو نظام « الرياسة المقدسة » ؛ وقد كان هذا النظام معروفاً فى مصر قبل قيام الأسرات ، فكان الملك أو الرئيس يحكم مدة ، حتى إذا ما أصابه الضعف خشى

أن يؤدى ذلك إلى ضعف الجماعة واضمحلال شأنها وضياع أرزاقها ؛ ذلك أن الملك أو الرئيس فى الجماعة أو القبيلة هو رمز القوة فى المجتمع ، فان كان قوى الجسم موفور العافية كان المجتمع فى خير وازدهار ؛ وإن أصابه الهزال أفل نجم المجتمع ؛ ولا يأتى الخلاص للجميع إلا بأن يضحى بالرئيس نفسه من أجل الجماعة ، ويقضى نحبه على نحو لائق يحتفل به الشعب إذ يقيم خليفته من بعده ، فتجدد الحياة فى الجماعة وينفخ فيها روح جديد . وهذا النظام القديم الذى لا يزال جارياً فى بعض صوره — رغم ما أدخل من قوانين جديدة على يد حكومة السودان — بين بعض القبائل فى السودان الجنوبى ، كالشلوك والرنكا ، وفى بعض أطراف الهضبة الاستوائية ، نشأ فيما يبدو عند القبائل الحامية الأولى وانتقل إلى مصر ، ولكنه عدل بالتدريج فى العهد الفرعونى ، وحل محله نظام آخر يقضى بالاحتفال بتجديد حيوية الرئيس ونشاطه إن أصابه الهزال ، أو طال به الحكم فناء بأعبائه ، وذلك بدلا من التضحية به أو القضاء عليه من أجل الجماعة . وتمثل التعديل فى مصر فى الاحتفال بأعياد التتويج، لا سيما بعد أن يقضى فرعون فى الحكم ثلاثين عاماً أو تزيد ، كما حدث فى حالة رمسيس الثانى وغيره . ومن الطريف أن مصر قد عادت فأنفذت بعض ما جددته وهذبته من عاداتها القديمة نحو الجنوب ، فتلقت الجماعات القديمة فى السودان ، بل فى هضبة شرق إفريقية ذاتها ، بعض مظاهر هذا التجديد فيما يعرف باحتفالات عيد « السد » وعيد « التتويج » ؛ وقد عرفت محرفة أو معدلة عند بعض الجماعات القرية فى السودان ، ولا يزال بعضها معمولا به فى صورة معدلة عند بعض قبائل أعالى النيل وأوغندة .

كذلك انتقلت بعض معالم المدنية المادية من الشمال إلى الجنوب حتى بلغت أعالى النيل ، ومنها بعض طرائق الزراعة وتربية الحيوان ورعى البقر الافريقى ذى القرون الكبيرة ؛ وقد بدأ الرعى فيما يبدو على أيدى الحاميين القدماء ثم انتقل إلى مصر ، ثم عاد فارتد إلى أعالى النيل . ومن الطريف هنا أن نلحظ أن قبائل حوض بحر الجبل لا تزال تهذب قرون ماشيتها على نحو ما كان المصريون القدماء يفعلون أيام الأسرة الخامسة الفرعونية ؛ تشهد بذلك الرسوم القديمة ، إذا ماقارناها بما يجرى عليه العمل بين رعاة أعالى النيل فى الوقت الحاضر .

وكذلك امتدت صلات الثقافة ومؤثرات الشمال فشملت نواحى الفن والثقافة الروحية . فالموسيقى المصرية القديمة ، بل كثير من نواحى الموسيقى الشعبية المصرية فى الوقت الحاضر ، هى ولاشك من أصل إفريقى أو حامى قديم ؛ وقد عادت مؤثرات مصر فارتدت نحو الجنوب ؛ بل إن بعض قبائل أعالى النيل لا تزال تستخدم من الآلات الموسيقية ما يشبه ما كان يستخدم فى مصر الفرعونية . وغير الموسيقى هناك ألوان مختلفة من التشابه ؛ فبعض أمراء أوغندة لا يزالون يتخذون من النسر شعاراً أو طائراً خاصا يعتزون به، وتلك عادة مشتقة فيما يبدو من عادة تقديس الصقر فى مصر القديمة . كذلك انتشرت عبادة الشمس ذاتها من مصر إلى السودان القديم حتى امتدت مع النيل الأزرق إلى حدود الحبشة وأطراف أعالى النيل . بل إن بعض العادات الجنائزية من محاولة التحنيط وغير ذلك قد انتشرت حتى بلغت الهضبة الاستوائية وأطراف حوض الكونغو .

تلك كلها وكثير غيرها شواهد قديمة قد يرى القارئ فيها إطالة وتفصيلا يباعد بيننا وبين الوقت الحاضر . ولكن النيل فى مدنيته نهر عجيب ، قد جمع بين الماضى والحاضر فى مختلف أطرافه ، بل جمع بين أعصر ما قبل التاريخ وبين هذا العصر الذى نعيش فيه . ونحن كما ذكرنا فى مقال سابق[1] أمة تعيش فى الماضى وتحيا بتراثه بقدر ماتعيش فى الحاضر وتمتد بآماله إلى المستقبل ؛ وفى مجتمعنا المصرى بالذات كثير من العادات والتقاليد والنظم والأوضاع التى بدأت واستقرت بها الحال قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، ولكنها كانت صالحة للبقاء ، متسقة ومقتضيات البيئة ، فبقيت على الزمن ، وعمرت فى التاريخ ؛ ولعله أن يكون فى ذلك مايقربنا من أولئك الذين كان من نصيبهم أن يحيوا حياة الفطرة فى أعالى النيل وجنوب السودان ؛ بل لعله أن يكون فى ذلك مايجعلنا أقرب الناس إلى أولئك الذين يحاول المستعمرون ودعاة المدنية الغربية الحديثة أن يباعدوا بينهم وبين العالم ، وأن يقطعوا عليهم سبيل الاتصال مع بقية أبناء الوادى فى شمال السودان وفى مصر. وقد

---

(١) للكاتب مقال موضوعه «المصريون والمحافظة على القديم» . أنظر الكاتب المصرى عدد ١٦ (يناير ١٩٤٧) .

ينفعنا فيما نحن بسبيله من إبراز وحدة وادى النيل ووحدة شعبه وثقافته أن نجلو معالم هذا التاريخ البعيد ، وأن نرد وحدة الجنس والروح إلى أسسها الأولى مهما بعدت وامتدت إلى عصر ماقبل التاريخ ؛ فتلك سبيلنا العلمية إلى أن نتفهم الأمور فى وضعها الصحيح ، بل تلك سبيل العلم إلى أن يتفهم العالم والناس قدر مابين مصر وجنوب السودان من صلات الأنساب وصلات الأرواح إلى جانب صلات المنافع وصلات الحياة . . . فاذا ماتبين كل هذا كان من الأولى أن يرعى أمور أولئك المساكين من أهل الجنوب الأقصى ذوو قرباهم من أهل السودان الأوسط والشمالى وأهل مصر ؛ فنحن فى تكويننا الشعبى ، ونحن بتراثنا الروحى والثقافى ، أقرب الناس إليهم ، وأولى الناس برعايتهم ؛ ونحن بحياتنا ونظمنا وثقافتنا ذات الجوانب القديمة الخالدة والجوانب الجديدة المتطورة نستطيع أن نحمل إلى الجنوب من ألوان الفكر والثقافة والنظم الاجتماعية ما يكون أدنى إلى أهله ، وأيسر تناولا مما يحاول أن يشيعه بينهم ، بل يفرضه عليهم ، جماعة المبشرين من البيض والمستعمرين ! بل نحن ولا شك بالنسبة لأهل الجنوب الأقصى بشر من الناس ؛ على حين قد تنظر بعض قبائلهم إلى البيض والمستعمرين على أنهم من أنصاف الآلهة أو أنصاف الشياطين !

كل هذا عن جنوب السودان . فأما عن وسطه وشماله ، واتصالها بمصر فى الجنس والثقافة فذلك أمره أوضح كثيراً من صلات الجنوب الأقصى بما إلى شماله . ذلك أن الحاميين القدماء لا يزالون يقطنون بادية السودان الشرقى وبعض بادية مصر الشرقية ، ويشهدون بما بين شقى الوادى وجنباته من صلة عريقة فى الدم والأنساب . ثم إن المؤثرات المصرية فى الجنس والثقافة كانت على الدوام قوية ظاهرة ، بل مستمرة دائمة ، فى شمال السودان ووسطه . وقد هاجر بعض المصريين فى أواخر عصر ما قبل التاريخ ونشروا حضارتهم ومدنيتهم فى السودان ، أو فى بعض أجزائه الشمالية ؛ واستمرت تلك الهجرات والصلات فى العهد الفرعونى ، حتى قويت فى الأسرة السادسة بصفة خاصة ؛ ونظر المصريون إلى أهل الجنوب على أنهم إخوانهم وأترابهم ، كما تشهد بذلك النقوش والنصوص . ثم تجددت الصلات وازدادت قوة فى عهد الدولة الوسطى ، عندما بدأت معالم المدنية الفرعونية المتقدمة تنتشر وتستقر استقراراً واضحاً

فى أراضى دنقلا الشمالية والوسطى . وفى عهد الدولة الحديثة ازدادت تلك الصلات قوة على قوة ، وانتشرت المدنية المصرية بل ازدهرت فى إقليم دنقلا برمته ، حتى امتدت إلى منطقة نباتا ومروى فى قلب السودان . وازداد شأن هذه المدنية المصرية — أو سمها إن شئت المدنية النيلية — حتى جاء وقت خرج فيه أبناء دنقلا ، ووحدوا أرض الوادى جميعاً فى مصر والسودان ، وأقاموا الأسرة الخامسة والعشرين فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد ؛ وأقامت أرض النيل بذلك الدليل على أن الأمر بين مصر والسودان ليس أمر غلبة ولا سيادة من جانب الشمال أو من جانب الجنوب ؛ وإنما هو أمر وحدة شعبية وسياسية ، لا فرق بين أن يأتى دعاتها وحماتها من شق الوادى فى شماله أو فى جنوبه . على أن الشىء الطريف حقا من ناحية الحضارة والثقافة أن مصر الفرعونية كثيراً ما اتصلت بغير أرض النيل من أقطار الشرق الأدنى القديم ، وأعارت تلك الأقطار الشقيقة من مدنيتها وتراثها فى الحضارة والثقافة ؛ ولكن الأمر لم يتجاوز حدود ما يكون بين الجار وجاره ، بحيث إن غلبة مصر فى وقت من الأوقات على تلك البلاد أو بعضها ، أو غلبة بعض تلك الأقطار والأمم الشرقية القديمة على مصر، لم يكن من نتائجها توحيد المدنية والثقافة ، وإنما اقتصر الأمر على تبادل المؤثرات لا أكثر . أما الحال بين مصر الفرعونية والسودان فقد كان غير ذلك ؛ إذ امتدت المدنية والثقافة المصرية القديمة نحو الجنوب ، فوجدت تربة صالحة لا تختلف عن تربة النيل فى الشمال ، ووجدت شعباً هو أقرب ما يكون إلى شعبها فى تكوينه وتقاليده وتراثه بل فى استعداده ومؤهلاته واستجاباته . ولذلك كله فقد غرست المدنية المصرية فى إقليم دنقلا ووسط السودان غرساً ونمت فيه على نحو لم يكن ليختلف فى كثير عما كانت عليه المدنية والثقافة فى مصر ذاتها . ولعل هذا بمفرده يكشف عن أن ما بين أبناء النيل جميعاً إنما هو من صلات القربى وصلات الوحدة ، لا من صلات الجوار كما يصوره بعض الناس . فلولا أن الأمر كان أمر وحدة فى الطبيعة والجنس ما وجدت مدنية مصر مرتعاً خصباً فى السودان ، وما استجاب السودانيون الأقدمون لما امتدت به يد مصر والمصريين الأقدمين إليهم من مدنية وثقافة ، استجابة لم نشهد لها مثيلا بين مصر وأى شعب آخر من شعوب العالم الشرقى القديم . . . على قرب ما بينها وبين تلك الشعوب من صلات .

الأمر بين مصر والسودان إذن أعمق كثيراً من أن يكون أمر جوار. وكلما درسنا تاريخ الصلة بين شقى الوادى دراسة تقوم على البحث الصادق والاستقصاء الصحيح تكررت أمامنا الأمثلة والشواهد على أنه أمر وحدة إنسانية كما هى وحدة طبيعية. ومن الغريب — أو لعله ليس غريباً — أن مصر لم تستطع أن تحبس على نفسها ثمار الثقافة مما أنتجته أرضها أو ما أصابته من الخارج، وإنما جاهدت دائماً فى أن تنقل ذلك تباعاً إلى بقية أرض النيل فى السودان. ففى أواخر العهد الفرعونى امتدت المدنية المصرية من إقليم مروى إلى النيل الأزرق؛ واستمر الاتصال قائماً فى العهد المسيحى عندما نقل الدين الجديد من مصر إلى دنقلا، ثم إلى السودان الأوسط ومنطقة سنار؛ وبقيت ديانة المسيح عليه السلام قائمة مزدهرة فى السودان عدة قرون؛ بل امتدت بها الصلات إلى أرض أريترية وأثيوبيا القديمة فى وقت من الأوقات . . . وقد استمرت الكنيسة النوبية — كما تسمى — قائمة ومزدهرة ما دامت كنيسة مصر قوية ومزدهرة؛ ولا غرو فهى فرع منها، بل غصن من أغصانها. حتى إذا ما دب الضعف والانشقاق إلى الكنيسة القبطية المصرية بعد الفتح العربى ببضعة قرون ضعفت كنيسة النوبة واضمحلت، ثم تلاشت حوالى أواخر القرن الخامس عشر للميلاد.

وعندما جاء الاسلام فتح عهد جديد فى صلات مصر والسودان فى الجنس والثقافة. ذلك أن مصر غدت طريقاً إلى السودان. والشىء الذى ينبغى أن نذكره أن العرب لم يهاجروا من الحجاز وشبه الجزيرة العربية إلى السودان عن طريق البحر الأحمر إلا فى القليل؛ وإنما هاجرت قبائلهم على الجملة بالبر إلى شبه جزيرة سينا ثم مصر، وسارت مع النيل فى شرقه أو فى غربه حتى بلغت شمال السودان. وقد بدأ تدفقها نحو الجنوب فى القرن الثانى عشر الميلادى وما بعده، واشتد فى القرن الرابع عشر. وتشعبت هجرات العرب فى السودان، فاتجهوا فى شعب ثلاث، أولاها من النيل فى منطقة صعيد مصر الأعلى نحو شرق السودان، حيث اختلط الساميون بالحاميين القدماء. وثانيتها مع النيل الأعظم ذاته، ثم مع النيل الأزرق؛ كما فعلت طلائع المصريين القدماء من قبل عند بزوغ فجر التاريخ ثم فى فترات من العهد الفرعونى والعهد المروى والمسيحى بصفة خاصة. وثالثة الشعب من النيل عند دنقلا إلى دارفور وكردفان،

وأطراف بحر العرب وبحر الغزال . وعلى طول هذه الشعب الثلاث تقدمت جموع العرب تؤثر فى السكان وتكوينهم الجنسى من جهة ، وتنشر الاسلام وتعاليمه ولغته وثقافته بينهم من جهة أخرى ، وتقرب بذلك كله بين أهل السودان وأهل مصر . . . أولئك الذين ربط الدم الحامى بينهم جميعاً فى أول الأمر ، ثم زكته دماء الساميين فى موجات متلاحقة كانت آخرها تلك الموجة العربية التى بلغت قلب السودان وبعض أطرافه الجنوبية والتى كان مفروضاً أن تمضى فى سبيلها حتى ترقى الهضبة الاستوائية وتلتقى هناك بموجة أخرى عن طريق شرق إفريقية . ولكن عوامل كثيرة تضافرت على أن تضعف تلك الموجة العربية الشمالية ؛ منها أن وصول العرب إلى السودان جاء متأخراً بعض الشئ ولم يعاصر عهد الثورة العربية وظهور الاسلام ، فكان توسع العرب فى السودان توسعاً طبيعيا تدريجيا ، لا غزواً سريعاً يجرف ما أمامه ، وينتهى إلى غايته فى سرعة خاطفة . ومنها أن انتشار العرب إلى السودان لم يلبث أن تبعه فى القرن السادس عشر ازدياد سلطان الأتراك العثمانيين وحلولهم محل العرب واستيلاؤهم على مصر بالذات ، وانقطاع حبل الثقافة العربية فى أرض الكنانة ، وتوقف هجرات القبائل العربية التى لم تستطع أن تتابع سيرها نحو الجنوب إلى السودان . وكذلك منها ضعف الاسلام ذاته ودخول الشرق الأدنى ومصر فى دور مظلم ، كان طبيعيا أن يتبع السودان فيه مصر ، فهو شريكها فى السراء والضراء ! وكما دخلت مصر فى عهد حالك من الاقطاع وحكم المماليك وتأخر الحياة والمدنية ، وانحلال ثقافة الروح والفكر ، دخل السودان فى عهد من الفوضى طويل ، امتاز بتشتت القبائل وضياع السلطان فيما بينها ، وتنافر المصالح بين سكان السودان ، وعدم إمكان قيام حكومة مركزية تربط بين أجزاء البلاد وتوحد مصايرها فى الفكر والثقافة . وبقيت الحال فى السودان على تلك الوتيرة حتى جاء العهد الحديث .

وقصة هذا العهد الحديث أطول من أن نسوقها فى هذا المقال ، وهى لا تزال ماثلة أمامنا ، قائمة بين أيدينا بحيث تغنى فيها الاشارة عن الاطالة . ويكفى أن نذكر أن هذا العهد الحديث قد امتاز بأن أيقظ محمد على مصر من رقادها ، ونفخ فيها من روحه ؛ فجاءت نهضتها الحديثة شاملة نواحى الحياة المادية والروحية والفكرية جميعاً . ولكن مصر فى هذه المرة أيضاً لم تكن لتستطيع أن تحبس

على نفسها كل هذا النشاط الذى بعث فيها ، وكل هذا الخير الذى أخذت سبيلها إليه ونهلت منه . فما هى إلا سنوات معدودة ، وإذا باب النيل يفتح نحو الجنوب ، وإذا طلائع مصر تبلغ إلى أعلى النهر فتحاول أن تكشف عنه ، وتجاهد فى أن تحمل مشعل النور إليه ؛ بل إذا طلائع مصر تجوس خلال السودان ، فتدعو أهله إلى الوحدة ، وتجمع شتات قبائله ودويلاته المنتثرة المفككة . وكما كان محمد على باعث النهضة فى الشمال ، فقد كان باعث الوحدة فى الجنوب ، وكانت هذه الوحدة التى بعثها أساس النهضة فى حياة السودان وأهله ، فاذا نور المدنية ينبعث فى أرجاء هذا البلد الشاسع ؛ وإذا ركب المدنية يسير مع أبناء النيل نحو الجنوب ؛ بل إذا هذا الجنوب ذاته يستجيب لهذه النهضة المباركة خلال نصف قرن أو يزيد ، فأضاء نور المدنية هذا الركن من إفريقية قبل أن يرتفع ستار التاريخ من أى جزء من أجزاء تلك القارة المظلمة . ومهما قيل عن نهضة السودان فى عهد محمد على وخلفائه ، وقصور تلك النهضة إذا ما قورنت بنهضة مصر فى نفس الفترة ، فانه ينبغى أن نذكر أن السودان كان قبل عهد محمد على قد أصابه التفكك فى الحياة والحكم إلى أبعد حد . ويكفى أن يكون السودان قد خرج من تلك الفترة بحكومة موحدة منظمة ، وبحياة لها طابعها العام الذى يوحد بين مختلف أرجاء السودان . بل يكفى أن نذكر أن عناية محمد على وخلفائه بأقصى جنوب السودان لم تكن لتقل عن عنايتهم بشماله؛ وقد نفذ المصريون إلى بحر الغزال ، وأطراف الهضبة الاستوائية ، واستقروا فيهما كما استقروا فى شمال السودان سواء بسواء . ولم يكونوا فى ذلك إلا مستجيبين لدعاء الوحدة فى هذا الوادى المقدس ، وعلى طول هذا النهر الذى لا يملك من يعيش على مائه ويتغذى بلبانه إلا أن يهب نفسه من أجله . وقد وهب كثير من المصريين دماءهم الطاهرة من أجل بعث الحياة فى السودان ، كما وهبوا روحهم وثقافتهم ، فحملوا رسالتهم وأبلغوها إخوانهم فى أقصى الجنوب .

ولكن التاريخ يأبى إلا أن يعيد نفسه . وكما جاء الأتراك العثمانيون فى عهد من العهود فقطعوا سبيل المدنية فى الشرق العربى ، وأضعفوا موجة العرب والثقافة العربية فى شمال شرق إفريقية ، ودخلوا بالشرق العربى كله بما فيه مصر والسودان فى عهد حالك الظلام ؛ كذلك جاء دعاة الاستعمار فى العهد

الحديث فقطعوا على مصر سبيل النهضة ، وحالوا بينها وبين أن تنفذ بنورها وثقافتها ودماء أبنائها الزكية إلى بقية وادى النيل ؛ فوقفت تلك الحركة المباركة أو وُقفت ، ودخل السودان فى عهد جديد من الفوضى وسوء الحكم والادارة ، يسأل عنه من تسببوا فيه وسعوا بالقطيعة بين مصر والسودان ، أكثر مما يسأل عنه أبناء السودان أو أبناء مصر . . . بل يسأل عنه أولئك الذين لا يزالون يعملون على إطالة عهد القطيعة ، وإن أتى ذلك ضد طبيعة الأشياء .

وبعد فان حديث الوحدة الجنسية والثقافية فى وادى النيل يشمل التاريخ من أوله إلى آخره ؛ بل يبدأ فى عصر ما قبل التاريخ ، ويمتد دون انقطاع إلى الحاضر والمستقبل . وهيهات أن نستطيع أن نلم بأطرافه جميعاً فى مقال واحد مهما طال . ولكن هذه العجالة تكفى لأن تبرز لنا روعة هذا الجانب البشرى من الوحدة فى وادى النيل . وقد شاء الله تعالى أن يتخذ من هذا الوادى المبارك كنانته ، يخلق فيها فيبدع الخليقة ، ويرتب فيها فيكون فى ترتيبه الاعجاز . بل شاء الله أن يأتىَ ترابط الخلق ، وتناسبهم فى هذه الكنانة من ترابط الطبيعة وتماسكها ، قويا كأقوى ما يكون الاتصال والنسب ، عريقاً كأعرق ما تكون صلات القربى وروابط الأرحام . وهو قد شاء أن يكون لأهل الشمال وأهل الجنوب أصل واحد أخذوا عنه ما بقى فى دمائهم بقاء الزمن ، كما شاء أن يزداد الترابط بينهما على مر الأيام ، تذكيه صلات الدم وصلات الروح وصلات الفكر فى آن واحد . وليس يضير هذا الشعب الموحد فى وادى النيل أن تكون قد اختلطت فيه دماء الحاميين والساميين والافريقيين وأهل الشمال ؛ فذلك كله قد نوع السلالة ، ونوع مصادر الوراثة فى هذا الشعب الذى صهرته الأيام وجرت فيه الحياة من ماء النيل . وإذا كان البحث الحديث قد هدانا إلى أن نعلم عن أصولنا ما يكشف عن وحدة تسبق فجر التاريخ وتسير مع الزمن إلى آخره ، فما أحرانا أن ندرس هذه الوحدة فى مختلف صورها من حياة بنى النيل فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب . . . بل ما أحرانا أن نتلمس فى هذه الدراسة نوراً من نور الله وهدياً من هديه . . . ولئن نحن فعلنا ذلك فإننا ولا شك واجدون فيما يكشف عنه العلم والدراسة ما يذكى فى نفوسنا الايمان بهذه الوحدة

المقدسة ، وما يذكرنا رغم اختلاف السحنة وتباعد المسافات ، بما بيننا من صلات فى النسب والأرحام وروابط فى الروح والفكر والثقافة هى أقوى من أن يجرى عليها الزمان . . . ومن يدرى ! فقد يكون فى هذه الدراسة ما يزيل عن أعيننا وأعين العالم الغشاوة ، وما يخرج بوحدتنا الخالدة إلى النور . . . ولو كره المنكرون !

سليمان حزين

وراء الستار

من نعم الله سبحانه عليه حين ابتلاه بهوس المسرح والسينما أن ابتلاه فى الوقت نفسه بضيق ذات اليد ؛ فهو فى المسرح ينحط فى مقعد خلفى فلا يضايقه صوت الملقن أو الطلاء البشع الذى يكسو وجوه الممثلين والممثلات ، وإذا دخل السينما هرول شوطاً طويلا ثم جلس فى مقعد يشعر فيه بأنه يشارك أبطال الفلم فى حياتهم : همسهم له وحده ، وابتساماتهم تحية يخصونه بها دون الحاضرين .

وهو أيضاً مشغوف بالمسارح الاستعراضية ؛ إذ يجد فى موسيقاها وتهريجها وراقصاتها أشباه العاريات نشوة لروحه المتعطشة للمرح . . .

ودخل أحد هذه المسارح ذات مساء وهو هامد الجسم متعب الروح تدل نظرته المنطفئة على الهوة الكبيرة بين آماله وأوجاعه ، وقارب البرنامج نهايته وعزفت الموسيقى لحناً معروفاً ، ثم ارتفع الستار عن فتاة شقراء ، شاهد من قبل كثيرات من أمثالها ، وكاد يحول بصره عنها ؛ فحركاتها مفتعلة وقفزاتها نكراء ، ولا فتنة فى ثوبها الفضفاض الذى شقه من أمام مقص عابث فكشف عن ساقين عاريتين يتموج عليهما النور والظلال . وضحك فى نفسه إشفاقاً عليها وهو يقول : « تتعب نفسها فى لا شئ ! » وفجأة أزاحت الستار الجانبى يد يلمع فيها خاتم وخرج من ورائه شاب طويل القامة ، ممشوق القد ، هو صفحة مزقت من « ألبوم » الخياطين : بذلته السوداء ذات الذيل قد ركبها على جسمه كواء صبور ، وربطة عنقه البيضاء قالب من المرمر ، والسلسلة الفضية الدلاة إلى جيب سرواله قيست بالمليمتر ، ولولا خط الفرق الناصع كأنه مرسوم بالمسطرة ، لما اختلف شعره فى لونه ولمعانه وتماسكه عن حذائه المصقول .

وقف الشاب لحظة وقد رفع كتفيه ، وقطب حاجبيه ، يرمق الفتاة كما يرمق الصقر الحمامة ، وزادت الراقصة فى حركاتها واضطرابها وأخذت تذرع المسرح جيئة وذهاباً . ثم قطعت الموسيقى دقة عالية من الطبلة فانقض على

فريسته وطوقها بذراعه ، فجفلت منه ، فلاحقها وأطبق عليها من جديد ، وخرست الطبلة وارتفعت أصوات الكمان بلحن بطئ ناعم . ماذا به يسيرها إلى الأمام وإلى الخلف وهى خاضعة بين يديه وإن كان الغضب قد كسا وجهها ، ولكن على من ؟ يا لله ! ما هذه الرجولة ! وما هذا السلطان ! استيقظ صاحبنا من سباته وامتدت رقبته قليلا . وجه هذا الراقص وجه صارم ، وشفتاه مطبقتان ، وعيناه قاسيتان ، ولسانه رغم نعومتها تنبئ بأنه اعتاد أن يأمر فيطاع . . . وانفلتت منه الفتاة معرضة عنه ، فلم يبال ، وانصرف عنها ودار على نفسه مختالا وقد ثنى ذراعيه وراء ظهره كهذه الديكة المركبة على المداخن حين تضربها الريح . . . ثم اقترب منها وجذبها إليه جذبة لو كان فيها بقية من الكرامة لصفعته من أجلها على وجهه . وتمتم صاحبنا يقول : « هكذا المرأة حينما تحب » . شدها ورفع جسمها على كفه فاستسلمت كأنما ترقد على فراش وثير ، أما ساقها المدلاة فمن بعض الدلال . أخذ يدور بها ، هل يريد أن يدوخها أيضاً ! ثم أنزلها فجأة إلى الأرض فلم تترنح الماكرة أو تغمض عينيها هنيهة ليرتد إليها بصرها من زوغانه ، بل هبطت فى خفة الريشة وعلى وجهها ابتسامة النصر واللذة ، هذا أول الرضا والصلح . . .

وبلع صاحبنا ريقه وتحرك فى مقعده قليلا . . . هو سعيد لأنه وجد فى هذا الراقص خير تعبير عن عواطفه ، وعن آرائه فى المرأة . . . هى حيوان لا يخضع إلا للسيطرة ولا يؤخذ إلا بالعنف كما كانت تؤخذ جداتها من سواكن الغابات . ولهذا فانه حين يتعرض للفتيات فى الطرقات يقابلهن برأس شامخ ووجه متجهم ، وإذا ظلت حياته إلى اليوم خالية من الظفر فى معارك الحب فيكفيه رضا أنه لم يذل لامرأة . حقا أنه جرى وراء بعضهن وفى قلبه لهفة وتضرع وعلى لسانه ألف استجداء ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا من قبيل التسلية ، وأما ارتداده خائباً كل مرة فشئ يحمد الله من أجله لأنه يحفظ عليه آراءه ومبادئه .

وأنّت أوتار الكمان أنيناً رقيقاً سيالا ، فإذا بجسم الفتاة يكاد يلتصق بجسم الفتى وذقنها بذقنه . . . والتفت ذراعه كالأفعى حول وسطها ، وسمت كفه إلى ما بين نهديها ، وخيل للحاضرين أنهما نسيا العالم والمسرح ومن فيه . . . نعم إن هذا هو الامتزاج والحب الذى من أجله وحده خلق الرجل . . . فنسى صاحبنا كبرياءه وسرح ذهنه ، فاذا به يرى نفسه بين يدى امرأة طيبة

القلب رقيقة اللمسة ، رقيقة الاشارة ، رقيقة الابتسامة ، تلفه كما تلف أغصان الشجر إنساناً ضالا فى حمارة القيظ ، من أنت ؟ وأين أنت ؟ أيا تكونين وأنى تكونين ؟ فأنا أنتظرك وسأجلس بين يديك أعترف أن كبريائى جراح أخفيها ، وأن رأسى لم يشمخ إلا لأنه لم يجد صدراً يستند إليه . ولو كشفت عن قلبى لوجدت معيناً من الحب والوفاء لا ينضب . . . ولو تنبه صاحبنا لوجد أن فتاة أحلامه تشبه هذه الراقصة شبهاً كبيراً ، غير أنها ترتدى ثوباً لم يعبث فيه المقص . . . ولكن هيهات ! أنى له كل هذا ؟ إنه فتى خجول منطو على نفسه ، بل هو مخلوق عجيب كأنما يتكلم بذهنه الثرثار ويفكر بلسانه الأخرس . . . وشاء المولى ألا يجود عليه كما جاد على هذا الفتى بالوسامة والرشاقة وقوة الإرادة ، واختلطت فى قلبه عاطفتان متناقضتان : إعجاب بالراقص وكره شديد له . . . وندم على مجيئه للمسرح ، وود لو أنه كان قد ذهب إلى السينما ؛ فهى بلسم النفوس الحزينة التى تشتكى الوحدة .

وبدأت الموسيقى تخف شيئاً فشيئاً وأقدامها تتثاقل معها حتى انتهى اللحن وهما على وشك أن يتبادلا قبلة خاطفة . ومالت الفتاة نحو الأرض وثنت إحدى ركبتيها لتحى الجمهور . أما الفتى فقد ظل ممسكا يدها ، وحنى رأسه قليلا ، ثم رفعه فجأة وهو يبتسم . . . وأسدل الستار .

خرج صاحبنا يتنزه كعادته فى عصر اليوم التالى ، وسار فى الطرقات متمهلا وهو منكس الرأس ، وفى قلبه إيمان خفى بالمعجزات . . . ومرت به فتاة وثانية وثالثة ، ولكن لم تحس به واحدة منهن .

ووقف أمام واجهة متجر يعلن عن ورود نوع من الجوارب رخيص الثمن ، فدس يده فى جيبه وعد نقوده وتوكل على الله ودخل . ولم يكد يمر بين البائعين حتى وقعت نظرته فى قسم المنسوجات على اثنين من الزبائن جالسين وجهاً لوجه فى مقعدين أمام البائع : سيدة عجوز أطبقت يداها على محفظة قديمة كأنها تخشى أن تختطف منها ، وعلى رأسها قبعة من القش الأسود اللامع على شكل خوذة ، وبين يديها شاب أصلع محنى الظهر مصفر الوجه كسير النظرة شاحب الجفن ، أصابعه الطويلة النحيلة الناتئة العظام فيها وجل الكلاب الضالة . قال صاحبنا لنفسه : « أين رأيت هذا الوجه ؟ أين أين ؟ وفجأة تذكر ، هذا هو الراقص البديع

بعينه ، ولكن أهذا ممكن ؟ لم تكن لمعة العين إلا من الكحل الأزرق ، والشعر الأسود مستعار ، وبهاء الوجه طلاء ، والخاتم « الماس بيره . . . » ووقف صاحبنا ذاهلا برهة ، ثم اقترب منهما وجعل ينظر إلى الأقمشة المعروضة وهو يسارقهما النظر والسمع ، فاذا بها تقول له بصوت تخالطه موسيقى الربو :

— لا تتعجل . ولنحسب حسابنا ، فالقماش غال ويكفيك أن تشترى مترين وثمانين سنتيمتراً . . . عليها لعنة الله . . .

— أليس من الخير أن نشترى ثلاثة أمتار كاملة ، فقد أحتاج فى المستقبل إلى تغيير « الياقة » .

— الآن عقلت ! وأين كنت حين هجمت عليك هذه الدنيئة ومزقت « فراكك » وأنت ولى نعمتها وكيف لم تنقذ نفسك منها ؟

— قلت لك يا أماه ألف مرة إننى خفت أن يرتفع الستار مرة أخرى إذ كان الجمهور لا يزال يصفق .

— أنت أحمق ! كان يجب حين أصرت على فسخ عقدها معك وأنذرتك أنها تراقصك ليلة أمس آخر مرة أن تصفعها على وجهها وتطردها . ولكنك هددتها بتمسكك بالعقد . . . ولماذا ؟ ألم يتركك كثيرات غيرها فلماذا آثرت هذه المرأة ؟ عساك سقطت فى حبائلها وفتنتك وظننت أنك تحبها . . .

فأجابها بصوت حزين فيه وسوسة الكذب :

— تعلمين يا أماه أننا لا نخلط فى مهنتنا بين العمل والعاطفة .

— هذا درس لك . وبعد فأنت لم تخسر شيئاً ، ولكنى أنا التى أضعت جهدى وتعبى ، فقد أبقيته لك جديداً عشر سنوات واحتفظت به كانسان عينى ، ولكنك أضعته فى طرفة عين بفضل هذه الساقطة . وإذا دامت حماقتك فخير لك أن تترك الرقص الكلاسيكى إلى الرقص البهلوانى ، فهذا أليق بك وأسلم .

وخرج صاحبنا من المتجر مهرولا ، وسار فى الطرقات يتعرض للفتيات تارة بابتسامة ذليلة وتارة بكبرياء وهو رافع الرأس متجهم الوجه . . .

ولا يزال إلى اليوم فى حيرته . . .

يحيى حقى

العتبي

فى هذه الصورة التى نقصد إلى جلائها مثل من الأمثلة التى توضح بعض النواحى الغامضة والتيارات الخفية السارية فى المائة الأولى من قيام الدولة العباسية ، وتبين شيئاً من الألوان التى كانت تسود الحياة الأدبية والعقلية فى هذه الفترة من الزمن . وفى هذه الشخصية التى نرجو أن نتبين — قدر ما يمكن أن يتاح لنا — شيئاً من ملامحها وقسماتها ، طائفة من الخصائص التى تميزها عن معاصريها ، سواء فى تلك الملامح والقسمات ، أم فيما أحاط بها من الأسباب والملابسات . وإذا كان تراثنا الأدبى الذى بقى لنا عن هذه الفترة يضعنا من هذه الشخصية أمام صورة غامضة مبهمة ، لا تكاد العين تستبين منها خاصة واضحة ، أو تتعرف فيها سمة بارزة ، لضآلة ما كتبوه فى ترجمتها من ناحية ، ثم لتشتت ما أثر عنها وذهابه فى ثنايا الكتب المختلفة وتضاعيف ذلك التراث الأدبى المختلط ، من ناحية أخرى ، فسنحاول فى هذا الفصل أن نضم المتفرق ونلم المتشعث ، ونستلهم روح العصر ، ونتعرف بذلك ما عسى أن يجلوها ويبرز بعض خصائصها ويضعها فى مكانها ، ويظهرنا على الصلات التى تربطها بما حولها .

والعتبى عالم راوية شاعر ، ولكنه طراز آخر غير ما ألفنا أن نراه فى رواة ذلك العصر وعلمائه وشعرائه . لم ينشأ نشأتهم ، ولم يخرج من طبقتهم ، ولا تعرض لما تعرضوا له من مشاعر وأحاسيس أحاطتهم بها طبقتهم الاجتماعية التى يمتون إليها . وإن هذا اللقب الذى يحمله ويعرف به ولا يكاد يعرف بغيره ليشير إلى هذه المفارقة ؛ إذ ينبه إلى ذلك الأصل الذى ينحدر منه ويرجع إليه ، وهو الأسرة الأموية عامة ، وعتبة بن أبى سفيان خاصة . فها هو ذا إذن عالم راوية من طبقة السادة الفاتحين ، لا من طبقة الموالى ، يصطنع العلم ، ويأخذ

الرواة عنه ، ويكتب الكتب فيدفع بها إلى الوراقين ، أو يتلقفونها عنه ليذيعوها ، شأن أولئك العلماء من الموالى الذين ليس لهم من نبل الأصل ولا من تقاليد السؤدد ومواضعاته فى ذلك العصر ما يرفعهم عن هذه الصناعة . وها هى ذى ظاهرة من ظواهر التحول الاجتماعى الذى أخذت الجماعة الاسلامية تخضع له ، وقد جعلت بعض نوازعه تتمثل مبكرة فى أبى عبد الرحمن العتبى هذا ، وقد وجدت فيه من الملابسات الخاصة ما أبرز هذه الظاهرة ومكن لها وشق سبيلها لتصبح بعد قليل أبعد مدى وأوسع انتشاراً ، فكان — إلى جانب رجل كمصعب الزبيرى — من أول الذين تحطمت لديهم هذه الناحية من تقاليد السؤدد العربى فى العراق ، وإن كنا — حين نتتبع حياته العلمية واتجاهه الروائى — نراه محكوماً إلى حد غير قليل بجو خاص ، هو جو هذه الأسرة التى خرج منها ، وظل يحمل اسمها . وإذن فلا بد لنا أن نحاول تعرف ذلك الجو ، ومبلغه من التأثير فيه . ويبدو أن العامل الأول فى تكييف ذلك الجو ، ثم فى اتجاه العتبى تلك الوجهة ، يرجع إلى تلك الغير التى عانتها هذه الأسرة فى صلتها بالسلطان . فقد كان عتبة بن أبى سفيان ، وهو — كما قلنا — الجد الأكبر لهذه الأسرة ، أخا الخليفة وردءه ، وأحد الذين بنوا تلك الدولة ومكنوا لها ، وردوا عنها كثيراً من المكايد التى كانت تتربص بها ، والفتن التى كانت تتوثب عليها . وقد كان — كما نستطيع أن نرى ذلك من مواقفه فى مصر وخطبه المأثورة بها — رجلا مهيباً شديد البأس قوى العارضة بيناً حاضر الحجة ، اجتمعت له فى شخصيته الصفات التى تجعله من بناة الدول ، وكذلك كان من أقوى بناة الدولة الأموية ، وإن عاجله الموت فمات سنة ٤٤ مرابطاً بالاسكندرية . وبموته انتهى — فيما يبدو — نصيب هذه الشعبة من السفيانيين فى الدولة ، فلم نعد نرى أحداً منهم يشارك فى أعمالها ، أو يتولى أموالها ، وإن كان فيهم رجل كعمرو ابن عتبة عرف ببعد النظر ورجاحة العقل وشجاعة القلب والاتزان والبعد عن الهوى ، وهى الصفات التى أهلته ليكون زعيما للسفيانيين ، يدافع عنهم ، وينطق بحجتهم ، ويتكلم بلسانهم ، فيما كان بينهم وبين المروانيين الذين صار الأمر إليهم ، وفيما كانت الدولة تنالهم به — ولا سيما فى أيام عبد الملك بن مروان — من تسخط عليهم ، وتنكر لهم ، وانتقاص لحقوقهم . ولكنه اكتفى بهذا القدر فى موقفه من الدولة ، فلم يغامر فى شىء من السياسة ، ولا شارك فى شىء مما كان يدبر ضدها ،

ويراد به إحداث نوع من الانقلاب فيها ، وتهيئة الأمر لبعض هذه الأسر الأموية التى نحيت عنه ؛ فقد كان إلى جانب تلك الصفات التى ذكرناها رجلا مستقيم الخلق صريح المذهب قوى الشعور بحرمة الرحم الماسة .

ولعله كان أول من استوطن بأسرته البصرة ، وقد عاش بها سريا ممدحاً . ولعله لم يكن يتاح لنا أن نعرف إقامته فيها ، وأولية هذه الأسرة بها ، لولا هذه الأبيات التى قالها الفرزدق فى مدحه :

لولا ابن عتبة عمرو ، والرجـاء له ... ما كانت البصرة الحمقاء لى وطنا
أعطانى المال ، حتى قلت : يودعنى ... أو قلت : أودع لى مالا رآه لنا
فجوده متعب شكرى ، ومنتـه ... وكلما زدت شكراً زادنى مننا
يرمى بهمتـه أقصى مسـافتها ... ولا يريد على معروفـه ثمنا

وانتهت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية مقامها ، والعتبيون بالبصرة وعلى رأسهم فى ذلك الوقت عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة ، جد العتبى . وكان على البصرة حينذاك سليمان بن على . وقد شارك فى الخطة التى اختطتها الدولة الجديدة للانتقام من بنى أمية وتتبعهم والتنكيل بهم . فاستطاع عمرو بن معاوية أن يختفى بأهله حيناً من الزمن ، حتى استقرت النفوس وهدأت الثائرة بعض الشئ ، فأظهر نفسه ، وتقدم إلى سليمان بن على ، فقال له : « أصلح الله الأمير ! لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك . فاما قتلتنى غانماً ، و إما رددتنى سالماً » . فقال له : « ومن أنت ؟ ما أعرفك ! » ، فانتسب له . فقال سليمان : « مرحباً بك ! أقعد آمناً غانماً . ما حاجتك ؟ » ، فقال : « إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خفن لخوفنا . ومن خاف خيف عليه » . فدمعت عينا سليمان ، ثم قال : « يابن أخى ! يحقن الله دمك ، و يحفظك فى حرمك . ويوفر عليك مالك . والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت . فكن متوارياً كظاهر ، وآمناً كخائف » . ثم استصدر سليمان بن على من الخليفة أماناً له ولمن كان ثمة من أسرته .

وهكذا نجت هذه الأسرة من تلك العاصفة العاتية التى هبت على الأمويين فى مختلف الجهات ، فاقتلعت معظمهم وطوحت بهم إلى ما وراء هذه الحياة ، واستطاعت أن تستقر آمنة مطمئنة فى هذه المدينة التى اختارتها لنفسها منذ

جيلين مضيا ، وكانت قد رأت فى الاقامة فيها ما يكفل لها الهدوء والبعد عن تلك التيارات والنزعات التى كانت تفسد على الأسرة الحاكمة حياتها فى الشام . ولكنها إذ تحس اليوم روح الأمن و برد الطمأنينة تحس إلى جانب ذلك أنها فقدت مكانها الذى كانت تتبوؤه من قبل ؛ فلم تعد تلك الأسرة السرية التى تربطها بالدولة أوثق الأواصر ، والتى تملك من أحاسيس المجد ومظاهره ما يملؤها عزة ، و يحيطها بمعانى الكبرياء والرفعة ، و يرتفع بها عن اصطناع أساليب الحياة التى يصطنعها عامة الناس . فقد ذهب عنها ذلك كله بذهاب دولة بنى أمية ، وأصبحت لا تملك منه إلا ما بقى لها من ذلك الرباط التاريخى الذى يربطها به . فليس لها إلا أن تتبلغ برواية أخباره ، وتناقل أحاديثه وآثاره .

ولعل الأمر لم يقتصر على ذلك فيما يتعلق بهذه الأسرة . فهى لم تفقد مكانها الاجتماعى فى هذه المدينة فحسب ، بل تغير الجو من حولها كذلك فيما يمس مشاعرها العربية أولا ، ومشاعرها الأموية ثانياً . فلم تعد الدولة عربية ، كما كانت من قبل ، بل أصبحت فارسية فى كيانها وفى اتجاهها وفى هذه الألوان الغالبة عليها . ولم تعد تلك النزعة الشعوبية تتسلل فى خيفة ورقبة واستحياء ، بل أصبحت نزعة قوية عارمة ، تجاهر بالدعوة ، وتفرط فى الخصومة ، وتتقحم على الناس فى شئ غير قليل من الكبرياء والقحة ، غير متحرجة ولا متأثمة . ثم ها هى ذى الدولة القائمة لم تكد تفرغ من حملة المطاردة والتقتيل والتمثيل التى شنتها على الأمويين ، حتى أخذت تنظم حملة أدبية عليهم تتجه بها إلى نفوس الناس وعقولهم ومشاعرهم ، فأخذت توعز بالوسائل المختلفة إلى بعض العلماء والرواة ليكونوا أداتها فى هذه الحملة ، إذ يتناولون خلفاء الأمويين وأمراءهم ، يتعقبونهم ، وينقبون عن أخبارهم ، و يمثلون بتاريخهم ، ثم يولدون الأخبار المنكرة وينسبونها إليهم ، سواء فى ذلك حياتهم الخاصة وحياتهم العامة ، مما لا يزال لدينا منه أطراف مختلفة فى كتب الأدب والمحاضرات تمثل لنا هذا النوع من النشاط . وهكذا جعلت هذه الأسرة تتنفس ذلك الجو البغيض يمضها ويوغر مشاعرها ، ويثير فى نفسها آلم الذكريات . وفى ذلك الجو نشأ صاحبنا أبو عبد الرحمن محمد ابن عبيد الله العتبى .

خرج العتبى إذن من بيئة غير تلك البيئات التى تعودنا أن نرى العلماء والرواة فى تلك الفترة من الزمن يخرجون منها ، وفى تلك الملابسات التى خلقت فى تلك البيئة جوًّا خاصا بها . وقد تكون هذه الأسرة قد أحست منذ انتقل الأمر من السفيانيين إلى المروانيين ، شيئاً من العزلة . وقد يكون من مظاهر هذا الإحساس هذه الإقامة البعيدة فى البصرة فى غير حاجة إلى هذا الابعاد من ولاية أو نحوها . ولكن هذا الاحساس بالعزلة قد أوجد لها نوعاً من الاعتداد بالنفس ، ونزع بها — فيما يبدو — إلى استمداد الشعور بالكرامة ، واستبقاء روح العزة من أصول أبعد من الخلافة والملك ، كالذى نلاحظه فى بعض مايروى من حديث عمرو بن عتبة إلى بنيه فى شئ من الخصومة وقع بين آل أبى سفيان وبنى مروان ، إذ يقول لهم : « إن لقريش درجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالا تخشع لها رقاب الأموال ، وألسناً تكل عنها الشفار المشحوذة ، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة . ولو كانت الدنيا لهم ضاقت عن سعة أحلامهم ، ولو احتفلت ماتزينت إلا بهم . ثم إن ناساً منهم تخلقوا بأخلاق العوام ، فصار لهم رفق باللؤم ، وخرق فى الحرص . لو أمكنهم قاسموا الطير أرزاقها . إن خافوا مكروها تعجلوا له الفقر ، و إن عجلت لهم نعمة أخروا عليها الشكر . أولئك أنضاء فكر الفقر ، وعجزة حملة الشكر » .

فعمرو بن عتبة لا يحاول فى هذه العبارة — إن صحت نسبتها إليه — أن يثير فى ولده الشعور بالكرامة ، بالتحدث عن بنى أمية ، بل هو يرجع بهم إلى ذلك الأصل الأبعد ، وهو قريش . ومهما يقع الشك فى نسبة هذه الفقرات ، فليس يفوتها — إذ كان راويها العتبى — أنها تصور ذلك النوع من شعور الأسرة منذ حدثت الفرقة بين السفيانيين والمروانيين . فالذى يعنينا فى حقيقة الأمر من هذا هو مايمكن أن يخلص لنا من تصور هذه الأسرة أنها كانت تعيش منذ عهد غير قريب — بالنسبة لعهد العتبى — منقبضة فى نفسها وفى مشاعرها الخاصة بها . فلم تكن تعيش فى الخارج قدر ما كانت تعيش فى ذلك الجو المقصور الذى يضطرب بالأخبار والروايات والأحاديث الخاصة التى تنحدر إليه وتتسلل نحوه عن الآباء والأجداد والأهل والحاشية ، فتجد فيها أنواعاً من الأنس ، فى وسط ذلك الشعور بالعزلة .

ومهما يكن من أمر هذا الشعور فقد كان يخالطه من بعض جوانبه —

بطبيعة الحال — الاحساس بمجد الخلافة ، على ما ذكرنا من قبل ، ولا سيما إذ كان الناس ينظرون إليها بهذا الاعتبار ، وإذ كان من الطبيعى أن يتجاوب وإياها إحساس هؤلاء الناس لقاءها . فالعزلة النفسية التى كانت هذه الأسرة تستشعرها إنما كانت إحساساً جزئيا على كل حال ، حتى تغير الأمر ذلك التغير ، وحدث ذلك الانقلاب ، وانتقلت الخلافة من بنى أمية إلى بنى العباس ، ثم حدث ما أشرنا إليه من استعلاء النزعة الشعوبية ؛ ومن ذلك الاتجاه إلى تشويه الذكريات الأموية ، ومحق ما عسى أن يكون فيها من مأثرة تؤثر ، أو فضيلة تروى وتذكر . وبذلك نمت هذه العزلة النفسية واستحكمت حلقاتها أو كادت ، وقوى إحساس العتبيين أنهم يحيون فى غير زمانهم ، أو كأنهم لم يعودوا يعيشون إلا فى هذه الذكريات والأخبار التى جعلت تملأ جوهم وتؤنس وحدتهم .

ولسنا ندرى على وجه الدقة متى ولد محمد بن عبيد الله العتبى ، فلم يشر المؤرخون إلى ميلاده أية إشارة ، وكأنما كان ذلك من مظاهر تلك العزلة التى عانتها أسرته التى ولد فيها ، فى إبان استحكام حلقاتها فيما يظهر . وإن كنا نستطيع أن نجد فى مقارنة بعض النصوص والاستنتاج منها ما لعله يدلنا بعض الدلالة على وقت مولده فى شئ من المقاربة . من ذلك ماحكاه المرزبانى فى حديثه عنه ، فى كتابه معجم الشعراء ، أنه بلغ سنًّا عالية ، وما ذكره الخطيب البغدادى فى تاريخه أنه مات سنة ٢٢٨ . فلنا من هذا أن نفترض القول بأنه ولد قبل منتصف القرن الثانى . فاذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره الخطيب من أنه تلقى عن أبى مخنف لوط بن يحيى ، وقد مات أبو مخنف هذا — كما ينص على ذلك ياقوت — سنة ١٥٧ ، كان لنا أن نفترض سنة ١٤٠ تاريخاً لمولده ، أو قريباً من ذلك .

والأمر فى نشأته كالأمر فى سنة مولده غامض مبهم لم يصلنا عنه شئ ، إلا مايذكره الخطيب حين يجد نفسه مضطرا إلى أن يذكر شيوخه ، فيقول إنهم أبوه وسفيان بن عيينة وأبو مخنف . وقد يكون مما يلفت النظر ويثير الشعور بالغرابة أن يكون سفيان وأبو مخنف شيخيه ، وليس واحد منهما بصريا . فسفيان كوفى الأصل انتقل إلى مكة فصار محدث الحرم ، وأبو مخنف كوفى أيضاً . فما دلالة هذا ؟

والخطيب حين يذكر هؤلاء فانما يذكرهم على أنهم شيوخه فى الحديث ،

فأما شيوخه فى غير الحديث فليس هنالك مايدلنا على أحد منهم ؛ فالتراجم التى وقفنا عليها لا تشير أية إشارة إليهم ، والأخبار المتناثرة المستندة إليه — مما بين أيدينا — لا تكاد تكون فى أسانيدها إشارة إلى شيخ من أصحاب الرواية كان يروى عنه هذه الأخبار وكأنه ليس هنالك إلا أبوه عبيد الله بن عمرو . وإذا صح أنه لم يتلق الأدب عن أحد من هؤلاء العلماء الذين كانت البصرة تزخر بهم كان ذلك أمراً غريباً ، غرابة ما أشرنا إليه من أنه لم يتلق الحديث عن أحد من شيوخ البصرة ، وإنما تلقاه — فيما يظهر — فى بعض رحلاته إلى الحجاز . وكأنه قصد إليه — أى إلى الحديث — كما كان يقصد إليه أبناء الأمراء ، فهو نوع من الترف ، وهو تقليد من التقاليد . ومن ذلك لم يعن بالتخير ؛ فأحد شيخيه وهو سفيان ثقة ، والآخر « كوفى ليس حديثه بشىء » كما يقول ابن معين عن أبى مخنف . فتأويل تلك الغرابة يمكن أن يكون فى هذا ، كما يمكن أن يكون فى تلك العزلة التى استحكمت واشتدت فى ذلك العهد الذى نشأ فيه العتبى . وبذلك كان شيخه الأول — ويكاد يكون شيخه الفرد — أباه عبيد الله بن عمرو ، وكان سيداً أديباً فصيحاً ، كما يصفه ابن النديم .

نشأ محمد بن عبيد الله فى وسط تلك الحالات النفسية المقصورة التى عرضناها ، وجعل عقله وخياله يتفتحان على هذه الأحاديث والآثار التى كانت أسرته تتناقلها ، والذكريات التى كانت تتوارثها : تتعزى بها ، وتأنس إليها . فجعل يتحفظها ويرويها ويملأ قلبه وعقله بها ، على ذلك الوجه ، لا على أنها علم يدرس . وإن كانت لم تلبث حتى صارت فنا من فنون الرواية يرويه الرواة ويستمع إليه الطلاب ويدونه الوراقون ويذيعونه ، حين اتجهت الدعاية إلى الغض من الأمويين وتشويه آثارهم ومحق مآثرهم ، بتأثير النزعة الشعوبية المتوثبة والدولة الجديدة جميعاً ، فأحس العتبى بما ينبغى أن يبذله لقاء ذلك ، فاتجه إلى إذاعة هذه الأخبار والآثار التى كان يحفظ منها قدراً غير قليل . وقد وصلت إلينا طائفة من هذه الأخبار منسوبة إليه ، وهى تتجه فى مجموعها إلى تمجيد بنى أمية ونسبة صنوف مختلفة من الفضل لهم ، سواء فى ذلك خلفاؤهم وأمراؤهم وولاتهم ، كمعاوية ، ويزيد ، وخالد بن يزيد ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد ، وعمرو بن عتبة ، والحجاج ، وعبيد الله بن زياد ، وخالد بن عبد الله

القسرى . وكأنما كان بذلك يحاول أن يصلح ماتفسده الدعاية ، وأن يعدل كثيراً من الصور التى كانت تذيعها عن رجال تلك الدولة الذاهبة . وإذا كانت فتنة الرواية فى تلك الفترة قد طرّقت سبيلا نهجاً لدعاة الشعوبية ورجال الدولة الجديدة ، فاستطاعوا فى غمرتها أن يدسوا دسائسهم ، ويبثوا ضد الأمويين دعاياتهم ، فان هذه « الفتنة بالرواية » نفسها قد أتاحت لأبى عبد الرحمن العتبى أن يقاوم تلك الدعاية ، بما كان يذيع من أخبار الأمويين ومآثرهم .

وإذا كان دعاة الشعوبية قد وجدوا فى خلال تلك الثورة الاجتماعية التى صحبت قيام الدولة العباسية كثيراً من الآذان المصغية إليهم والقلوب المائلة نحوهم والمشاعر المشاركة لهم ، فقد كان هنالك من يحس العطف على بنى أمية والرثاء لهم ، ولا سيما فى مدينة كالبصرة كانت العثمانية تحتل فيها مكاناً ظاهراً ، وكانت روح السخط على الدولة الجديدة لا تزال متفشية فيها غالبة عليها . وإذا كانت النزعة الأموية فى ذلك الوقت أمراً محتاجاً إلى الدرس لتبين وجوهها المختلفة ، فليس هناك من شك فى أنها كانت موجودة على نحو ما . وليست أسطورة السفيانى إلا مظهراً من مظاهر تلك النزعة . فقد كان موقف العتبى إذن استجابة أدبية لها ، إلى جانب كونه عاملا من العوامل التى جعلت تغذيها وتشد من جانبها ، حتى أصبحت بعد ذلك بقليل ، وفى أيام الخليفة المأمون ، أمراً واضح الخطورة ، تحسب الدولة حسابه وتخشى جانبه ، وتتخذ التدابير لمواجهته . وإن كنا لا نشك فى أن نشاط العتبى من هذه الناحية كان نشاطاً أدبيا خالصاً فى ذاته ، وأنه لم يتجه به وجهه سياسية ، وإن وجدت السياسة فيه شيئاً تستطيع أن تستغله .

وهكذا نرى أن العتبى كان يمثل بتلك الوجهة التى اتجه إليها فى رواية الأخبار تياراً من التيارات الخفية السارية فى المجتمع الاسلامى لذلك العهد ، والذى لم يلبث أن جهر واستعلن . ولكنه كان يمثله من الناحية الأدبية التى نعنى هنا بملاحظتها وتسجيلها ؛ إذ كانت العناية بالصورة الأدبية الفنية لهذه الأخبار ظاهرة الأثر فيها .

وبعد فقد كان العهد الأموى — كما قلنا — عهداً عربيا يمثل الروح العربية فى جميع ألوانه ، فى رجاله وفى بيانه ، فلا جرم كان تصويره تصويراً للروح

العربية ، وكانت رواية آثاره تعتبر من بعض وجوهها استجابة لهذه الروح ، كما أنها كانت تجد الحافز لها عند العتبى من ناحية الأموية والعربية جميعاً ، وهما فيما يبدو متداخلتان عنده كل التداخل . وإن من الآثار التى كان يعنى بروايتها مالا يتضمن تمجيداً للأمويين ولا إشادة بهم ، وليس يربطها بهذه الناحية إلا أنها من الآثار المنسوبة إلى عهدهم ، ثم هى ليست بعد ذلك إلا ألواناً من حديث الأعراب ، وصوراً من البيان العربى التقليدى الجميل . والواقع أن أول مايلاحظه المستقرى لما وصل إلينا من روايات العتبى فى هذا الباب أنها رواية أدبية فى جملتها وفى اللون الغالب عليها . فالأخبار المجردة قليلة الحظ فيها ، والكثرة الغالبة هى لهذه الآثار الفنية التى تمثل روح اللغة العربية ، على لسان بعض الأمراء الأمويين أو غيرهم ممن هم بسبيل منهم . ولعل من أوفر هؤلاء الأمراء حظا من ذلك جده الأكبر عتبة بن أبى سفيان ؛ فعناية العتبى برواية آثاره عناية ظاهرة ، لا لأنه جده الذى ينتسب إليه ويحمل اسمه فحسب بل لقدرته البيانيـة الرائعة فيما يؤثر عنـه من خطب ، كخطبته فى مصر حين أخذت الثورة على بنى أمية تدب فيها ، وكخطبته فى الحجاز سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بفتنة . فالأمر فى مثل هذه الروايات يرجع إلى شعوره الشخصى وشعوره الأموى وشعوره العربى ونزعتـه البيانيـة جميعاً .

على أن هنالك إلى جانب هذا النوع من الرواية مجموعة من الآثار التى يعنى العتبى بروايتها ، دون أن تكون أموية ، وإنما هى عربية أعرابيـة ، لا يربطها بالأموية إلا تلك الصفة العامة التى أشرنا إليها ؛ فهى أقوال من حديث الأعراب ، تختلف فى موضوعاتها ، وفى نوع صياغتها ، وفى طولها وقصرها، ولكنها تتفق جميعاً فى العبارة الجميلة المحكمة التى تصور روح اللغة العربيـة تصويراً جيداً ، وهى فى جملتها أقرب إلى الحكم والأمثال وجوامع الكلم ومحكمات الأوصاف ، كقول أعرابى فى صفة رجل شجاع : « نعم حشو الدرع ومقبض السيف ومدره الرمح هو . كان أحلى من العسل إذا لوين ، وأمر من الصبر إذا خوشن » ، وكقول آخر فى وصف رجل جميل : « فلان إذا نظرت إليـه موسة سقط خمارها ، وإذا رأته العيدان تحركت أوتارها » ، وكقول ثالث فى وصف الصديق : « خير الاخوان من ينيل عرفاً ، أو يدفع ضرا » ، وكقول

غيره فى وصف مشهد طبيعى : « مررت ببلدة ألقى بها الصيّف بعاعه ، فأظهر غديراً يقصر الطرف عن أرجائه ، وقد نفت الريح القذى عن مائه ، فكأنه سلاسل درع ذات فضول » ، إلى غير ذلك من العبارات الجامعة التى تمثل روح العربية فى التعبير وبناء الجملة وصفات الجمال فيها ، مما نجده متناثراً هنا وهناك فى كتب الأدب العام كالأمالى والعقد وما إليهما .

على أن هناك سؤالا تثيره هذه النقرات القصيرة المحكمة التى تمثل صورة أو تقدم حكمة ، والتى كان العتبى معنيا بروايتها عن الأعراب ، والتى تقابل نظائرها من صور الأدب الفارسى مما ذاع فى العهد الساسانى ، وعنى بنقله إلى العربية فى أوائل العهد العباسى : أهناك شئ من المعارضة كان يحسه العتبى ومن إليه حين كانوا يعنون برواية هذه الجمل القصيرة الجامعة ليضعوها بازاء ذلك النوع من الأدب الفارسى ، حتى لا يذهب الظن بالناس إلى أن مثل ذلك الفن لا عهد للعربية به ؟ إن روح ذلك العصر تجعلنا نرجح ذلك الفرض فى الاجابة على ذلك السؤال . ومثل هذا يمكن أن يقال أيضاً عما يرويه العتبى مما يصور النسك عند الأعراب ؛ فقد ذهب فى الناس أن النسك فارسى ، إذ كان أكثر النساك فى ذلك العهد فرساً ، ومن ذلك نراه حريصاً على النص فيما سمعه من ذلك القبيل أنه سمعه من أعرابى .

وبعد فهذا هو العتبى الراوية ، وتلك هى وجهته فى الرواية ، وذلك هو الأصل فى تلك الوجهة . وقد رأينا مكانه من هذه الوجوه المختلفة التى كان يتخذها النشاط الأدبى فى عصره ، وصلة ذلك بالنزعات السياسية السارية فيه . ولعلنا نستطيع أن نتعرف فيما قدمنا أثره فى إمداد النثر العربى الفنى وتوجيهه .

وليس من غرضنا فى هذا الفصل أن نستقصى النواحى المختلفة لأبى عبد الرحمن العتبى . ولكنا لا نستطيع أن نغفل القول فى المذهب الذى كان يصطنعه من مذاهب الحياة العقلية السائدة فى ذلك الوقت . فقد كان الرجل إلى جانب تلك الثقافة العربية يأخذ نفسه ببعض فنون المعرفة الرفيعة، ويحاول أن يسبغ على نفسه بعض ألوان الحياة العقلية الممتازة ، وهى التى كانت تتمثل — أكثر ما تتمثل — فى هذه الثقافة اليونانية التى أخذت الطبقة المترفة تراها مظهراً من مظاهر الترف ، فهى حريصة عليها حرصها على هذه المظاهر . وكذلك كان العتبى . ويشير الجاحظ فى مقدمة الحيوان إلى الصلة

التي كانت بينه وبين رجل كمحمد بن الجهم ، من أصحاب تلك الثقافة — وقد أتيح لنا من قبل أن نتحدث عنه ونعرف بعض الشيء به (١) — وإلى أن تلك الصلة كانت تقوم بين ماتقوم عليه على التماس ألوان هذه الثقافة وآثارها.

وقد كانت هذه الثقافة اليونانية تسلك في ذلك الوقت سبيلين : سبيل المعتزلة ، وسبيل الأطباء . وكانت السبيل الأولى سبيل رجال الدين ،والثانية سبيل الرجال المدنيين ، ومن هؤلاء الأخيرين كان محمد بن الجهم ، وكان — فيما يصفه الجاحظ به — من فلاسفة الأطباء . وكذلك نستطيع القول بأن اتجاه العتبي إلى هذه الثقافة لم يكن اتجاهاً دينيا اعتزاليا ، وإنما كان اتجاها مدنياً فلسفيا ، وإن كنا لا ندري في حقيقة الأمر إلى أي مدى بلغ منها .

على أن الجاحظ يصوره لنا — في موضع آخر من كتاب الحيوان — صورة طريفة يحسن بنا أن نقف عندها وننظر فيها .فهو يعرضه في هيئة الرجل الذي يحرص أشد الحرص وأبلغه على دقة العبارة وتحرير المراد والتحرج في ذلك إلى أبعد مدى . ولكنه يدقق في غير موضع تدقيق ، ويتحرج دون مايدعو إلى التحرج ، ويبلغ من ذلك مبلغاً أدنى إلى السخف أو هو السخف نفسه . فهي صورة عابثة ساخرة تصور فن الجاحظ من ناحية ، وتبين من ناحية أخرى كيف كان ينظر إلى هذا الصنف من العلماء ؛ ولكنا مع ذلك لا نعدم أن نرى فيها أثر اتجاه الرجل للثقافة اليونانية في بعض مظاهر سلوكه في التفكير أو التعبير . قال :

« وكان العتبي ربما قال : « فقال لي المأمون كذا وكذا حين صار النجم على قمة الرأس ، أو حين جازني شيئاً ، أو قبل أن يوازي هامتي . هكذا هو عندي ، وفي أغلب ظني ، وأكره أن أجزم على شيء . وهو كما قلت إن شاء الله تعالى ، وقريباً مما نقلت » . فيتوقف في الوقت الذي ليس من الحديث في شيء . وذلك الحديث إن كان مع طلوع الشمس لم يزده ذلك خيراً ، وإن كان مع غروبها لم ينقصه ذلك شيئاً . هذا ولعل الحديث في نفسه لم يكن قط ، ولم يصل هو في تلك الليلة البتة . وهو مع ذلك زعم أنه دخل على أصحاب الكهف فعرف عددهم ، وكانت عليهم ثياب سبتية ، وكلبهم ممعط الجلد . وقد

---

(١) « فصول لم تنشر من آثار الجاحظ » الكاتب المصري عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم : لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا . »

فاذا نحن جردنا هذه الصورة من السخرية والمبالغة بقى لنا أن العتبى كان رجلا متنطساً متكلفاً فى حياته . ولعل ذلك كان أثراً من آثار البيئة المقصورة التى خرج منها وعاش فيها ، ووجهته تلك الوجهة التى رأيناها .

طه الحاجرى

علمان ضالان

الكيمياء قديماً والتحليل النفسى حديثاً

قد يقال وهل يجوز على العلم الضلال ؟ وهل يسمى الضلال علماً وحد العلم الهداية إلى الحق . الواقع أن لدينا تاريخ أحد هذين العلمين كاملا منذ أول نشأته و إبان ازدهاره وانتشار المؤمنين به إلى حين موته وانصراف الناس كافة عنه . ومع أن هذا العلم عاش نحو ألف عام فانه لا يمارى أحد اليوم أنه كان ضلالا كله من أوله إلى آخره . أما العلم الآخر وهو التحليل النفسى فهو علم حديث جدا وله أنصار عديدون ، وعلماؤه لايشكون فى صحة الأسس التى قام عليها وفى صواب نظرياته . ودليلهم على ذلك مجموعة كبيرة من النتائج وصلوا إليها وحققوا بها الشفاء لكثيرين من المرضى . وليس من السهل أن نتبين اليوم أضلال هذا العلم أم هو علم حق ، فالزمن وحده قادر على إثبات ذلك .

على أنه يخيل إلىّ أن هناك تشابهاً كبيراً بين هذين العلمين ، وأن العلم الحديث سيصيبه ما أصاب أخاه من قبل ، ولن يمر وقت طويل حتى ينصرف الناس عنه ، ولن يعصمه من ذلك إيمان علمائه به ؛ فقد آمن علماء الكيمياء القديمة بها إيماناً تاما وساقوا الأدلة العديدة على صحتها ، ولم يكن يخطر ببالهم أن الزمن سيثبت أن علمهم لم يكن له أى نصيب من الحق .

هذه الدعوى الجريئة التى أتقدم بها تقوم على اعتبارات عدة ، أهمها عندى المطابقة التامة بين العلمين من حيث أن كليهما نتيجة لاستعمال طريقة بحث معينة فى مجال لا تصلح له ولا يصلح لها ، وأن كلا العلمين لا يخرج عن أن يكون مجموعة أخيلة وتصورات اخترعت اختراعاً لتفسير وقائع ينقصنا كل ما يجب أن نعلمه عن طبيعتها ، وكلاهما لا يصف الواقع و إنما يصوره ؛ ثم إن الغموض من أخص صفاتهما مما جعلهما من الصعوبة بمكان ، على حين أن العلم الحق يكون دائماً واضحاً صريحاً .

استعمل الكيميائيون القدماء طريقة الاستنتاج والمنطق فى فهم طبائع الأشياء وسنن الكون، وهى لا تصلح لهذ النوع من البحث، إنما يصلح لذلك طريقة العلم التجريبى ولم تكن قد استكشفت حينذاك . ولذلك حاول علماء التحليل النفسى أن يطبقوا المنطق التحليلى الحديث فى فهم معميات النفس، وهو أيضاً لا يصلح لذلك، بل لا بد لفهم طبيعة النفس من طريقة بحث أخرى غير المنطق التحليلى والتجارب، وهو ما لم توفق له بعد . فعلم التحليل النفسى محاولة لفهم شئ بطريقة بحث لا تجدى . مثله فى ذلك مثل الكيمياء القديمة سواء بسواء .

وتفصيل ذلك فيما يتعلق بالكيمياء أنها نشأت بعد أن أتقن الفلاسفة طريقة الاستنتاج والمنطق إتقاناً حسبوه أماناً من كل خطأ وغرهم ما وفقوا له من النجاح فى بحث العلوم النظرية المحضة، فخيل إليهم أنه ما دامت قواعد المنطق سليمة فكل بحث لا بد يؤدى إلى الحق . ولما اشتد ساعدهم حاولوا أن يتبينوا حقيقة الكون بهذه الوسيلة، ولم يكونوا ليعلموا أن هذه الطريقة لا يمكن أن تؤدى إلى غايتهم التى ينشدونها .

وإذا حاولنا أن نتبين القواعد التى بنوا عليها علمهم العجيب وجدنا أن الضلال لم يكن نتيجة خطأ فى المنطق، وإنما كان نتيجة لتطبيق المنطق البحت على مالا يصلح له . وأبسط نظرياته فى طبائع الأشياء يمكن تلخيصها فيما يأتى : عناصر الكون أربعة : نار وهواء وأرض وماء . وخواص الأشياء أربعة : اليبس والرطوبة والحرارة والبرودة، والأجسام عبارة عن جوهر وخاصتين ؛ فالنار حرارة ويبوسة وجوهر، والهواء حرارة ورطوبة وجوهر، والماء رطوبة وبرودة وجوهر، والأرض برودة ويبوسة وجوهر، والجوهر واحد فى الأشياء كلها، إنما تتنوع الأشياء بتنوع صفاتها . ثم فرضوا أن الجسم الرطب من الخارج لا بد أن يكون يابساً من الداخل (وإلا اختل توازنه)، والجسم الحار من الخارج بارد من الداخل . ويقول جابر بن حيان بعد شرح ذلك إنك إذا بلغت بحسن التدبير إلى خلاص البرودة والرطوبة والحرارة واليبوسة مفردات كان مقامها مقام الحرارة الأولى (أى عند بدء الخليقة) وأمكن بذلك أن تتعلق هذه المفردات بالجوهر، ويمكنك أن تركب بعدئذ ما تشاء . ويقول جابر (فيما ينسب إليه) : إذا أردت أن تجعل من الفضة وهى باردة يابسة من الخارج ذهباً وهو حار رطب من الخارج، فأبطن برودتها فان حرارتها (الداخلية) تظهر ثم

أبطن بعد ذلك اليبس فان الرطوبة تظهر ، وتصبح الفضة بعد أن كانت يابسة باردة رطبة حارة وبذلك تصير ذهباً ، وهى عملية عقلية بسيطة لا غبار عليها من الناحية المنطقية وإن لم يكن لها أصل من الواقع البتة .

ضل هذا العلم طريق الصواب لا لخطأ فى الاستنتاج ، ولكن لما قام عليه من فروض حسبوها بديهيات . فعلماؤه يجمعون بين فكر ناضج وعقلية راقية وعلم ضئيل جدا . وعدم التناسب بين فكرهم ومعلوماتهم هو السبب فى ما عرض للصنعة من تشويه ، فخطؤهم الأول أنه ليس فى الأجسام الطبيعية ما كانوا يبحثون عنه ، وخطؤهم الثانى عدم التناسب بين فكرهم وعلمهم ، والخطأ الثالث تجاهلهم كل ما يحد من شطط الفكر حين يطلق من كل قيد فالوضوح والدقة فى التعبير والشرح الوافى كل أولئك وسائل تجعل الفكر يقف عند حد الصواب ، أما علماء الصنعة فقد كسروا كل تلك القيود ، فأصبح الغموض شرطاً فى كل ما يكتبون ، وأصبحت الألفاظ تعنى أى شئ ، والرموز تغنى عن كل دقة فى التعبير ، وأصبح التأويل وسيلة للتخلص من كل تناقض ظاهر . بذلك ساروا فى طريق الغموض لا حبا فيه ، ولكن لأنه نتيجة حتمية للمأزق الذى وجدوا أنفسهم وأوجدوا علمهم فيه .

أما علم التحليل النفسى فيخيل إلىّ أنه يشبه أن يكون قد نشأ فى نفس الجو العقلى الذى نشأت فيه الكيمياء القديمة ، وذلك أن الطريقة التحليلية على النسق الذى رسمه ديكارت والتجربة وهما أساس العلوم الحديثة قد أصابا من النجاح ما جعلهما موضع الثقة التامة ، بل إن الحياة الحديثة وما فيها مما يبهر الناس ترجع كلها إلى التطبيق العملى لهذه الطريقة فى البحث . حتى أصبحت عند الكثيرين الطريقة الوحيدة التى تستحق العناية . والناس لا يتصورون طريقة غيرها للوصول إلى الحقيقة ؛ وهم معذورون فى هذه الثقة العمياء . أنه بلغ من تقديسهم لها أن ظنوها قادرة على حل كل معضلة علمية من أى نوع كان ، وبذلك اليقين حاولوا تطبيقها على العلوم النفسية .

والواقع أن الظواهر النفسية لا تخضع لهذه الطريقة التحليلية بسهولة ، ولم نستطع حتى الآن أن نتبين كنه هذه الظواهر ، وما دمنا جاهلين ماهيتها فليس من الممكن تحليلها . ثم إن علم فسيولوجيا المخ البشرى لا يدل على أنه من السهل تحليل الظواهر النفسية : مثال ذلك أن أجزاء كبيرة من المخ (الفص الجبهى)

الذى يظن العلماء أنه مكان التفكير والشخصية ، يمكن إزالتها دون أن يفقد الانسان شخصيته أو ذاكرته كلها أو بعضها ، وقد تتأثر الشخصية ببعض إصابات هذا الفص ، ولكنه أثر لا يدل على تخصص نوع من الخلايا بنوع معين من العمل . ولو ثبت فى الفص الجبهى أن كل جزء منه خاص بنوع من العمل ، كما هو الحال فى بعض أجزاء أخرى من المخ ، لأمكن تحليل عمليات النفس . بل هناك من الظواهر ما يدل قطعاً على أن المخ فى الجزء الخاص بالفكر البشرى لا يعمل بطريقة تحليلية ؛ فقد أجريت عمليات قطعت فيها الصلة التشريحية تماماً بين الجزء الجبهى من المخ كله وبين بقية المخ ، ولم يتغير تفكير الناس ولم يفقدوا ذاكرتهم أو عواطفهم كأن الصلة بين المخ الجبهى والجسم صلة لا علاقة لها بالاتصال المادى التشريحى ، ولعله اتصال كهربائى أو كيميائى أو — كما هو الأرجح — اتصال بطريقة لم تعلم بعد .

كل هذه الاعتبارات تجعل الباحث يتردد كثيراً فى تطبيق الطريقة التحليلية على الظواهر النفسية ، بل إن هذه الاعتبارات تجعل الانسان يكاد يجزم أن تطبيق هذه الطريقة على النفس سيؤدى إلى قيام علم لا أساس له ، كما قام علم الكيمياء كنتيجة لتطبيق طريقة الاستنتاج على الظواهر الطبيعية .

وعلم التحليل النفسى يعلق أهمية كبيرة على الأحلام ؛ فهى عند علمائه صورة لما يجرى فيما أسموه «تحت الوعى» ، وهذا أيضاً تعبير خاص بهم ، وهذه الصور التى يستخرجونها من الأحلام تدلهم على الظواهر النفسية العميقة . وخطأ هذا الفرض أنه لا دليل عليه . وذلك أن طبيعة الأحلام غير معروفة ، وطبيعة تكوينها غامضة جدا ، وقد تدل على ظواهر نفسية كما ثبت من نتائج التحليل النفسى فى حالات كثيرة ؛ على أن هذه الدلالة قد تكون نتيجة لعلاقة أخرى بين الأحلام والنفس لا يمكن تبينها الآن .

ولعل قائلا يقول إن من براهين صدق نظرية التحليل النفسى فى الأحلام ما وصلت إليه من النتائج . وهو فرض خطير جدا ، كما ظهر من تاريخ علم الكيمياء فقد وصل علماؤها قديماً إلى نتائج بتسخين الزئبق وخلطه بالمعادن لا شك فيها ، وظنوا أن وصولهم إلى هذه النتائج يثبت نظرية أن للزئبق روحا تطير بالحرارة فتصبح رماداً لا روح فيه ، وهى نظرية نعلم اليوم أنها خاطئة . فالقول بأن أى فرض يمكن أن يؤدى إلى نتائج صحيحة

فهو صحيح قول مردود عليه بتاريخ الكيمياء وهو البرهان الوحيد على أن نظرية التحليل النفسى فى الأحلام صحيحة .

ثم إن التحليل النفسى وقع فى خطأ آخر ؛ وذلك أن أساس البحث فيه أن هناك عقداً نفسية يجب علينا أن نبحث عنها إذا أردنا فهم بعض الظواهر النفسية ، وأن هذه العقد ليس عليها دليل ظاهر إلا ما تدل عليه الأحلام والخطرات العابرة التى تخطر للناس وهم يظنون أنها تخطر عفواً . ونظريتهم فى ذلك أن هناك علاقة سببية بين الأحلام والخطرات العابرة وبين العقد النفسية . فاذا أمكننا أن ندرس الأحلام استطعنا بوساطتها أن نتبين ماهية العقد النفسية . وهو فرض خاطئ ؛ فقد يكون تماثل العقد النفسية والخطرات والأحلام تماثلا عارضاً وقد لا تكون العلاقة بينها علاقة السبب بالمسبب . مثل ذلك مثل الآلة التى تخرج ضوءاً وصوتاً يمكن اتخاذ أحدهما دليلا على الآخر دون أن يكون الضوء سبباً للصوت أو الصوت سبباً للضوء ، ووجود هذه العلاقة لا يدلنا على ماهية الضوء أو الصوت . كل هذه الاعتبارات تجعل الأسس التى يقوم عليها تفسير العقد بالأحلام على فرض نجاحه أحياناً أمراً بعيداً عن أن يكون هو الواقع فعلا .

الأمر الثانى الذى يتشابه فيه علم الكيمياء القديمة وعلم التحليل النفسى هو أن كلا منهما علم لا يصف الواقع وإنما يصوره . والفرق بين الحالتين كبير كبير جداً .

ولنضرب لذلك مثلا من علم الكيمياء : نحن نعلم أن الزئبق إذا ارتفعت حرارته إلى ٣٠٠ تبخر ، وإذا ارتفعت إلى أقل من ذلك اتحد مع الأكسوجين فكون رماداً هو أكسيد الزئبق ، وأن الغبار وهو اتحاد الكبريت والزئبق إذا عرض للحرارة انفصل كل منهما وأصبح الزئبق سائلا واتحد الكبريت والأكسجين . هذا هو ما أسميه وصفاً للواقع . وهو حقيقة ، وكل هذه المواد الزئبق والكبريت والأكسجين لها وجود مستقل ويمكن إثبات الاتحاد والانفصال لأنه يحدث فعلا .

أما الكيمياء القديمة وقد شاهدت هذه الظواهر نفسها فقد وصفتها وصفاً تصويريا ، فقالوا : « أما الزئبق فلا تشد عليه النار فى أول التدبير فيفر ، أما النار الخفيفة فتجعله تزهق روحه فيستحيل رماداً ، وأن الغبار

إذا أحكمت تدبيره بالنار عادت روح الزئبق إليه » . الظواهر واحدة ، ولكن العلم الحق يصف ما يحدث ، والعلم الضال يصور ما يحدث تصويراً لا يعدو أن يكون خيالا .

وغاية التفكير فى الكيمياء القديمة هو تصور الفلوجستين ، وذلك أنه حين دلت التجارب على أن الزئبق يزيد بالوزن حين يتحول إلى رماد بالتسخين وأنه لا يفقد شيئاً ، رأوا الهروب من ذلك بفرض جديد وهو أن الزئبق يفقد الفلوجستين وهو شئ ذو وزن سلبى فاذا فقده ثقل وزنه . وهو مثل واضح من أمثلة التعسف الذى يؤدى إليه العلم التصورى بخلاف العلم الواقعى .

كذلك علم التحليل النفسى رأى الظواهر النفسية وهو لا يعلم كنهها ، ففرض وجود أشياء مثل الأيجو Ego والليبيدو Libido وصور الظواهر على أنه اصطدام بين هذه وتلك . وهو تصوير للواقع لا وصف له ، وهو أشبه الأشياء بفرض روح الزئبق لشرح تأكسده . وعلم التحليل النفسى ينقصه اكتشاف ما يقابل الأكسجين فى ظاهرة التأكسد؛ فليس الأيجو شيئاً معروفاً مستقلا له صفات نعرفه بها حين نلتقى به ولكنه مجرد فرض .

لا شك أن للنفس حياة خاصة ، وأن دراستها تحتاج إلى طريقة بحث جديدة . ولكن التحليل النفسى ليس الطريقة الجديدة المرجوة ، إنما هو تطبيق التفكير العصرى الحالى على ظواهر لا يصلح لتفسيرها .

هناك فرق كبير بين أن تصف الظاهرة وبين أن تصورها ، الأول حقيقة والثانى خيال . وقد تستعمل طريقة المشابهة لشرح بعض الظواهر الغريبة ، فتشبه بأخرى معروفة لتقربها إلى الأذهان ، على أن يظل مفهوماً أن الوصف تشبيه وليس الأمر كذلك فى هذين العلمين الضالين ؛ فهما علمان قائمان على تصوير الواقع لا على وصفه . ويمكن أن توضع للواقع صور كثيرة متنوعة ، ولكن الوصف الحقيقى لا يكون إلا واحداً .

وفى كلا العلمين غموض قد لا يشعر به المختصون ، ولكنه على الفكر العادى غموض على كل حال . والغموض صفة ملازمة لكل علم ضال . ولا أقصد بذلك الصعوبة ، فقد تكون نظرية النسبية صعبة الفهم ، ولكن ذلك يرجع إلى أن فهمها يحتاج إلى مقدمات رياضية عالية ، وهذا لا يسمى غموضاً ؛ وكذلك غموض الصوفية لا يدل على ضلالها لأنها ليست علماً . والعلم لا يكون غامضاً

إلا أن يكون به عيب من خطأ أو قصور . ويرجع غموض الكيمياء القديمة إلى قصور الصور التى تخيلها علماؤها عن أن تحيط بطبائع الأشياء كلها ، فاضطروا إلى جعل صورهم قابلة للتأويل وحشوها بالرموز وأصبحت الكلمات لا تعنى شيئاً معيناً بل قد تعنى كل شئ . ووصف الإكسير أوصافاً عدة منها ماهو مادى محض ومنها ماهو معنوى ، فقالوا إنه الماء الصافى وقالوا إنه الروح ، وإنه الصبغ وإنه الإدام ، ونسبوا إليه قوى ترفعه إلى ما يشبه قوة الخلق . كذلك فعل علماء تحليل النفس فى وصفهم الليبدو؛ فقد جعلوا منه مفتاح كل الحركات النفسية فهو المحرك للانسان ، وهو الذى يوجهه الوجهة التى يريدها ؛ وهو الذى يضل الناس أو يهديهم ، إما إلى النجاح وإما إلى المرض ، وهو أصل العقد النفسية ، إلى غير ذلك مما يكاد يجعله فى قوة الأكسير . فان أردت له تعريفاً جامعاً ووجوداً مستقلا لم تجد إلا فرضاً اختراعاً ليسهل فهم بعض الظواهر النفسية دون أن يكون على وجوده برهان .

وإذا استعرنا التعبير لمذهب الوجودية وجدنا أن عيب هذين العلمين ، هى أنهما فرضا خواص الأشياء قبل وجودها ، والعلم الصحيح يجب أن يثبت وجود الشئ قبل أن يتعمق بحث خواصه .

ولعلنا إذا وفقنا لمعرفة القيمة الحقيقية للتحليل النفسى أن نفتح الطريق للباحثين فى علم النفس ألا يركنوا إليه ، بل عليهم أن يلتمسوا طريقة جديدة فى البحث النفسى وفهماً جديداً لظواهرها ، كما حدث فى علم الكيمياء حين لم يتبين الحق فى هذا العلم إلا يوم اكتشفت طريقة التجربة والمنطق التحليلى . وعند ذلك تصبح العلوم النفسية علوماً حقة غير ضالة . ولا أظن أن التحليل النفسى سيستطيع أن يصل بنا يوماً إلى هذه الغاية .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب

حيرة شاعر

أوكلما ألقيت يأسى جانباً ... وسعدت بالأمل الجنىّ رطيبا
ودفنت آلامى بصحراء الأسى ... ورجعت أبتدر الحياة طروبا
عصف الزمان ببهجتى! فرأيتها ... تمضى ، وتترك فى الفؤاد لهيبا
ومشى على قلبى ، وملء جوانحى ... يحيى جراحا فى الحشا وندوبا
وأحال أيامى قصيدة شاعر ... عرف الحياة كآبة ونحيبا
فأتيت آلامى بصحراء الأسى ... قهراً ، كما يثب الطريد وثوبا
ورجعت لليأس القديم ، ولم يكد ... قلبى يخف إلى الرجاء قشيبا
وسمعت وقع خطا الكآبة حينما ... راحت على قلبى تدب دبيبا
ماذا على الناس الذين أحبهم ... ألا يضيعوا شاعراً موهوبا
ماذا عليهم أن أعيش كما اشتهت ... نفسى ، فأملأ عالمى تطريبا
هم نصّبوا حولى الشباك ، وصوبوا ... نحوى السهام ، فأحكموا التصويبا
ورموا ، فلما أبصروا دم مهجتى ... يجرى صبيبا يستحث صبيبا
فزعوا ، ونادوا بالطبيب، وهل يرى ... جان ينادى للمصاب طبيبا
لو أنصفوا لجرت حياتى نسمة ... نشوى تناجى زهرها المحبوبا
ولغردت أطيار عمرى بالهوى ... فشفى الغناء جوانحاً وقلوبا
أنا لا أريد سوى الهدوء ، فما لهم ... ملأوا حياتى ضجة ونعيبا
أو ما كفاهم أن أعيش مضيعا ... جهدى ؛ لأنى ما وجدت حبيبا

سأمان ، أحمل يأس عمرى كله ! ... حيران ، أصحب قلبى المكروبا
ولقد وددت — وليت ذلك كائن — ... لو كان يأسى بالرجاء مشوبا
أو ما كفاهم أن أضم على الأسى ... قلبى ، وأخفى دمعى المسكوبا
أو ما كفاهم — ويحهم — ألا أرى ... أملا ينور أفقى المرقوبا
أمشى إليه على القتاد ، فإن شكت ... قدمى ، مشيت على اللظى مشبوبا
ولقد تعذبنى الحياة بنارها ... فأبارك النيران والتعذيبا
إنى الشهيد ! وإن قومى ما رعوا ... هذا الشهيد الضائع المنكوبا
جهلوا عذابى كله ومواهبى ... لم يرهبوا لوماً ولا تثريبا
لو كان قلبى يستحل فراقهم ... أو كان يدفع بالذنوب ذنوبا
لشفيت نفسى ، أو تركت جوارهم ... وقضيت أيام الحياة غريبا
لكنهم قومى — على علاتهم — ... من ذا يضيع قرابة وقريبا
صبراً فؤادى حيث كنت ، وإن همو ... قد حملوك على الخطوب خطوبا
إن الحياة —على اختلاف وجوهها— ... سهم يصوبه القضاء مصيبا

ابراهيم محمد نجا

قصة الموريسكيين

ثغرة فى الرواية العربيـــة

يتبدى لنا تاريخ الأندلس فى مراحله الأخيرة ، ولا سيما مذ أخذت مملكة غرناطة آخر الممالك الاسلامية فى أسبانيا تنحدر إلى هاوية الانحلال ، فى صور مضطربة جافة ينقصها التفصيل والوضوح . فاذا انتهينا بعد سقوط غرناطة إلى المرحلة الختامية تبدت لنا قصة الأمة الأندلسية المغلوبة فى صور قاتمة تزداد حلكا على مر الزمن حتى تغيض فى النهاية فى عالم النسيان والعدم .

على أننا نستطيع خلال هذا الحلك الذى يكتنف نهاية الأمة الأندلسية أن نستعرض فى جلاء ووضوح صور ذلك الاستشهاد الطويل المؤثر الذى لبثت تعانيه أكثر من قرن من الزمان . ذلك أن ظفر أسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة وسحق دولة الاسلام فى الأندلس لم يكن سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية . ولم يكن فقد السيادة القومية وفقد الاستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد عدوها الظافر . أجل ! كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال سلطانهم من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . وهى مأساة لا تحتل مع شديد الأسف مكانها الحق فى الرواية الاسلامية ، بل إن الرواية الاسلامية تعرض لنا فى هذا الموطن ثغرة لا تكاد تتخللها سوى شذور ولمحات يسيرة . وهى على وجه العموم مقلة ضنينة فى مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة . ولم ينته إلينا فى هذا الموطن سوى رواية إسلامية واحدة تضمنها سفر صغير هو

كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر »[1] وهى رواية تتناول حوادث سقوط غرناطة (١٤٨٧—١٤٩٢ م) وحوادث التنصير الأولى التى وقعت بعد التسليم بفترة يسيرة ، كتبها فى سنة ٩٤٧ هـ (١٥٤٠ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً مؤلف مجهول ربما كان من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى سريرتهم. وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة ومأساة العرب المتنصرين . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة سوى رسائل وشذور وقصائد متناثرة نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ومعظمها مما كتبه أو نظمه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الاسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أن فى عصور الانحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية وتقل العناية بالتدوين التاريخى كما تقل فى جميع نواحى التفكير والأدب . ولدينا فى ذلك مثل بارز فى تاريخ مصر الاسلامية هو ضآلة المؤلفات والوثائق التاريخية التى انتهت إلينا عن العصر التركى وهو عصر انحلال فكرى واجتماعى مطبق . وقد كان هذا العامل أشد بروزاً فى المأساة الأندلسية حيث لم تجد الأمة الشهيدة التى صفدت بأشنع الفروض والأغلال ، وأرغمت على نبذ دينها ولغتها ، متسعاً من الوقت أو التفكير لتدوين محنتها وآلامها ، بل لم يكن ليسمح لها بأن تلجأ إلى مثل هذا التنفس الخطر . والعامل الثانى هو ما نرجحه من فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت عن المأساة فى هذا الوقت ، ووضعها على الأغلب نفر من الأندلسيين النازحين إلى المغرب بعد سقوط غرناطة أو بعض الكتاب المغاربة الذين كانت لهم بالأمة المغلوبة أو باللاجئين منها بعض الصلات . وهذا التراث الضائع هو الذى يلوح لنا أن المقرى وقف عليه وانتفع ببعض مخلفاته مما كان موجوداً منه فى عصره ،

---

(١) بنو نصر أو بنو الأحمر ملوك غرناطة هم آخر أسرة ملوكية أندلسية . وقد وجدت من هذا السفر نسخة وحيدة فى مكتبة الاسكوريال قام بتحقيقها ونشرها المستشرق الألمانى يوسف ميلر (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية .

أعنى القرن السابع عشر ، فنقل إلينا منه بعض الرسائل والشذور والقصائد .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية تشغل بالعكس فى تاريخ أسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن ونصف ، وتخصه الرواية الأسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الأسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الاستشهاد المفجع الذى فرضته أسبانيا على الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وإلى تلك الآثام المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التى اتخذت لتشريد الموريسكيين وإبادتهم بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى وتطهيراً للدين والوطن من آثار العدو المغير وآثار تراثه الروحى والاجتماعى . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ أسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحماسية التى تشيد بظفر أسبانيا النصرانية وبما أسبغته العناية الالهية على خطتها وسياستها فى إبادة الأمة الأندلسية ثم العرب المتنصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الاسلامية المجيدة التى ازدهرت فى أسبانيا ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها وكل ذلك التراث الباهر . على أن الرواية الأسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر ، وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها وعن تراثها القومى والروحى .

وليس تاريخ الموريسكيين قصة عادية لشعب مغلوب بل هى قصة العهود المنتهكة والنكث المدبر ، وقصة التعصب القومى والدينى المضطرم ، وهى أخيراً نضال الضعيف المكلوم ، ولكن الأبى الباسل ضد قوى جرارة لا قبل له بمغالبتها ، ولكنه يتفانى فى صراعها حتى تصرعه وتقضى عليه شهيداً كريماً .

كانت الأمة الأندلسية حينما سقطت غرناطة حصنها الأخير فى يد الأسبان وقضى عليها بالغلبة والذلة السياسية زهاء ثلاثة ملايين من الأنفس تحتشد فى رقعة ضيقة ولكن نضرة زاهرة فيما بين نهر شنيل والبحر وتشمل عدا غرناطة

---

(١) هى المعروفة خطأ بمحاكم التفتيش Inquisition .

عدة من القواعد والثغور مثل وادى آش وبسطة والمرية ومالقة ، وكانت معاهدة التسليم التى عقدها أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس مع الملكين الظافرين فرديناند وزوجه إيزابيلا تكفل للأمة المغلوبة ضمانات مؤكدة بتأمين النفس والمال والعرض ، واحترام الدين والشعائر القومية ، والابقاء على شريعتهم ومساجدهم ، وعدم إرغامهم على التنصير ، وأن يجوز منهم إلى بلاد المغرب من شاء ، وألا يعرضوا على العموم لأية فروض أو قيود تحد من حرياتهم أومعتقداتهم أو تسئ إلى كرامتهم . وتضم معاهدة التسليم زهاء ستين شرطاً تدل فى روحها وتفاصيلها على ما كان يخالج الأمة المغلوبة من ضروب الريب والتوجس فى نيات سادتها الجدد .

والواقع أنه لم تمض أعوام قلائل حتى حدث ما توقعته الأمة المغلوبة من نكث وانتهاك للعهود المقطوعة ، وكانت السياسة الاسبانية يذكيها وحى الأحبار المضطرم ، ترى أنه لا بد لتحقيق ظفرها الكامل أن تسحق الآثار الأخيرة للاسلام وأن تمحى الخواص والتقاليد القومية للشعب المغلوب . فبدأت بتحوير نصوص ، المعاهدة ، والتنكر للمسلمين واضطهادهم . وفى سنة ١٤٩٩ اتخذت الاجراءات العنيفة الأولى لتنصير المسلمين على يد الكردينال كنيس مطران طليطلة ، ولم تدخر القوة وسعاً فى تنفيذ مأربها ، وأرغمت جموع كبيرة من أهل غرناطة على نبذ دينهاواعتناق النصرانية ، وحملت المحنة والتعلق بالوطن وهموم الأسرة والابقاء على الأهل والولد كثيراً من الأعيان والفقهاء على اعتناق الدين الجديد . وأتبع الكردينال ظفره بجمع الكتب العربية والمصاحف وحرقها فى ساحة غرناطة ليقضى على علوم الأمة المغلوبة وتراثها الروحى والعقلى ، وخرجت الأمة الأندلسية من هذه المحنة المؤلمة باسم جديد هو أمة الموريسكيين Moriscos أو العرب الأصاغر أو العرب المتنصرون .

وعملت السياسة الاسبانية فى الوقت نفسه على إنشاء ديوان التحقيق Inquisition فى غرناطة . وقد كانت هذه المحاكم الكنسية المروعة تعمل من قبل فى أشبيلية وغيرها لمطاردة اليهود وأهل الزيغ ، فألفت فى الموريسكيين فرائسها الجدد مرتعاً خصباً لنشاطها الرهيب ، وكانت تأخذ أولئك المتنصرين الأحداث بأتفه الشبه التى يمكن تصورها ، فاذا امتدح الموريسكى دين محمد أو باشر بعض عوائده القديمة كالاحتفال بيوم الجمعة أو التحدث باسم الله

أو إذا سمى أولاده بأسماء عربية ، أو صام رمضان ، أو امتنع عن أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر ، أو ركع أو سجد ، أو أنشد الأناشيد العربية أو خضبت المرأة يديها أو شعرها ، أو غير ذلك من الشبه المماثلة اعتبر مرتدا كافراً ، وعوقب بعقوبات شنيعة تصل إلى حد الموت والمصادرة ، هذا فضلا عما يكتنف المحاكمة من إجراءات التعذيب المروعة ، وهى إجراءات لا يتسع المقام لشرحها (١) .

وتجهم الأفق حول الموريسكيين شيئاً فشيئاً وتتابعت التشريعات والقوانين المرهقة ، فعليهم أن يسكنوا فى أحياء خاصة لا يتعدونها على نحو ما كان يلزم اليهود بالسكنى فى « الجيتو » ، وعلى كل مسلم بقى على دينه أن يبادر إلى التنصير فى ظرف ثلاثة أشهر أو يترك الأرض الاسبانية تاركا أملاكه للدولة ، وعليهم ألا يحملوا السلاح وإلا عوقب المخالفون بأشد العقوبات . ولم تكن هذه القوانين المرهقة تلقى دائماً من الموريسكيين قبولا سهلا بل كانت منهم جماعات كثيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرهما تجنح إلى المقاومة والثورة . وكانت ثورتهم الأولى فى سنة ١٥٠١ فى مفاوز البشرات وفيها قتلوا جمعاً كبيراً من الاسبان وقائدهم الدوق آجيلار ، واضطرت الحكومة الاسبانية أن تصدر لهم عفواً . بيد أنها اتخذت هذه المقاومة ذريعة للتشدد فى معاملة الموريسكيين واعتبارهم خونة مارقين ، واعتبر التنصير أقل ما يجب فرضه عليهم . وأقر مجلس الدولة فى عهد الامبراطور شارلكان هذه النظرية وصدرت على أثر ذلك عدة قوانين جديدة حرم فيها على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة ، وحرم عليهم فى بلنسية حمل السلاح ، وألزموا بتغيير الثياب العربية ، على أن هذه القوانين المرهقة طبقت مدى حين فى نوع من الرفق والتساهل .

فلما كان عهد ولده فيليب الثانى ، كان التنصير قد عم المسلمين ، وأصبحوا يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية ، ولكنهم مع ذلك لم يحظوا بعطف الحكومة الاسبانية ، ولم يحظوا بالأخص بعطف الكنيسة التى أبت بعد إرغامهم على اعتناق مذهبها أن تضمهم إلى حظيرتها . وكان فيليب الثانى ملكا شديد التعصب يقع تحت تأثير الأحبار ونصحهم ، فهبت فى عهده على الموريسكيين ريح شديدة

---

(١) تناولت فى كتابى ديوانى التحقيق والمحاكمات الكبرى ، دستور هذه المحاكم الشهيرة واجراءاتها فى التحقيق والتعذيب والمحاكمة بتفصيل واف .

من الارهاق والتعصب ، وأحييت القوانين القديمة وصدرت قوانين جديدة تحرم عليهم حمل السلاح وتمنعهم من التخاطب بالعربية أو التعامل بها بعد مرور ثلاثة أعوام ، وتحرم عليهم قراءة الكتب والأوراق العربية ، وتلزمهم بترك الثياب العربية وارتداء الثياب الأوربية ، وتلزم نساءهم بترك الحجاب وارتداء الثياب المكشوفة ، وتحريم الخضاب وتحريم الأناشيد العربية ، وبفتح المنازل أثناء المآدب والاحتفالات للتحقق من أنها لا تجرى وفقاً للتقاليد العربية ، وغير ذلك بما يقصد به إلى القضاء الأخير على البقية الباقية من خواص الأمة المغلوبة وتقاليدها .

وكان هذا أشد ما تحتمل الطاقة البشرية . وكانت ثمة جذوة أخيرة ما زالت تتقد فى نفوس هذا الشعب الأبى التالد الذى حطمته الخطوب والرزايا . وكان صدور القوانين الجديدة وما بدا من تشدد فى تطبيقها نذيراً بانفجار جديد يذكيه اليأس المطبق ، فاضطرمت غرناطة بثورة جديدة عامة ، وبرز من بين الصفوف فتى يفيض حماسة وإقداماً هو فرديناندو دى فالور . وكان هذا الاسم القشتالى يحجب نسبة عربية ملوكية ؛ فقد كان هذا الزعيم الفتى ينتمى إلى بنى أمية خلفاء الأندلس القدماء ، ومن ثم فقد تسمى بمحمد بن أمية وبادر بالنزوح مع جماعة كبيرة من أنصاره إلى وادى آش وهنالك استعصم بشعب البشرات وأعلن الثورة (سنة ١٥٦٨) وفتك الموريسكيون بالجند الاسبان الذين تصدوا لمطاردتهم وفتك الاسبان فى غرناطة بالنساء والأطفال ، وتفاقمت الحوادث وتكررت المعارك فى أنحاء البشرات وفى غرناطة ، وندب فيليب الثانى أخاه الدون خوان على رأس قوة كبيرة لإخماد الثورة ، ولكنها استمرت فى تفاقمها وهلك من الفريقين عدد جم ، كل ذلك ومحمد بن أمية معتصم بقواته فى شعب البشرات يغير هنا وهنالك على القرى والمحلات المجاورة ، ويفتك جنده بالاسبان وعمال الحكومة ، ثم قتل محمد غيلة وخلفه فى الرياسة قريبه مولاى عبد الله ، واستمرت المقاومة حيناً حتى نضب معين الثوار وساءت حالتهم ، وهنا قتل مولاى عبد الله أيضاً وانهارت الثورة الموريسكية على أثر ذلك وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وأصدر فيليب الثانى قانوناً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية .

وقضت المشانق ومحارق ديوان التحقيق والمحن المتوالية على كل نزعة إلى الخروج

والنضال ، وهاجر كثير من الموريسكيين إلى بلاد المغرب فى ظروف مؤثرة . وهبت فى النهاية ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ولا تقوم لهم قائمة فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى .

وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت بعد هذه المحن المتوالية وهذا النضال المضنى إلى جماعات مهيضة ممزقة تحتشد فى بعض القواعد الجنوبية وفى بلنسية بالأخص . وكانت للموريسكيين صلات وعلائق خفية مستمرة باخوانهم فى المغرب ، وكانوا يتوقون إلى مغادرة هذا الجحيم إلى ما وراء البحر ، ولكن الحكومة الاسبانية لبثت عصراً تحول دون هذه الأمنية ما استطاعت ، وكانت ثمة ظاهرة مزعجة تحفزها إلى حجز الموريسكيين والتشدد فى مراقبتهم ، تلك هى الغارات البحرية على الشواطئ الاسبانية ، وهى غارات قام بتنظيمها أكابر البحارة الترك مثل الأخوين أوزوج وخير الدين وطرغود ، وكان قوامها جماعات من المجاهدين المغاربة أو الموريسكيين الفارين ، وكانت السفن المغيرة تنقض على الشواطئ الاسبانية ما بين آن وآخر تحت جنح الليل تختطف جماعات كبيرة من الموريسكيين وكذلك الاسبان ، وكان الموريسكيون فى الثغور ولا سيما فى بلنسية يمدونها بالتوجه والارشاد . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر ، وكانت تمثل بالأخص انتقام الموريسكيين وزملائهم المجاهدين المسلمين لما حل بالأمة الأندلسية من شنيع الظلم والاضطهاد . وانتهت السياسة الاسبانية إلى أن تعتبر الموريسكيين عنصراً خطراً على سلامتها يأتمر مع العدو ويجب التحوط منه والقضاء عليه . وكانت الحكومة تفكر منذ أيام فيليب الثانى فى مشروع ضخم تتخلص به أسبانيا من هذا العنصر الخطر . ففى أوائل عهد فيليب الثالث عكفت السياسة الاسبانية على وضع خطتها النهائية للتخلص من الموريسكيين بقايا الأمة الأندلسية ، وانتهت بعد طول البحث والجدل إلى اتخاذ خطوتها الشهيرة بنفى الموريسكيين و إجلائهم عن سائر الأراضى الاسبانية ، وأعلن مرسوم النفى النهائى فى سبتمبر سنة ١٦٠٩ واتخذ المرسوم سنده فى خيانة الموريسكيين واتصالهم بأعداء أسبانيا ، ووضعت إجراءات شاملة للنفى وتصفية المسائل المتعلقة به من شخصية ومالية ، وحددت مدد ضئيلة لانتقال الموريسكيين

إلى الثغور التى ينتقلون منها . وحشد الموريسكيون جماعات ممزقة دامية فى مختلف الثغور الاسبانية ، وحملوا فى مناظر مؤثرة مؤلمة إلى ثغور المغرب ، وسارت منهم جماعات أخرى إلى ثغور فرنسا و إيطاليا وهلك منهم ألوف فى السفن وعلى الشواطئ التى ألقوا فيها ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ، وسارت منهم جماعات إلى مصر وقسطنطينية ، واستقر معظم الناجين فى ثغور المغرب وعاد معظمهم إلى دين الآباء والأجداد . وبذلك ينتهى الفصل الأخير فى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتغيض البقية الباقية من الأمة الأندلسية وتطوى إلى الأبد صفحة شعب من أنبل وأمجد شعوب التاريخ .

تلك هى قصة الموريسكيين التى ينفطر لها الفؤاد أسى والتى تملأ أكثر من مائة عام من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومع ذلك فهى قصة مطوية منسية فى الرواية العربية .

وقد أثارت قصة الموريسكيين عطف العالم الغربى وكثرت حولها الآراء والتعليقات فى المؤلفات الغربية ، ويكاد البحث الحديث يجمع على أن إبادة الأمة الموريسكية كان ضربة أليمة لعظمة أسبانيا ورخائها ، وأن أسبانيا الحديثة لم تنهض من هذه الضربة قط . وهو رأى يؤيده كثير من المؤرخين والمفكرين الاسبان أنفسهم .

محمد عبد الله عنان

فلسفة للحياة وديانة للضمير

نعيش فى ضوضاء تلهينا عن الفلسفة ، أى تلهينا عن الدين . لأن الفلسفة هى الدين . والرجل العصرى الذى يدرس الفلسفات والأديان بروح المتعلم يجد بينهما اختلاطاً يشبه الاندغام . وذلك لأن قضية الدين هى نفسها قضية الفلسفة ، وهى : كيف نفكر التفكير السليم ونعيش العيشة الطيبة . ومقاييس الدين هى فى النهاية مقاييس الفلسفة ، كما نرى مثلا فى كلمة برنارد شو : إن الرجل الطيب هو الذى يعطى الدنيا أكثر مما يأخذ منها . أى إن الدنيا تجد بعد انقضاء عمره أنها كسبت به ولم تخسر ، وأنفقت عليه أقل مما ترك لها . وهذا الذى تركه لها قد يكون حكمة أو قدوة أو علما أو اختراعاً أو زيادة فى الثروة أو الخير أو السلام .

وهذا المقياس فلسفى دينى . ولذلك حين أتحدث عن فلسفة الحياة التى أعيش بها هذه الأيام وأنا فى الستين أو حواليها ، أجد أنها مزيج من الفلسفات والأديان . وصحيح أن الدين يطالبنا بالتسليم ، والفلسفة تطالبنا بالمنطق ، ولكن ليست هذه الحال دائمة أو واضحة الحدود ؛ فان فى الدين منطقاً كما أن فى الفلسفة تسليما فى بعض الأحوال .

وقد يقال أيضاً إن فى الدين غيبيات وليس فى الفلسفة غيبيات . ولكن هل هذا صحيح ؟ ألسنا نقف مع أينشتين أو غيره إزاء غيبيات علمية حين يتحدثون عن الكون المتمدد الذى يدأب فى الاتساع فى الخواء ؟

إنى أذكر ، أنى حين كنت فى حمى المراهقة ، شرعت أسائل وأشك فى الغيبيات المألوفة . ولم تزدنى السنون من ذلك الوقت إلا يقيناً بالانكار . ثم تطورت الفكرة الدينية عندى أو انتقلت من التسليم بالغيبيات إلى الايمان بالقيمة الاجتماعية للدين أو الفلسفة و إلى تربية الضمير ، حتى تتغلب ، فى اللغة السيكلوجية ، الذات العليا على الذاتين الاجتماعية والحيوانية ، أى تتغلب القيم البشرية على القيم الاجتماعية والمادية .

وليس من السهل أن يكشف الانسان عن ضميره الدينى كيف تكوّن ثم نما ثم تبلور فى قليل من الاتجاهات الأخلاقية الرئيسية ثم تجوهر فى اتجاه مفرد يجذب إليه كل مافى الشخصية من نشاط روحى . ولكنى أذكر أنى وأنا دون العشرين أحسست أن نظرية التطور تأخذ مكاناً دينيا فى نفسى ، وأنها قد حملتنى واجباً روحيا . وقد نما هذا الواجب فى نفسى إلى واجبات . ذلك أن آفاق الحياة لم تتسع فقط بنظرية التطور ، بل زادت فى العدد واللون ، كما شسع بها تاريخ البشرية شسوعاً عظيما . ذلك أننا قد فهمنا من هذه النظرية أن كل حى على هذه الأرض لا يقل عمره عن ألف مليون سنة . لأن كل إنسان قد كان فى وقت ما طينة نبضت بالحياة ، فاذا به فيروس ، ثم أميبة مفردة ، ثم أميبات متصلة متعاونة ، ثم حيوان رخو بلا رأس ، ثم سمك ، ثم زاحفة ، ثم حيوان لبون ، ثم قرد ، ثم إنسان . ثم هذا الانسان سوف يكون سبرمانا .

فهنا قرابة تطورية بيننا وبين الحيوان . وفى هذا معنى دينى جليل ؛ لأننا والأسود والكلاب والقياطس والسمك أبناء عمومة ، وكلنا قد قطعنا هلى هذا الكوكب نحو ألف مليون سنة . وقد انقرض بعضنا وبقى بعضنا الآخر . ولكن مع هذا الانقراض والبقاء يتجه التطور فى مجموعه نحو ما نفهم من الرقى البشرى : وجدان موضوعى يأخذ مكان العواطف الذاتية ، أى عقل يسمو على الغرائز . وإذن نجد أن للرقى البشرى أساساً طبيعياً . بل إن هذا الرقى مفروض علينا واجب حتم بل واجب دينى بحيث يتطور الفرد وتتطور الأمة وتتطور الدنيا . ومن يعارض التطور ويدعو إلى الجمود يكفر لأنه يعارض الدين . وليس التطور كله منطقاً نستطيع أن نقيم عليه البرهان الناصع لأن فيه كثيراً من التسليم . ومن هنا كانت المشابهة بينه وبين العقائد الدينية . وليس من الضرورى ، كى يكون لنا دين أو ضمير دينى ، أن نؤمن بالغيبيات ؛ لأن المعارف العلمية فى أيامنا تكسبنا نزعات دينية . فهناك رجال الثورة الفرنسية مثلا . فقد اشتطوا وألغوا الديانة المسيحية ، وأسسوا ما أسموه « ديانة العقل » . والانسان العادى حين يقرأ تاريخهم ويصفهم الوصف المألوف يقول إنهم « كفرة » ولكنا عندما نتأمل سلوكهم نجد أنهم كانوا مسوقين بروح دينى ، بل أكثر من هذا بعقائد دينية . وهنا تعجبنى كلمة قالها ماتزينى الوطنى الايطالى : « ليس

هناك انتصار للروح البشرى أو خطوة ارتقائية للمجتمع البشرى إلا ومرجعهما عقيدة دينية راسخة » .

وفى سنى أجد أن مصادر دياتتى ، أو بالأحرى ضميرى الدينى ، إلى جنب البوذية والاسلام والمسيحية واليهودية والهندوكية ، تعود فى كثير من النور الذى أهتدى به إلى السيكلوجية والبيولوجية والأنثربولوجية والتاريخ . فان هذه العلوم قد أفدت منها مغزى المأساة البشرية ، مأساة ماضينا وحاضرنا وآمالنا فى المستقبل . ولذلك كانت دياتتى موضوعية منطقية لا ذاتية عقيدية فقط .

ومع أنى نشأت فى المسيحية واحتضنتنى الكنيسة أيام طفولتى وصباى فانها كانت فى تلك السنين الأولى من عمرى فى جمود لا يحمل على الحماسة أو يبعث الولاء أو يربى الضمير . وليس شك أن الكنيسة القبطية قد نهضت هذه الأيام ، وهى الآن غير ما كانت عليه قبل خمسين سنة .

وقد تغير إحساسى نحوها تغيرات مختلفة ؛ فقد عزفت عنها أيام الشباب لأن وطأة العلوم العصرية كانت شديدة على نفسى ، ثم عدت إليها فى حنان فوجدت فيها تاريخنا المعذب الممزق ، ووجدت صوت الفراعنة ينطق عالياً من منابرها ، فأصبحت الكنيسة القبطية عندى كنيسة قومية مصرية . ولكن لم يكن هنا دين إذ كان كل هذا إحساساً تاريخيا .

أجل ! قد يقال هذا القول ، وأنا أسلم بصحته إلى حد ما . ولكن الاحساس التاريخى ينطوى أيضاً على إحساس دينى . ولست أشك أنى حين انكببت على دراسة الفراعنة ، إنما كنت أنبعث بروح دينى قومى . والدراسة الصحيحة للتاريخ يجب أن تكون موضوعية علمية كما يدرس أى علم . ولكن قلما نستطيع ذلك إذا كنا ندرس تاريخنا القومى .

وقد عرفت حوالى ١٩٣٥ المرحوم كامل غبريال باشا ، وكان قد درس اللغة القبطية والفرعونية ، وحاول أن يحملنى على درسهما . ولكن سنى المتقدمة حالت دون ذلك . وقد نهضت هذه اللغة فى بعض الأوساط القبطية ، ولكنها لم تبلغ المكانة التى بلغتها اللغة العبرية بين اليهود ، أى أن تصير لغة التخاطب والتفاهم بل التأليف . فان اليهود الصهيونيين قد انقلبوا إلى عبرانيين وأحيوا لغتهم التى كانت قد انقرضت حتى فى أيام المسيح . وظنى أنهم يخسرون بذلك ؛ لأن هذه اللغة لن تتسع للثقافة العصرية . كما أن الأرلنديين الوطنيين قد خسروا أيضاً

باحياء لغتهم القديمة ؛ لأن اللغة الانجليزية خير لهم ، ولو أنها لغة الفاتحين الغاصبين ، من لغتهم التى لن تتسع للثقافة العصرية .

وما زلت أذكر الأثر السيكلوجى فى صديقى كامل غبريال باشا؛ فانه لتعلقه بلغة الفراعنة صد عن المسيحية باعتبارها ديانة أجنبية قد طردت الديانة المصرية القومية . وكان كثيراً ما يعقد المقارنات بين عقائد الكتاب المقدس (التوراة والانجيل) وبين عقائد الفراعنة ، كى يقنعنى بأفضلية الثانية على الأولى من حيث الأخلاق السامية والقيم البشرية العالية .

وقد كان أثر العقليين كبيراً جدا فى نفسى ؛ حتى إنى لخصت أحد الكتب التى كانوا ينشرونها وهى « نشوء فكرة الله » لجرانت ألين ، وأصدرت هذا التلخيص فى نحو ثلاثين أو أربعين صفحة فى مصر حوالى ١٩١٢ . ويرى القراء هذا الكتيب ضمن كتابى « اليوم والغد » . وقد كان هدف المؤلف أن يثبت تسلسل الأديان ، وأن التوحيد الحاضر يرجع إلى الأديان القديمة . ولم يكن جرانت ألين مصيباً فى جميع افتراضاته ، ولكنه استهوانى فى تلك السنين للنظر المادى الذى اتبعه فى تفسير الغيبيات. وبعد ذلك عرفت «الغصن الذهبى» لفريزر وهو موسوعة رائعة للعقائد القديمة وتسلسلها إلى أيامنا تحت أستار مختلفة . ثم زادنى نوراً تلك البحوث المتشعبة التى قام بها أليوت سمث وزملاؤه فى إيضاح الأثر الذى تركته العقائد المصرية القديمة . وهذه المؤلفات لفريزر وأليوت سمث ، مع تناقضها ، هى تربية خصبة وتثقيف سام لكل من يدرسها ، ولا يستطيع إنسان أن يصف نفسه بأنه مثقف إلا إذا عرفها . ولكن اهتماماتى بهذه الدراسات وقتئذ لم تكن دينية بل كانت تاريخية .

على أن اهتمامى بالدين بدأ وأنا حوالى الأربعين . ذلك لأن النضج الدينى مثل النضج الجنسى لا يأتى إلا فى ميعاد . فقد شرعت أقرأ الكتب المقدسة جميعها فى عناية ، وأشغل نفسى بالمشكلات الدينية الهندوكية . وكنت أجد فتنة فى أنبياء التوراة بل فى أسلوب التوراة . كما أنى وجدت أن القوة الجاذبة فى شخصية المسيح كبيرة جدا . وقد مضى علىّ نحو عشرين سنة وأنا أحلم بتأليف كتاب عن شخصية المسيح بحيث أكتب فى حرية الضمير مع إيمانى به وحبى له . ولكنى كلما كنت أفكر فى الالتباسات ، التى سوف تنشأ بينى وبين

بعض القراء ، كنت أنكص وأنا فى أسف ومرارة ؛ لأنى أكره أن أولم المطمئنين المستقرين الذين قد لا يجدون الطمأنينة واليقين فى السيرة التى أرويها مخلصاً أنشد الحقائق ولا أبالى غيرها . وموقفى هنا هو موقف تولستوى وريننان .

ولست أشك أن الرجل المسيحى فى دنيانا هذه وفى عصرنا هذا هو المثال الأسمى فى الأخلاق . وهناك كثيرون يعيشون الحياة الطيبة ، أى الحياة المسيحية كما أرادها المسيح الذى دعانا من ناحية إلى أن نكون كالأطفال فى السذاجة والاستطلاع والبعد عن الشر ، أى أن تكون القيم التى نعمل بها قيما بشرية ، نحب الأشياء التى يحبها الأطفال : نحب اللعب ونحب الزهر ونحب كل شئ حسن يرجع حسنه إلى قيمته الأصلية لا إلى القيمة التى يفرضها المجتمع . ثم دعانا من ناحية أخرى إلى أن نخشى مديح الناس . بل قال : ويل لكم إذا أثنى عليكم الناس ! وهنا دعوة إلى الاستقلال الفكرى أو الروحى ، استقلال الضمير ، حتى نعمل ما يوحيه إلينا الشرف دون مبالاة لاعتبارات المجتمع . وقد يكون هؤلاء مع ذلك غير مؤمنين الايمان الرسمى بالمسيحية إذ وليس من الضرورى ، كى يكون للانسان ضمير دينى ، أن يؤمن بدين معين ؛ فان جميع الأديان سواء من حيث إنها تنشد الحياة الطيبة . وأذكر هنا أن نحو ستين عضواً من جمعية الشبان المسيحية كانوا يصطافون فى صحراء العريش فى سنة ١٩٣٧ ، وكان بيننا المسلم والمسيحى واليهودى والبهائى . فكنا فى الصباح نقرأ قطعة من القرآن أو الانجيل أو التوراة مناوبة . وكان البهائى يجد فى كل واحد من هذه الكتب كتاباً مقدساً له ، وكنا نجد نحن فى جميع ما يقرأ لنا من أى كتاب منها دعوة صالحة توحى الخير والشرف والحياة الطيبة والحب . وقد وجدت أن الجمع بين هذه الكتب والاختيار منها على مبدأ المساواة قد بعث على التفكير الدينى البار بين الأعضاء وربط بينهم برباط دينى محايد أى غير متحيز . حتى لقد انتحى بى بعض الأعضاء وسألونى : لم لا يفعل جميع البشر مثلما نفعل نحن هنا فى العريش ؟ أى يضعون جميع الكتب المقدسة فى جميع المعابد .

وأذكر أنى نصحت لهم بأن يقرءوا حياة السلطان أكبر الهندى الذى تولى الحكم فى القرن السادس عشر ؛ فانه عقد مؤتمراً من الأئمة والكهنة من المسلمين والمسيحيين واليهود والهندوكيين وطلب منهم أن يتفقوا على ديانة

جديدة موحدة من هذه الديانات الأربع . وقد أخفق المؤتمر لأن الأعضاء ، كما ينتظر ، لم يتفقوا . ولو أنه قد اختار أعضاء هذا المؤتمر من المدنيين دون الدينيين لكان هناك مجال للظن بالنجاح . وقلت لهم أيضاً إن السلطان أكبر هذا تزوج أربع نسوة إحداهن مسلمة والثانية هندوكية والثالثة مسيحية والرابعة يهودية . وذلك كى ينشأ أبناؤه على أساس من الحب الذى يدعمه التقارب الدينى . وقد عاشت أسرته جملة قرون وهى لا تعرف معنى للتعصب فى الهند بين المسلمين والهندوكيين . فكان الصليب يعلق فى الغرفة التى يأتى إليها القارئ فى الصباح كى يقرأ إحدى سور القرآن ، وكان المبشرون من اليسوعيين يقعدون فى حضرته إلى جنب كهنة اليهود . وقصة أكبر هى إحدى قصص القداسة الهندية التى نرى لها صورة أخرى فى عصرنا فى غاندى .

وجميع الكتب المقدسة سواء عندى . ولكنى أضيف إليها عشرات من المؤلفات الأخرى فى الفلسفة والأدب . ولذلك أقول إن بعض ديانتى يرجع أيضاً إلى « جمهورية أفلاطون » وإلى « الانسان والسبرمان » لبرنارد شو ، وإلى مؤلفات جان جاك روسو وتولستوى ودستويفسكى وإلى أخناتون ؛ فقد زودنى هؤلاء جميعاً بهورمونات دينية . وقبل نحو خمس عشرة سنة شاعت دعوة فى أمريكا وأوربا إلى ما يسمى « البشرية » . وهى ديانة تستبعد الغيبيات ، وتؤمن بالرقى البشرى القائم على التطور . وهى تعتمد على الكتب المقدسة وكتب الأدب والتاريخ والفلسفة . وقد وجدت فيها إغراء كبيراً .

ولكن ما أحب أن أوضحه للقارئ هو أن الدين عندى كان تربية بطيئة لم أصل بعد إلى نهايتها ولكنى فى سبيلها . والدين كالفلسفة أو الأدب نأخذ منها بمقدار ما ورثنا من كفايات وامتزنا به من أوساط تعلم وتربى وتوجه . وهنا يغير كالفين هذا التعبير فيقول : إننا إنما نفهم من الدين بمقدار ماوهبنا من نعمة الله .

وقد كان نفورى أيام شبابى من الغيبيات علميا منطقيا . ولكنى أنفر من الغيبيات الآن لأسباب اجتماعية ؛ لأنها ، أى الغيبيات ، جبرية ليست فيها حرية الماديات . أى إن التفكير المادى حر متطور . أما التفكير الغيبى فمقيد جامد . ونحن نتحرر بالأول ونتقيد بالثانى .

ولكن الفلسفة ، أى الديانة ، ضرورية لكل إنسان . والرجل إذ يقول إنه ليس له ديانة هو ، كما يقول برنارد شو ، رجل بلا شرف . ونحن حين نستقطر العلم أو الأدب أو الفلسفة أو الفن كى نجد لها كلها غاية ، فانما ننشد بهذه الغاية ديانة نعيش بها أى دستوراً روحيا وأخلاقيا يعين علاقتنا بالطبيعة والكون والانسان والمستقبل . ونحن نحس الحاجة إلى هذا الدستور . وهو ليس دستوراً جامداً إذ هو يتغير ويتطور كلما تقدمنا فى السن وازدادت بصيرتنا نوراً .

ولما شرعت أدرس السيكلوجية وجدت ناحية من الدين لم أكن قد التفت إليها ، هى سلام النفس . فانه ليس شك فى أن المتدين يحس سلاماً ويجد ابتهاجاً يحرم منهما غير المتدين . ذلك أن المتدين يثق بالكون ، وكأنه يحس أنه ، أى الكون ، لن يخونه حتى حين يصطدم بالمصاعب ، أو قل إنه يعيش فى وسط أوسع كما أن آفاقه تمتد إلى آماد أبعد . ونستطيع أن نزن هذا الموقف حين نتخيل غاندى إزاء الجبال من المصاعب التى يلاقيها ؛ فانه فى كل حياته أكثر اطمئناناً وأعمق ابتهاجاً من أى إنسان آخر ، مع أنه يواجه من المصاعب أكثر مما يواجه أى إنسان آخر . وليس غريباً بعد هذا أن تكون للدين ، أى الفلسفة ،قيمة سيكلوجية عظيمة ؛ لأنه يؤدى إلى استقرار النفس ويحول دون التزعزع الذى قد ينتهى بالتحطم . وعندما نتأمل مرضى النفس نجد أنهم لم يترددوا فى الهوة إلا لأنهم استسلموا إلى قيم وأوزان مخطئة ، هى فى الأغلب قيم وأوزان اجتماعية انساقوا فيها وأرهقوا بها حتى حطمتهم ، وأنهم لو كانوا على فلسفة حسنة ، وعاشوا العيشة الطيبة التى يوحيها كل دين فى العالم ، لكانوا قد أخذوا بقيم وأوزان دينية تتيح لهم سلام النفس الذى فقدوه .

ولا بد أن القارئ سيسائل : أليس هناك فرق بين الدين والفلسفة ؟ وهل أنا محق فى التحدث عنهما باعتبارهما وحدة ؟

وجوابى أنى لا أعرف أمصيب أنا أم مخطئ ، ولكنى هنا أذكر إحساسى . وإذا شئت التميز بينهما فانى أقول إن الاحساس الدينى هو طرب الحب ، حب الطبيعة وحب الحيوان وحب الانسان بل حب الحياة والكون . أما الاحساس الفلسفى فهو تأمل الفكر . ولكن الحقيقة أنهما يندغمان عندى . وإن كان

أحدهما قد يتغلب على الآخر فى بعض الظروف ، وأظن أن هذا هو إحساس غاندى : تأمل وطرب معاً .

وكثير من كفاحى الثقافى ، بل أحياناً السياسى ، قد سرت فيه بتأمل الفكر وطرب الدين . والتأمل يطلب السكون فى حين يستفزنا الطرب إلى الحركة . فاذا مزجنا الدين بالفلسفة وجدنا الكفاح . ولذلك لم أعرف قط ذلك البرج العاجى حيث أستسلم للتفكير بعيداً عن المعركة . إذ أنى لا أكاد أنتهى إلى فكرة بالتأمل حتى يعمنى الطرب فأنشط إلى الكفاح .

وقد قلت إن ديانتنا أو فلسفتنا تتكون أولاً ثم تتبلور ثم تتجوهر . وعندى أن هذه النهاية ، هذا التجوهر ، هو الحب . وقد انتهت جميع الأديان إلى هذا الموقف ، كما انتهت السيكلوجية إليه أيضاً . والحب هو اتجاه وسلوك ، هو الاستطلاع الدائم للكون والرغبة النهمة فى المعرفة ، ثم هو التعاون والتسامح . وهذا الحب هو أيضاً ما انتهى إليه الصوفيون المسلمون مثل محى الدين ابن عربى حين يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى — إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة — فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف — وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت — ركائبه فالحب دينى وإيمانى

وفى هذه الأبيات الأربعة قد استقطر ابن عربى روح الدين .

ومن الحسن أن تذاع مثل هذه الأبيات الذهبية وتعلق فى بيوتنا إلى الجدران ، وخاصة فى هذا الشرق العربى الذى يجب أن تتعانق فيه الأديان الثلاثة عناق الحب . ومثل هذه الأفكار الانسانية نجدها أيضاً فى المعرى حيث يقول و إن يكن موقفه سلبيا :

إذا الانسان كف الشر عنى — فسقياً فى الحياة له ورعيا
ويدرس ، إن أراد ، كتاب موسى — ويضمر ، إن أحب ، ولاء شعيا

ما الدين صوم يذوب الصائمون له — ولا صلاة ولا صوف على جسد
وإنما هو ترك الشر مطرحاً — ونفضك الصدر من غل ومن حسد

ولكن يجب أن أقول إن ديانتي ، من الناحية الغيبية ، تشبه بل تطابق ديانة سبينوزا . أي إن المادة والقوة شيء واحد ليس بينهما انفصال . وكذلك الشأن في الله والكون ، وفي العقل والجسم .

وليست هناك نهضة عالمية ، كالثورة على المظالم أو التجديد للمبادئ أو الدعوة إلى الاخاء والمساواة والحرية ، إلا وهي تسير على الأسلوب الديني ، حتى لتتجاوز المنطق إلى الايمان ، وتسرف وتشط في ناحية الغيرية والتضحية والحب ضد الأنانية والاستئثار والبغض . فهي ملهمة بالروح الديني ، ولن تنجح إلا به . ولذلك كثيراً ما نجد الدعوة إلى الاشتراكية الحزبية تستحيل إلى دعوة دينية عالمية تغمرها الحماسة ويتغلب فيها الايمان . وحركتنا نحن في مصر في سنة ١٩١٩ لم تنجح إلا بمقدار ما كان فيها من الحماسة والإيمان أي بمقدار ما كان فيها من طرب الدين . وهي لم تتقهقر إلا بمقدار ما فقدت من هذا الطرب الديني بتفشي الأنانية والاستئثار والبغض .

ولن تعود دعوتنا الوطنية في مصر ، دعوة الحرية والاخاء والمساواة ، إلا إذا أحدثت لنا ، كما كانت تحدث في سنة ١٩١٩ ، طرباً دينيا يتألف من الحماسة والايمان والحب والتضحية .

وأخيراً يجب أن نقول حين نتكلم عن ديانتنا ، كما يقول أندريه جيد : «لست كائناً أبداً ؛ إنما أنا صائر.» وبكلمة أخرى يجب ألا نجمد ونستقر ، بل ننمو ونتطور .

سلامه موسى

أقصوصتان ايطاليتان *

LA LICENZA

STEFANO TERRA

الإجازة

كان ليوبولدو كريبا الضابط بمرتبة كابتن فى فرقة المشاة راقداً ينتظر هبوب نسيم المساء كى يستطيع القيام بالسير دائراً خمس مرات حول حواجز المعتقل، مما يساعده على النوم، وإذا به يرى أمامه الجندى جوفانى جاربرولو القائم على خدمته.

قال الجندى فى صوت سريع: إنى أثبت حضورى يا سيدى الكابتن. وأخذ الضابط يجلس على سريره الصغير وقد تأثر بذلك الصوت المرتفع الخشن، ثم أخذ ينظر فى هدوء فاحصاً الجندى، فاذا به واقف وقفة الانتظار منتصب القامة، وهو أمر غريب فى هذا المعتقل النائى ببلاد الهند. وجال بخاطره أن الجندى يريد المزاح، وهمّ بأن يطلب منه أن يدع المزاح جانباً، عندما رأى جوفانى جاربرولو يكرر، دون أن يتحرك عن موقف الانتظار، وهو رافع الرأس، والعينان محدقتان إلى الأمام، وهو يقول: «إنى أثبت حضورى يا سيدى الكابتن».

كان الصوت فى هذه المرة أكثر ارتفاعاً، وأعمق منه فى المرة السابقة، وقد ذكره بأنشودة قديمة كان ينشدها الجنود، ولكن لم يعد أحد ينشدها منذ سنوات، وانشغل خاطر الضابط فوقف وهو يفرك عينيه المتعبتين من الضوء الذى كان ينفذ من بين قماش الخيمة الملتهب من أشعة الشمس، وظل الجندى واقفاً دون أن يتحرك وذراعاه الطويلتان ممدودتان إلى جانب سرواله وهو من قماش لا يعرف نوعه، وقد ضم قدميه فى حذائهما الذى قدمته السلطات،

---

* هاتان الأقصوصتان كتبتا خاصة لمجلة «الكاتب المصرى».

وربت الضابط على كتفه بحركة أبوية وتحدث إليه فى لهجة عامية قائلا : «جوفانين ماشكايتك تحدث ! جوفانين لا تقف هكذا جامداً فان ذلك متعب لك . إن الأكل الذى يعطيه لنا هؤلاء الانجليز . . . » ولكنه لم ينه عبارته ، فقد شعر بانقباض فى قلبه عندما رأى عن كثب عينى الجندى جوفانى جار برولو الجامدتين ، ففيهما ذلك الضوء اللامع نفسه ، وذلك الانحدار نفسه ، الذى كان يبدو فى أعين أولئك الجنود الآخرين الذين أصيبوا بالجنون فى هذه الشهور الطويلة ، فى ذلك المعتقل للأسرى السحيق ، فى تلك الجهة النائية من قلب الهند ، وود لو استطاع أن يضمه بقوة ليحميه من ذلك الضوء الذى نفذ إلى عينيه ، والذى يؤثر الآن فى قلبه ، ولكنه لم يستطع إلا أن يقول فى صوت أجش : «جوفانين ! لتكن قويا ! إن الحرب قد انتهت ، وسنذهب إلى تورينو وأن والدتك ... » ولم يعرف كيف يتم العبارة ، وعلى وجه الجندى الجامد بدأت الدموع تتناثر فى حين أخذ فجأة يغنى فى صوت حزين :

إنى أثبت حضورى أيها الكابتن
إنى أثبت حضورى
إنى أثبت حضورى
إذ أريد الذهاب فى إجازة
إذ أريد الذهاب

أخذ الضابط وجه الجندى بين يديه وقبله على خديه كما يقبل أخاً ، وحاول أن يحمله على النظر فى عينيه ، ولكن جوفانى جفل بجأة كما يجفل الجواد العصبى ، ودار على نفسه دورة عسكرية ، وأخذ يمشى بتلك المشية التى يسير بها الجنود قاصدين الباب عندما يسمح لهم بالانطلاق والخروج .

وبعد تردد لحظات اندفع الضابط إلى خارج الخيمة ، ولم يكن قد تقرر لديه هل يجرى ليدعو أحداً من المستشفى الانجليزى البعيد ، حيث يعمل أيضاً بعض الأطباء من فرقته ، أو يجرى وراء الجندى الذى سار قاصداً الحواجز فى نهاية المعتقل . على أنه أخذ يصيح منادياً : جوفانين ! جوفانين ! لكى يكتسب بعض الوقت ، ولكن الجندى لم يهدئ من مشيته . وفكر الضابط فجأة أنه من

الواجب وقف الجندى بأى ثمن قبل أن يصل إلى الحواجز ؛ لأنه إذا وصل إلى تلك الأسلاك الشائكة التى تحد من المعتقل ، فان الحارس الهندى بعد صيحة إنذار غريبة ، سيستعمل سلاحه « كما تقضى الأوامر » وهذا ما حدث فى مرات سابقة .

وبلغ إلى جانب الجندى وحاول أن يقبض على ذراعه وأمسك بيده لكى يحول بينه وبين المفى ، ولكن الجندى وقد تملكته قوة عجيبة ، تابع السير دون أن يسمع كلمة من ضابطه . وكان كلام هذا الضابط توسلات سريعة وحزينة كلما زادا اقترابا من الأسلاك .

وعلى بعد نحو عشرة أمتار من البرج الذى يقف فيه الحارس أخذ الضابط وقد تملكه اليأس يصيح لكى يلفت نظر الجندى الهندى ، وكان يردد الكلمة الوحيدة التى يعرفها بالانجليزية « صديق ! صديق ! » ولكن الهندى قام من جلسته وبندقيته فى يده وأخذ يتبع بنظره الأسير الايطالى الذى كان يسرع الخطى نحو موقفه . وجلس الضابط فى يأس على الرمال وهو يتابع بعينيه حركات الحارس الذى كان يسند طرف البندقية القصيرة فى حركة بطيئة إلى كتفه ويسدد فوهتها وهو يتبع الخطوات الأخيرة لجوفانين تحت برجه . وفكر الضابط « فى هذه المرة سيقتلون حتى بغير أن ينذروا » ، ورفع بغريرته يديه إلى عينيه .

كان قلب الضابط بنبض بسرعة ولكن لم يقطعه صوت طلقة الهندى . ربما لم تمر عليه غير ثوان قليلة ثم فتح عينيه ولكن لم ير الجندى لأول وهلة ، وبدا لخاطره أنه استطاع أن يقفز بمرونة الغزال الشريد . ولكنه عاد يطيل النظر فاذا به يرى الهندى يسير فوق الرصيف المرتفع ، ولم يتبين له لماذا ظل الأسير مطلقاً كما يقول الحربيون . وجال بخاطر الضابط أنه ربما بدا له أن يطعنه بسلاحه ، وأخذ يحاول لفت نظر الهندى بالصياح ولكنه كان متأخراً لأن جوفانين هرع إلى رصيف الهندى فاذا كان أمامه وقف ورأسه مرتد إلى الخلف .

لم يكن من السهل على الضابط أن يتتبع ما هو حادث فى ذلك البرج ؛ فقد كانت الشمس الغاربة ترمى شعاعها على عينيه فتمتلئ العينان بالدموع لانعكاس الأشعة الحمراء . ثم ما كان أشد دهشته إذ كان يرى كلاماً يدور بالاشارات بين الحارس القابض على سلاحه بيده وبين ذلك الجندى الأسير ، وأخذ يسائل نفسه : «ولكن بأية لغة يتفاهم الاثنان ؟ » وذلك ليطمئن نفسه على أن الخطر

قد تباعد ، ومع ذلك رآهما وقد تقدما معاً كأنهما يجدان رغبة فى هذا الحديث .

وأخيراً غابت الشمس فى سرعة فيما وراء غابة قريبة . واستطاع الضابط أن يشهد الرجلين على الرصيف وكأنهما قد جلسا القرفصاء . وأخرج جوفانين من محفظة أوراقه بعض الصور الفوتوغرافية ، وأخذ الهندى يحدق فيها باهتمام وعطف . ومر ليوبولدو كريبا بيده على جبهته عدة مرات وقرر أن يذهب ويضع رأسه تحت نافورة الماء فى المعتقل .

وفى هذه الليلة لم يقم بدوراته الخمس التى اعتادها حول المعتقل ؛ فقد فقد كان متعباً . وعندما عزم على النوم رأى الجندى جوفانى جاربرولو يدخل إلى خيمته وعلى وجهه تلك الروح العادية المرحة .

سأله الضابط : كيف حالك يا جوفانين ؟

أجاب الجندى : « لقد كنت أشعر بتعب شديد فى رأسى بعد ظهر هذا اليوم . » ثم أضاف قبل أن يخرج : « جئت فقط لأرجو لك ليلة سعيدة يا سيدى الضابط » .

ستفانو ترّا

LA FERITA NEL VENTRE

STEFANO TERRA

الجرح فى البطن

أصيب الجندى فاسكو دلاتورى بجرح فى بطنه ، فأطلق لنفسه وقتاً قليلا عنان الشكوى والحنين إلى أسرته ، وهى تعلته لنسيان هذا الجرح . ولكنه نظر أخيراً إلى ثيابه العسكرية وقد تمزقت فيما تحت قلبه بقبضة يد ، فتذكر أنه كلما تنفس خرج الدم منه إلى الخارج فيصبغ ثيابه الرمادية المخضرة ويجعل لونها كلون الجلد . فمد يده عندئذ ، ولمس تلك الثياب الممزقة الدامية ، وتأكد مما وقع له ، فشعر بعرق بارد يتصبب عليه كما حدث له وهو طفل ، حينما أمضى ليلة تحت وطأة حمى شديدة ؛ ثم كان لديه الوقت لينظر إلى الجهة التى اختفى فيها ضابطه ، ثم أدركه الموت .

تذكر هو نفسه هذه الوقائع لأنه وجد نفسه فجأة فى مركز الشخص المنحنى على جسد نفسه ، فاذا رأى عينيه الشاخصتين شعر بتأثر لذلك دون أن يجهش بالبكاء ، وشعر بأن أحزانه اليائسة تتردد وتذهب كما يذهب صدى الصوت فى تلك الغرف التى لا نهاية لها والتى تذكرها الأساطير . فظل طويلا يشعر بالشفقة على جثته الملقاة . أما الألم الذى شعر به وأدى به إلى الموت ، فقد تضاءل كثيراً ؛ وود لو يستطيع قطع يديه اللتين مرتا على الجرح بدافع حركة أخيرة عصبية . وما لبث أن فهم أنه انفصل عن هذا الجسد كما يطير اليراع الأزرق فى ظلمة الليل . ولم يبق من ذلك الذى كان حيا غير طعم مشروب الكونياك ، ولكن ربما كان ذلك مجرد رائحة ، فلقد شرب منه كثيراً قبل ساعات ، وكان الفم لا يزال فاغراً . ولم يأت الليل فلقد كان الضوء الأول ذا لون رمادى كأنه انعكاس للثلوج . وصار كل مايهمه هو الخوف من أن يفقد نفسه تدريجيا وجسمه ممدد متصلب ، قبل أن يأخذ فى الانحلال . وبقى فى هذا الانتظار الغريب وهو يستطيع أن يتذكر أشياء . ولكن لكى يفعل يجب أن يتمسك طويلا بجزء من جسمه . ولكن هذا العمل كان يتطلب تعباً ومجهوداً مضنياً وضائعاً . ولقد ساعدته يداه بأن يتذكر قصصاً من سنوات حياته الماضية ، فلم يعد يفهم لماذا تأخر هكذا طويلا فى أن يتصل بامرأة . ولقد استطاع بقدميه أن يرى كما يرى الجنى الصغير ، شوارع كبيرة وسلالم وأرصفة ، وما فى منزله من أثاث مترب .

وأخيراً بقى كعين سحرية فوق جسده ، عين ضعيفة كأنها تفقد قوتها كلما زادت جثته تحطما . على أنه استطاع أن يتذكر طويلا منظراً تشبث به كأنه يدافع عن نفسه : فلقد سقط ثلج كثير ، وكان هو بجرحه فى البطن ممدداً ، وعيناه مفتوحتان وثوبه العسكرى الملطخ بالدم ملقى كأنه رجل متعب فى نوم عميق . ولكنه إذا كان قد صار لا يشعر باختلاف الليل والنهار فانه شعر بشمس ذلك الربيع التى كانت تأبى أن تبقى على بقاياه . و إذا الأمور تظهر فجأة كأنها مهزلة فظيعة وقد انفرجت شفتاه . وفى الضوء بدت عليهما ابتسامة كبيرة إلى أن تحولتا إلى قطعتين من اللحم الكريه بفعل الذباب ثم الديدان ، التى هربت بعد قليل بسقوط الأمطار .

ومع ذلك كان لايزال يتملكه الخوف خشية أن يفقد نفسه . وكان خوفاً وحيداً

ضيقاً عندما يرى تلك الألوان الغريبة التى أخذ يتلون بها جسده . وانتظر أن يزول عند أول هبوب ريح قوية كتلك الأزهار التى يسميها الأطفال بالزعفران، وفى كل هذه الأحداث كان يرى أخيراً ذلك الجرح التى لم تعد اليدان المتيبستان تلمسه ، وكان ذلك نهاية الجرح الذى نشأ عن قنبلة يدوية ، واستطاع أن يتذكر أنه فى وقت ما عثر على شظية من هذا النوع ووضعها فى حافظة أوراقه على سبيل التذكار .

وأخيراً ظهر فى هذا الجزء النائى من الجبل رجال يحملون فؤوساً ومطارق ونقالات . وتقدم إليه أحد هؤلاء الرجال وبحث فى سترته وأخرج منها حافظة الأوراق التى بدت له أنها مليئة . وجاء ضابط لفتحها وظل ينظر طويلا فى صورة خطيبته . وكانت رؤيته تتضاءل ، وأخذ يشعر بتعب شديد كالذى يأخذ الحارس الذى ينتظر بعد وقت طويل تغير الحراسة . وفى هذه المرة فقد وعيه دون أن يشعر بأى ألم ، ولكنه كان يسمع فقط وقع أول حفنة من التراب .

ستفانو تزا

نقلها عن الايطالية ح. م.

THE RECONSTRUCTION OF HOLLAND

HENRY BAERLEIN

إعادة بناء هولندة *

إن كل من زار هولندة بعد هذه الحرب الأخيرة ، لا بد أن يشعر بأكبر العطف على شعب عومل أفظع معاملة ، وتخلص من اليأس بقوة الصبر والمثابرة بالرغم من الظروف غير المشجعة ، فنجح فى وقت قصير فى المجهود الذى بذله للعودة إلى ما يقارب رخاءه القديم . ومن الطبيعى ألا يوفق فى مجهوده تماماً ؛ لأن ذلك متوقف على عوامل لا يسيطر الشعب الهولندى عليها . فهو على سبيل المثل لا دخل له فى إعادة ما سرق منه من متاع . فالهولنديون ينظرون الآن إلى مواشيهم تلوح من وراء حدودهم ويعلمون أنها ملك لهم ، ولكنهم لا يستطيعون استردادها ؛ إذ قيل لهم إن هذه الأمور وأمثالها تنظر فى التسوية العامة ؛ و إنما يعمل الشعب الهولندى ويدأب بغريزة أسلافه و بروحهم التى لا تقهر .

لقد حاول الألمان فى أثناء الحرب أن يكتسبوا ثقة الهولنديين فلم يبوءوا إلا بالسخرية . وحاول الألمان أن يؤثروا فى الهولنديين بما عرف عنهم من احترامهم لأسلافهم الأبطال الذين كانوا يقاتلون البريطانيين فى الأزمان الخالية . ومن أشهر هؤلاء الأبطال أمير البحر دى رويتر ، وهو الرجل الذى أبحر إلى ميداوى فى جنوب انجلترا متخذاً المكنسة شعاراً له وقد علقه فى مقدمة سفينته . وأعلن أنه يريد أن ينظف البحار من الانجليز . وكان ذلك فى زمن ضعفت فيه شوكة الانجليز جدا قبل أن يأتى أوليفر كرومويل ويضع حداً لهذا الضعف . ولم ينجح الأميرال فى محاولته كل النجاح ، ولكنه مع ذلك أثار حماسة كبيرة فى مواطنيه . وكان الألمان يلحون دائماً على الهولنديين بأن يحذوا حذوه فى كراهيته للانجليز ، وأبوا أن يسلبوا صورته الكبيرة فى متحف لاهاى . واستعملوا صورة رأسه فى بعض طوابع البريد التى أصدروها ، غير أنهم لم يحيطوا

---

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

تمثاله فى بلدة فلشنج مسقط رأسه بأكياس الرمل أو بأى نوع من الوقاية. قلما ضربت المدينة من قوة الطيران البريطانى أصيب التمثال وغضب الهولنديون. وجاء وقت صار من الضرورى فيه ضرب المدينة، فدمرت جميع الدور التى تواجه الميناء،ولكن الأقدار قضت بأن لا يصاب التمثال، وتعرض الألمان لسخرية الهولنديين ونكاتهم.

ذهبت إلى هولندة فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ثم فى أوائل ابريل سنة ١٩٤٦، وفى المرتين لم أزر فلشنج وحدها بل زرت أيضاً جهات من جزيرة فلشرين. وكان مما يسترعى النظر حقا أن يرى التقدم الذى تم فى هذه الشهور. فعندما كنت فى زيارتى الأولى كانت الجزيرة، وهى أخصب أرض زراعية فى هولندة، فى حالة محزنة؛ فقد ماتت كل أشجار الفاكهة، ولا بد أن تمضى سنوات قبل أن تنبت مكانها شجيرات فاكهة أخرى. وكانت الأرض فى حالة سيئة بعد أن أغرقتها المياه الملحة؛ إذ أحدثت قوة الطيران البريطانية أربع ثغرات كبيرة فى السدود المحيطة بتلك الجزيرة. ولم يكن من الممكن بغير ذلك إخراج الألمان منها ولا استعمال ميناء أنتويرب الحيوية للتمكن من غزو ألمانيا.

ظلت هذه السدود أربعمائة سنة تقاوم مياه بحر الشمال، وكانت تحت إشراف مهندسين تخصصوا فى هذا العمل. فحزن هؤلاء المهندسون حزناً شديداً عندما تهدم عملهم وعمل أسلافهم على هذه الصورة. وفى نوفمبر سنة ١٩٤٥ أخذوا يصلحون هذا التخريب. وكان من المستطاع الحكم على حالة الجزيرة بأجمعها من الطريق الأساسى الذى يصل ميدلبرج العاصمة الجميلة لمقاطعة فلشرين بميناء فلشنج؛ فانه لم يكن يستعمل حينئذ إلا من جهة واحدة،فيشغل الطريق لمدة ثلاثة أرباع الساعة بالمركبات الذاهبة فى اتجاه، ولمدة ثلاثة أرباع الساعة بالمركبات الذاهبة فى الاتجاه الآخر. وكان الطريق الذى سلكته سيارتنا عبارة عن تلال صغيرة وأودية إذ أثرت فيه المياه. وعندما عدت إلى فلشرين بعد أشهر قلائل كان الطريق منظما خير تنظيم حتى صار يضارع سائر الطرق العديدة فى هولندة، وهى طرق لا تفضلها طرق أخرى فى العالم. فالكثير منها مغطى بالآجر (الطوب الأحمر) الذى صف بمهارة زائدة حتى كون أرضاً مسطحة ملساء. ومزية مثل هذا الطريق أن السيارات لا تنزلق عليه طول السنة. وقد غرس فى وسط الطريق خط من الشجيرات، فالمركبات تسير فى اتجاه على اليمين وفى

الاتجاه المقابل على اليسار ، فتمتنع المصادمات ، ولا تحد السرعة فى السفر . ولا ريب فى أن طرق فلشرين قد تأثرت كثيراً من استعمال النقالات التى تسير فى البحر والبر معاً،وقد اضطرت القوات البريطانية إلى إحضار هذه النقالات واستعمالها بعض الوقت عندما كانت الأرض مغمورة بالماء ، ومثل هذه النقالات تخرب أى طريق تخريباً كبيراً . وقد عدل البريطانيون عن استعمالها بمجرد أن تيسر لهم ذلك . وكانت هنالك سهولة نسبية فى إنقاذ حقول فلشرين الواقعة على مقربة من ثلاث من الثغرات الأربع التى أحدثت فى السدود ، حيث كانت الأرض عند هذه الثغرات مرتفعة ، فلا تغمرها المياه إلا عند المد . ولذلك عمد المهندسون إلى سد الثغرات وتطهير الأرض من الماء تدريجياً على درجات . وكان العمل قد تم عند هذه الثغرات الثلاث حين عدت إلى فلشرين . أما المياه فى الجزء الباقى من الجزيرة ، وهو لحسن الحظ الجزء الأصغر منها ، فقد رفعت بالمضخات الماصة إذ أن هذه الأراضى منخفضة عن مستوى البحر ، واحتاج هذا الأمر إلى جهد ومال كبير . ولقد أقيمت مضخات ماصة كبيرة كنت أراقب عملها ، وأعيد بناء السدود جميعاً ، فلم يمض إلا القليل من الزمن حتى صارت فلشرين بعيدة عن أى خطر من البحر عدوها القديم ، ولكن لا بد أن تمضى سنوات قبل أن تسترد الجزيرة ما كانت عليه من رخاء .

ولقد زرت قسما آخر من هولندة وهو المسمى بحر فيرنجن ، فاذا الألمان قد أغرقوه عند ما أحيط بهم وصاروا فى حالة اليأس ، ولم يكن هذا العمل منهم إلا مجرد الرغبة فى الشر . ولقد أسالوا بحر زيدر على الأرض التى بذل الهولنديون مجهوداً كبيراً لاستخلاصها من الماء منذ سنوات ، فزادوا مساحة بلادهم بهذا العمل نحو السبع . ولكن من حسن الطالع أن هذه الأراضى طهرت من الماء فى وقت قصير ، واتخذت وسائل لازالة أضرار الملح منها . وفى تلك المنطقة تعرفت إلى سيدة شجاعة تسكن مزرعة متطرفة مع زوجها . وكانت هذه السيدة تصغى إلى إذاعة اللاسلكى ، فتسمع فى ليلة معينة أن ستلقى قوة الطيران البريطانى أسلحة وذخيرة وطعاماً على مقربة من مزرعتها فى ساعة معينة ، فاذا كان الليل ملائماً تكررت الاشارات . فتذهب هذه السيدة وصحبها فى انتظار الأمتعة الثمينة التى تسقط بوساطة المظلات ، وحينئذ تخبئ الأمتعة وتدفن المظلات فى الأرض . وكانت هذه المظلات تهبط دائماً فى أماكن لا يحرسها الألمان ، وعندما انتهت الحرب أخرجت

هذه السيدة المظلات من الأماكن التى دفنتها فيها وعملت منها خيمة أولمت فيها وليمة لجميع المزارعين من جيرانها ، ثم صنعت من حرير المظلات قمصاناً للرجال والنساء ووزعتها على من هم فى حاجة إليها . ولقد حدث أن قتل عدد قليل من الألمان تغلب فضولهم على الحيطة فأرادوا فى أثناء الحرب أن يتأكدوا من مكان هذه المظلات التى رأوها تسقط . وفى مرات عدة اقتحموا مزرعة هذه السيدة ، ومع أن منظرها يدل على أنها سيدة رقيقة القلب ، فان هؤلاء الألمان لم يسمع عنهم أحد من بعد شيئاً .

ونذكر بهذه المناسبة أن بريطانيا بذلت مجهوداً فى خدمة فلشرين لا فى تقديم الخبراء ، بل فى تقديم الآلات التى استعملت فى غزو نورماندى . وكانت هذه الآلات العديدة كبيرة الفائدة فى إعادة بناء السدود ، وكان من بنات أفكار أحد البريطانيين أن أرسل إلى هولندة كمية وافرة من الشباك التى استعملت فى جمع الرمال ، وتبين أنه أدى أكبر خدمة كان الأهالى يرغبون فيها .

وحدث بعد سنتين من ذهاب هؤلاء الانجليز إلى فلشرين لتحرير الجزيرة من عدوها القديم ، وهو البحر ، أن وقع بشرق انجلترا فى ربيع سنة ١٩٤٧ وفى منطقة المستنقعات مثل ذلك الطغيان من الماء بسبب ذوبان الثلج بعد شتاء شديد ، وكان مستر ج. ا. ريد أحد الذين عملوا بهولندة منذ سنتين واتصل أثناء عمله بمستر ج . ج . كاليس فاتصلا مرة أخرى عندما حدثت هذه الكارثة فى الأراضى البريطانية . وأخذا يتبادلان الرأى فيما صنع فى فلشرين ؛ ولكن الثغرات هنا كانت أوسع والمشكلة أعمق ، على أن العمل لم يكن متأثراً بمشاكل داخلية ، وكان مستقيما وأقل تعقيداً . ومما هو جدير بالذكر أن السدود على جانبى نهر الأوز بمنطقة المستنقعات بانجلترا بناها هولنديون . وكان المهندسون الهولنديون هم الذين استخلصوا الأرض من النهر ،وعملوا فى صرف المياه عنها عندما كان دوق بدفورد على رأس المغامرين الذين استخلصوا مساحة واسعة من المستنقعات وجعلوا منها أرضاً خصبة فى القرن السابع عشر .

لقد خرّب الألمان أراضى هولندية خصبة وبعضها سيستغرق إصلاحه وقتاً طويلا . وقد سرق الألمان من هولندة شيئاً كثيراً ، لذلك يطالب الهولنديون وكثيرون من الذين يعطفون عليهم بأن يعوضوا عما خسروه بطريقة ما . واقترح بعضهم أن تستولى هولنده ولو لبضع سنوات على مقاطعة ألمانية ،

واقترحوا لذلك قسما من أولدنبرج ، والاقليم المتاخم لهولندة ليس فيه مدن كبيرة ولا صناعات ضخمة وتعداده قليل . وعندما زار مستر شوكنج لندن أخيراً ، وهو سكرتير الجمعية الهولندية للأمور الدولية ، وكان يريد إلقاء محاضرات فى لندن ، ظن أنه سيعرب عن هذه الرغبة ، ولكنه أعلن أن مطالب هولندة متواضعة جدا ، ولا يجب أن يقال بأنها ترغب فى ضم إقليم بل هى ترغب فى تصحيح حدودها ؛ لأن المساحات التى تطلبها صغيرة جدا ، وليس غرضها إلا تسهيل إدارة الحدود . وهذا القول ينطبق أكثر ما ينطبق على مناجم الفحم فى جنوب هولندة لأن بقاء هذه المناجم تحت سيطرة الألمان مما يعطل استغلالها اقتصاديا ، وهذا الطلب هو فى مصلحة الجميع .

وقد أخبر مستر شوكنج سامعيه بأن رأى بلاده فى التعمير لم ينضج بعد ، ولا يزال الهولنديون فى طور تكوين الرأى ، وهم فى ذلك يسيرون بما يناسب سجيتهم فهم غير متسرعين فى الوصول إلى نتائج ، ولكنهم بمجرد ان يجمعوا على رأى يخلصون له كل الاخلاص ، فالهولنديون الذين يطالبون الآن بجزء من أولندبرج ليسوا هم الكثرة . ويقول مستر كوشنج إن الاتفاق هذه المرة يجب أن يكون مرضياً للجميع ، وأن يكون مستمرا ؛ فأمام بلاده مشاكل داخلية وخارجية كما هو شأن جميع البلاد . وأخذ يشرح لسامعيه كيف تسير الأمور الآن فى هولندة وكيف أن حزب العمال الذى أنشئ حديثاً وانفصل عن السياسة الماركسية يحاول النجاة من الانغماس فى الفردية من جهة ومن ضدها من جهة أخرى ، ويوجد بين أعضاء حزب الأحرار عدد من أعمق الدارسين للأمور الدولية ، على حين نجد تفوقاً سياسياً فى بعض الفرديين . على أن هذا الحزب بوجه عام لا يؤمن بالمستقبل ، وذلك بسبب جنوحه إلى الوطنية الضيقة . غير أن بعض أفراد هذا الحزب أبدوا مقترحات وجيهة فيما يتعلق بتسوية المسألة الألمانية . وكان الغرض الذى يرمون إليه إيجاد بلاد صالحة للمستثمر الأمريكى الذى تزداد الرغبة فيه .

ومن المظاهر الخاصة بهولندة وجود مظهر دينى فى بعض الأحزاب السياسية ؛ فتبدأ هذه الأحزاب اجتماعاتها بالصلاة ، وهذه الأحزاب تمثل آراء ترجع إلى عقلية ما قبل الحرب أكثر مما ترجعوا إلى آراء الأحرار . وهذان الحزبان الدينيان هما الحزب البروتستانتى والحزب الكاثوليكى ، والأخير أكبر من الأول . ويأمل

الحزب الكاثوليكى أن تصير أوربا موحدة لمقاومة روسيا السوفييتية .

ولقد زاد عدد أرباب الصناعة من الهولنديين فيما بين الحربين وزادت أهميتهم ، وأوجد اختفاء السوق الألمانية لهم مشكلة خطيرة . ومن خير المعبرين عن آراء هؤلاء مستر بيرنز دى هان ، وهو رئيس تحرير جريدة اقتصادية هامة اسمها «متجابش بلانجن» تصدر فى مدينة هارلم. وفى رأيه أن الحاجة ماسة إلى إحياء صناعة أوربا الغربية و إعادة تنظيمها . وهو يقول إنه إذا أرادت الدول فى أوربا الغربية الحياة فيجب ألا تعمل على تعطيل زميلاتها ، وهو لا يؤيد فكرة مزج الدول بعضها ببعض ، و إنما يؤيد فكرة مزج مصالحها الاقتصادية ، أو بعبارة أخرى يجب أن تكون جبهة اقتصادية واحدة . والمثل الواضح على ذلك هو اتحاد هولندة والبلجيك ولوكسمبرج فى جماركها؛ فلقد قضى هذا الاتحاد نهائياً على التنافس بين بلجيكا وهولندة عند ما كانتا خصيمتين على أثر تفضيل بلجيكا الاستقلال عن هولندة منذ مائة سنة . ومن الطبيعى أن تقوم بعض المصاعب فى تنفيذ هذا الاتحاد الجمركى ، وهو يجد من الحماسة لدى الكاثوليك أكثر مما يجد لدى البروتستانت . وقد يزيد التنافس بين البلدين بل بين البلاد الثلاثة ؛ لأن لوكسمبرج ، بتعداد سكانها الذى لا يزيد على ثلاثمائة ألف نفس ، تخرج من الصلب مايجعلها سابعة أو ثامنة البلاد التى تصدر هذا المعدن الثمين فى العالم ؛ وهذه الغراندوقية الصغيرة هى من أكثر البلاد نهوضاً. ولقد استدعت منذ ست سنوات اثنين من المخترعين الانجليز أوجدا طريقة فى صنع الصلب تفوق طريقة بسمر إذا وجد الفوسفور ؛ وهى أول بلد أقر للعمال بأن يتمتعـــوا باجازة مع استيلائهم على رواتبهم . ومن المصاعب القائمة بين هولندة والبلجيك مسألة الأجور ؛ إذ أنها فى البلجيك أرفع منها فى هولنـدة ، ولـكن العمال من الهولنـديين لن يقنعوا حتى يبلغوا المستوى القديم لهم فى المعيشة . ولعل مايهم أوربا من مثل هذه التسوية التى قد تم بين بلجيكا وهولندة أن تتخذ نواة إلى تسوية أمثالها بين بلاد أوربا ، أو على الأقل بين بلاد غرب أوربا . ومما تجب ملاحظته أن هنالك كثيرين ينتقدون تكوين كتلة أوربية غربية ثابتة بما تحويه من مخاطر وهم ، يذكرون فى هذا المعرض أن هولندة لها مساحات آسيوية وأفريقية واسعة مما لا يتفق وهذه الكتلة .

وفيما يتعلق بألمانيا يظهر أن الرأى السائد فى هولندة هو عدم تقوية السلطة المركزية . أما إنتاج الفحم الألمانى واستعمال وسائل النقل الألمانية فأمر يؤخذ فيه رأى جميع الدول التى يهمها ذلك . وفيما يتعلق بنهر الرين يرى الهولنديون أن الملاحة فيه تكون حرة لجميع الدول الواقعة عليه . على أن بريطانيا وأمريكا رغبتا فى أن يكون لهما من الرأى مايتفق ومصالحهما العديدة . وقد استسلم الهولنديون بعد مفاوضات طويلة إلى هذه الفكرة واتخاذ نظام نهر الدانوب مثالا .

ويظهر أن الاتحاد الجمركى بين هولندة وبلجيكا ولوكسمبرج يضم تجارة كانت الرابعة وهى الآن الثالثة فى العالم . ولقد عظمت العلاقات التجارية بين هولندة وبريطانيا فى سنة ١٩٣٨ حتى صارت أهم من تجارة هولندة مع ألمانيا . وعقد أخيراً اتفاق بينهما يقضى بأن تستورد بريطانيا بعض المنتجات الزراعية الهولندية . ولن تغير هذه المنتجات فى حالة الطعام بانجلترا كثيراً ، ولكنها بداية حسنة . ولقد ذكر لى أحد الهولنديين الذين أمضوا بضعة أشهر فى هولندة أن الرجل العادى فى مدينة أمستردام يستطيع أن يحصل على طعام أكثر مما يحصل عليه الانجليزى ، وذلك دون الالتجاء إلى السوق السوداء . والأكل فى المدن الهولندية مرتفع الثمن فى المطاعم ، ولكنه خير منه فى مطاعم لندن . على أن بعض المواد الخاضعة لنظام التموين فى هولندة ليست كذلك فى انجلترا ، فالهولنديون يتناولون بالبطاقات البن واللبن والكاكاو والبرتقال،ويحصل الهولنديون على ٢٥٠ جراما من الزبدة أو الدهن فى الأسبوع ومثلها من اللحم ، على أن الحوانيت مليئة بالأغذية . وعندما زرت هولندة للمرة الأولى بعد تحريرها رأيت الحوانيت تعرض فى نوافذها مواد ليست للبيع وإنما كانت ترجو أن تتمكن من تدبير مايكفى للبيع منها فى المستقبل . أما الآن فلا تضطر ربات البيوت إلى الوقوف صفوفاً أمام المتاجر ولا يكون ذلك إلا أمام دور السينما والمسارح والمعارض . فأى تغيير طرأ على الصورة التى رأتها أعيننا فى أواخر سنة ١٩٤٥ ؟ لم نر عندئذ إلا قليلا من الكلاب والقطط فقد أكلها الناس فى أواخر شهور الاحتلال الألمانى عندما ووجه الهولنديون بالمجاعة ، بل إنهم اضطروا لأكل بصيلات زهرة التوليب الشهيرة فى هولندة مع أن الطعام المصنوع منها متعب للمعدة لا يهضم بسهولة ، ومع ذلك استطاع

الهولنديون أن ينتقموا أحياناً من معذبيهم . فلقد تناولت طعام الغداء فى أحد الأيام فى فولندام وهو مكان شهير لدى رجال الفن إلىجانب بحر زيدر ، وكانت حوائط غرفة الطعام فى الفندق مغطاة بصور مشاهير الرجال ومنهم صورتان من صنع المصور فيل ماى إحداهما صورة صاحبة الفندق ، وقد أخبرتنى هذه السيدة أن الضباط الألمانيين الذين كانوا ينزلون لديها بأمر السلطة كانوا يعطون ماء أجاجا ؛ فقد أخبرتهم السيدة أنها لا تجد غيره ، مع أنه يوجد خزان للماء الصالح . وقد حذرت خادمتها بأنها إذا أفشت هذا السر فلن تعيش على الأرض . والآن لا تزال الخادمة على قيد الحياة فى حين وجد الألمان طعامهم كريهاً . وكان البريطانيون والأمريكانيون يرسلون من طياراتهم الطعام كلما شعروا بأنه لا يقع فى يد الألمان ، وقد ساعدت جيوشهم الأهالى بمجرد دخولهم البلاد . ولقد استولى الألمان على أكثر من نصف الدراجات التى كان يستعملها الهولنديون ، ووضعوا أيديهم على إطارات الأخرى ؛ فكان الهولنديون يركبونها بلا إطارات أو يصنعون ما يعتاضون به عنها .

ومع ذلك لم يرحب الهولنديون بكل ما كانت تلقيه قوات الطيران البريطانية والأمريكية ؛ فلقد تمسك الألمان لسوء الحظ بمساحة واقعة بين مدينة لاهاى وشيقننجن ، وكانت هذه المساحة تبدو من الجو كأنها جزء من المدينة فأدى ذلك إلى ضرب المدينة بالطيارات .وكذلك ضرب الأمريكيون أثناء الحرب الجانب الهولندى من نهر الراين بدلا من الجانب الألمانى،فتخربت جهة نيمنجن تخرباً كبيراً . ولكن الهولنديين لم يحتجوا على ذلك وقالوا إنها حوادث منتظرة بين حين وآخر .

ويرى الهولنديون فيما يتعلق بمنطقة الرور أنها مسألة سياسية إلى جانب كونها اقتصادية ، ويجب أن تبقى الصناعات الألمانية الثقيلة فى مستوى لايهدد العالم بالأخطار كما كان الشأن فى الماضى ، وفى الوقت ذاته يجب ألا يقضى على هذه الصناعات الثقيلة فتصبح ألمانيا المريضة خطراً على الجميع . ولقد نهضت الحركة الوطنية التحريرية فى وقت قصير بهولندة وكان لها تأثير كبير ، ومن ثمارها تكوين حزب العمال .

ومن الدلائل الظاهرة على أن الهولنديين عازمون عزماً أكيداً على تسوية مشاكلهم الداخلية أن وزير المالية فى الوزارة التى تألفت بمجرد تحرير هولندة ،

أصدر عدة قرارت حاسمة فكر فيها بعناية فى أثناء اعتقاله فى أحد المعسكرات الألمانية . وقد أصدر أمراً بأن تصير أوراق العملة باطلة ولا قيمة لها بعد تاريخ محدد ، ثم صرف لكل شخص فى هولندة من الملكة إلى أبسط الناس بضعة شلنات لتنفقها فى أسبوع قبل العمل بالعملة الورق الجديدة . ولقد تخوف بعض الناس الذين كانوا يملكون الكثير من عملة الورق القديمة ؛ إذ فيها دلالة على أنهم حصلوا علىّ أموالهم بوسائل مشكوك فيها . ولذلك رئى بعض الرجال يشعلون سيجارهم بورق العملة من فئة مائة جولدن ، ووضع غيرهم هذه الأموال التى حصلوا عليها بطرق مريبة فى شراء مجموعات لطوابع البريد أو بطاقات للترام أو بناء قبور لأسرهم . وقد حدث لفتاة أنها أعلنت للسلطات عن عزمها على الزواج ، وأن تستأجر مكاناً فخماً من أحسن الأمكنة لتقيم فيه حفلة . وقد فعلت إذ أجرت بهو دار البلدية ودفعت الايجار بالنقود القديمة . وبعد أسبوع أو اثنين عادت مرة ثانية وشكت من أن خطيبها فر ولا تعلم مكانه ، وهى على ذلك لاتستطيع إقامة الحفلة وطالبت برد النقود إليها ، وكانت العملة الجديدة قد صدرت فردت إليها النقود من هذه العملة ، ولكن أولياء الأمور أخذوا يحققون الأمر ، وندمت الفتاة على أنها أقدمت على تنفيذ هذه الحيلة البديعة .

ولقد تأخر الهولنديون فى العودة ببلادهم إلى الرخاء بسبب كثرة الأنهار والقنوات ؛ إذ أنها كانت عقبات كبيرة بعد أن دمر الألمان الجسور . ولكن من حسن حظهم أن النفق الشهير الذى يمتد تحت الأرض عند روتردام ظل سليما. على أنهم استطاعوا أن يقيموا جسوراً مؤقتة فى أجزاء عدة من البلاد . ولقد ساعدهم البريطانيون بقدر مايستطيعون فنقلوا إليهم جسر ووترلو القديم ، وهذا الجسر انتهت به الحياة إلى أن قسم ثلاثة أقسام ، وتعمل هذه الأقسام على مساعدة الهولنديين حيث تكون أكثر فائدة . وفى خريف سنة ١٩٤٥ عندما ذهبنا إلى شاطئ نهر كبير وكان اليوم شديد الضباب أخبرنا بأنه يجب أن ننتظر أربع ساعات قبل أن تجد سيارتنا مكاناً فى القارب النقال ؛ وعلى ذلك سلكنا مع غيرنا من أصحاب السيارات طريقاً طويلا ملتوياً . ولكن هذه الأحوال تغيرت فى أقرب وقت،وصارت هولندة فى حالة تقارب ما كانت عليه قبل غزو الألمان . ولقد ترك هذا الغزو ذكرى وآثارا فى البلاد : فمن ذلك أن مؤلفة

هولندية كانت تلقى محاضرات على الألمان قد حرمت من حق طبع أى كتاب مدى عشر سنوات فى هولندة . ولقد قابلت خادمة قتلت أكثر من جندى ألمانى بأن كانت تطمع السكارى منهم الذين يحتكون بها فى الليل ثم تسير معهم إلى جانب قناة وفجأة تقذف بهم إلى الماء .

وحدث أنى زرت أثناء الحرب بعض البحارة والجنود والطيارين من الهولنديين المعسكرين فى أماكن من بريطانيا وكانوا شباناً بواسل ، وهذا الرأى يؤيده الفتيات البريطانيات اللاتى تزوجن عدداً منهم . وليس من الضرورى أن أطيل فى الكلام عن شجاعتهم ، ولكنى أستطيع أن أذكر أنه عند ما أقيم لهم معسكر فى جهة خالية عند وولفرهامتن ، أنشأوا طرقاً من الأسفلت فى بضعة أسابيع وزرعوا متنزهات من أشجار الأزهار كما زرعوا بعض أشجار الخضرة ، ورأيت ذات يوم نحو عشرة من الجنود المتقدمين فى السن وهم يدرسون اللغة الانجليزية فى اهتمام . وكان بينهم جماعة من أصل هولندى ولكنهم يعيشون فى جنوب أفريقية،وقد خدم هؤلاء مع مواطنيهم لأنهم لم يغيروا جنسيتهم . وقد أخبرنى المعلم الذى كان يلقنهم اللغة الانجليزية أن ابنته أتقنت لغة الأهالى السود من الزولو وكتبت فى شراء بعض السلع إلى تاجر من الزولو بهذه اللغة ، فظن أنها من أبناء جنسه فكان السعر الذى طالبها به أرخص من السعر الذى يبيع به للأهالى البيض .

هنرى برلين

نقلها عن الانجليزية ز. ى. ع.

جولة مستطلع

فى الموسيقى والمسرح

ليس من حق الموسيقى العربية لهذا العهد أن تقوم مصدراً من مصادر الثقافة : أما الغناء الدوار على ألسنة أهل الصناعة فمرذول لما فيه من الميوعة والإسفاف وقصر المجرى ، زيادة على مسخ طائفة من الأغانى الإفرنجية ؛ وأما العزف فقد جمد وجف بفضل جماعة قصروا هممهم على التقليد ، وفى ظنهم أنهم حضنة الموسيقى .

لذلك لا بد لمن سئم الطقطوقة والموال والمارش وسائر الترهات أن ينصرف إلى سماع الموسيقى الغربية . وإنى أذكر أن فرقة إفرنجية جلبتها وزارة المعارف قبل نشوب الحرب لم تصنع شيئاً فى سبيل الثقافة ، فنشرتُ فى ذلك مقالا فى مجلة « الرسالة » نبهت فيه المسئولين على إخفاق سعيهم مبينا لهم أن نوع الأوبرة الذى أدته تلك الفرقة رذيل ضعيف . فليس بارعاً كل ما يتصل بالموسيقى الغربية ، وهؤلاء الفرنج يميزون ويحكمون ومقاييسهم آيات ملحنيهم .

ثم هذه فرقة إيطالية تهبط علينا السنة لتؤدى ذاك النوع بعينه . فكأن من وكل إليه لملمة أفرادها قال فى نفسه : « ليس فى مصر من يحسن السماع » قال هذا وربما أعجزته موازين الموسيقى الرفيعة ، فجاء بفرقة لا تتجاوب أطرافها، فيها نفر من المغنين المجيدين وكثير من المغنين الضعفاء . وقد أدت الفرقة طائفة من الأوبرات البالية والمبتذلة . وهذه الطائفة كنا بها مصابين فى مصر قبل قيام الحرب ، وأساميها لاكتها الألسنة: *Rigoletto, Lucia di Lamermoor, La Traviata, La Bohême, Aïda, Tosca, Madame Butterfly* فكلها ما عدا ***Il Barbiere di Siviglia*** ، التى تفاوت أداؤها هذه السنة ، تلحق

منذ زمن بعيد فى أوربة بنوع الأوبرة الشعبية ؛ لأن الألحان فيها لا تعدو فى غالب الأمر النغم القريب المنال . وتلك هى طريقة Verdi الإيطالى الذى ظل يعمد إلى اللحن الوجدانى الصرف تساوقه الآلات فى استرخاء ، ولم يخرج عن هذا إلا فى قطعته الأخيرة *Falstaff* إذ تأثر بطريقة Wagner ولكن هذه القطعة لم تعرض علينا هذه السنة (!) . وذلك اللون من اللحن الوجدانى عقبه ما يقال له الموسيقى الفيرية Le vérisme ، وخصائص هذه الموسيقى المأساة المفرطة والتشدق فى الغناء والمبالغة فى التعبير ، مع العجز فى التمثيل ، إرادة هز الأعصاب (على طريقة يوسف وهبى ، فتأمل !) . ومن أصحاب هذا اللون من الموسيقى Puccini الذى لحن أكثر ما عرض علينا هذه السنة ، وبئست السنة !

وليست الأوبرة الغربية السامية على هذه الصفة ، تلك الأوبرة التى نزهها Wagner وتسلمها Debussy وجماعة الروس وغيرهم من المحدثين المهرة .

إنه يحسن بالمسئولين — وكأنى بهم مسئولون بغير حق — أن يقلعوا عن أسلوب فى الاختيار مريض يجعلهم ينشطون للألحان المتداولة من سنين ، المتبثة فى الأسواق ، المسترخية فى الآذان ، المالكة فى الصدور . وإذا كان قوم كتب عليهم أن يظلوا يطربون للأغانى الافرنجية المبتذلة ، — شأن قوم أصيبوا بالاقبال على تلاحيننا العربية الملفقة — فليقدم المسئولون إليهم طرفاً من الأوبرات الضعيفة مثل *Madame Butterfly* و *La Traviata* (ولا حول ولا قوة إلا بالله !) ، على شرط أن يجلبوا لأهل الذوق السليم والبصر المديد أوبرات من اللون الرفيع بعضها من مختتم القرن الماضى وبعضها من هذا القرن . وإذا شق عليهم تعرف هذه وتلمسها فهل يسألون ويستبصرون ؟

على أن إدارة الأوبرة الملكية عوضت إخفاقها فى الموسم الموسيقى من نجاحها فى الموسم التمثيلى . ولا أدرى أعتمدت على نفسها فى اختيار الفرقة أم استشارت فى شأنها ، فلا شك أنها وفقت لفرقة فرنسية تعمل للفن الخالص أكثر ما تعمل . والحق أن ليس فى الممثلين غير الرأس وهو Jean Marchat إذ يجيد الأداء

الاجادة كلها . وأما إخوانه فيفلحون هنا وهنا ويجيدون إجادته وربما بذوها فى مواطن معينة : من ذلك أداء Lucien Pascal فى المسرحية « البشارة إلى مريم » و Jean Ozenne فى مسرحية « موعد فى سنليس » . وأما الممثلات فهن فى الجملة خير من الممثلين ، وأشهد أن Michèle Alfa فى المرتبة الأولى فى جهة تمثيل المأساة وأن Gisèle Casadesus لا تكاد تهبط عنها فى جهة تمثيل الملهاة . ولسائر الممثلات مواقف بارعة ، أذكر منها موقف A. Sapritch فى مسرحية « سأحيا حياة حب عظيم » وموقف E. Hardy فى مسرحية « موعد فى سنليس » .

ولست غامزاً بالفرقة ، ولكنى واضعها فى مكانها . وبعيد عن ذهنى أنى أنزلها عن المرتبة العليا ؛ لأن أفرادها —ما عدا ممثلة واحدة— ليسوا من مسرح « الكوميدى فرانسيز » . ففى أوهام جماعة من الناس أن فن المسرح إنما أوله وآخره بين جدران الكوميدى فرانسيز ، وأن سره بين أيدى رجالها ونسائها . وهنا أذكر أننا كنا نلهو فى باريس بالغرباء وأهل الريف إذ كانوا يستبقون إلى مقاعد الكوميدى فرانسيز مهملين المسارح التى فيها يتحرك الفن إلى جهة الكمال تأليفاً وإخراجاً وتمثيلا ، وتهب الأنسام المنعشة سواء جاءت من قلب باريس أو من أطراف أوربة ، من روسية أو النرويج أو إنجلترة أو إيطاليــة . وكانت هذه المسارح أربعة بين سنة ١٩٢٨ وسنة ١٩٣٨ وأصحابها هم Jouvet و Pitoëff و Baty و Dullin . وعلى أيدى هؤلاء لا على يدى الكوميدى فرانسيز المسترخيتين المتشققتين أدركنا كنه المسرح وبعده ولطفــه وقوته . وبتلك الأيدى الحاذقة استغاثت الكوميدى فرانسيز لتصلح شأنها وتجدد طريقتها قبيل الحرب .

والفرقة التى جاءتنا هذه السنة هى بين التشدد والترخص فى اختيار المسرحيات ، ولكنها تميل إلى الحديث فى الاخراج على ألوانه . أما ترخصها فبتمثيلها هذه المسرحيات التى يفرح بها أهل العبث والتسلى من النظارة :

de Flers et Cavaillet, *L'âne de Buridan;* Feydeau, *Feu la Mère de Madame*; M. Durand, *Bonne chance Denis.*

وأما بعض تشددها فبإقبالها على المسرحيات الاتباعية (الكلاسيك) مثل

Tartuffe و *Le Misanthrope* ، أترجمهما بالمرائى ثم النَّفور ، وكلتاهما لموليير ، ثم *Les caprices de Marianne* أو بدوات مريان وهى لألفريد دى‌سوسيه ، ثم « سأحيا حياة حب عظيم » *Je vivrai un grand amour* لـ Stève Passeur و « موعد فى سنليس » لـ Jean Anouilh ، وهذان المؤلفان الفرنسيان المعاصران من طبقة حسنة ، ولكن لهما مسرحيات خير من هاتين قد شهدتها فى باريس من سنوات ، وكأن المؤلفين آخذان الآن فى ترديد أفكارهما واستثمار طرائقهما .

ثم خطر لهذه الفرقة أن تغالى فى التشدد —وها هنا موضع فخرها— فأدت مسرحيتين هما — عندى — فى قمة فن المأساة : الأولى « حرب طروادة لن تقع » *La guerre de Troie n'aura pas lieu* لجيرودو Giraudoux صاحب الخفائف واللطائف ، وقد تكلم الأستاذ عبد الرحمن صدقى فى عدد مضى على هذه المسرحية وعرضها أتم عرض . والثانية : « البشارة إلى مريم » *L'annonce faite à Marie* [1] لبول كلوديل P. Claudel وهو أكبر شاعر فرنسى لهذا العهد . وإنى محدثك فى شأنها بعض الشئ :

قد يرى غيرى أن مسرحية « النفور » لموليير ألطف وأجذب من « البشارة إلى مريم » وأن فى هذه ثقلا وغرابة . والحق أن ما بينها هو الذى بين الملهاة والمأساة ، ثم ما بين المستمتَع به من الخارج والمحسوس به من الباطن ، وبين اللفظ الواضح المجلجل واللفظ الغامض الخافق ، وبين المعنى القريب المعلق بالشفة والمعنى المستبعد الجائل فى الضمير ، وبكلمة واحدة : ما بين النثر والشعر . أجل بين النثر والشعر وإن كانت « النفور » منظومة و « البشارة » منثورة ، وليس الشعر فى التقاطيع والقوافى .

هذا وللفرنسيين أن يعجبوا بمسرحية « النفور » ما شاء لهم أن يعجبوا لظرف فيها وللون من الغرام المتدلل أحبوه ولطريقة من النظم المحكم غلبت على أذواقهم ولبراعة فى مط الحوار . وقد جعلوا هذه الأمور كلها مقاييس وأداروا عليها فن المسرح الاتباعى . للفرنسيين أن يروا كل هذا ولهم أيضاً أن يعدوا

---

(١) ترجمها بعضهم ارتجالا « البشرى المبلغة إلى مارى » .

موليير آية أدبهم المسرحى بعد راسين أو إلى جنبه . ولكن كل هذا لا يشفع لموليير إذا قيس بكلوديل . فأدب موليير سن عهد مضى وأسلوب جمد ومن إحساس مغاير وتصور مفارق ، وفيه أشخاص يأسرهم التصنع ويبعدهم عنا لفظهم المفرغ فى قالب من النظم المبهرج . وهنا أذكر فصولا للكاتب الفرنسى البارع الفطن ستندال Stendhal كشف فيها ، عند فاتحة القرن الماضى ، عن اللغو والتكلف والمباعدة التى فى مسرحيات الطريقة الاتباعية ، وهذه الفصول منشورة فى كتاب عنوانه *Racine et Shakespeare* .

هذا ، وإنى لا أكتمك أن عينى غلبتنى فى الفصل الثانى من « النفور » ، وقد أغفى الضمير قبل أن تغفى العين ، فسألت نفسى كيف نشطت للمسرحية طول الفصل الأول : هل نشطتنى المحاسن التى تعجب الفرنسيين ، هل جذبتنى وأنا أدرى أنها قريبة الأثر ؟ فكرت ففطنت أن تزويق المسرح كان غاية فى المهارة وأنه كان طريفا جداً مستمداً من التصوير الحديث فى فرنسة ، هذا التصوير الذى عرضت له فى عدد مضى من هذه المجلة . ففى ذلك التزويق عرفت أسلوب المصورين التعبيريين Expressionnistes وبه يوحى إليك الفضاء بخطوط مستوية متراكبة ، هذه مضيئة وهذه مظلمة كأن بعضها يدافع بعضاً . وفطنت أيضاً أنى نشطت للمسرحية بفضل الثياب الفاخرة من جهة ، المستظرفة من جهة .

أما « البشارة إلى مريم » فمن مادة أخرى . وهى لم تأخذنى بمناظرها وملابسها وإن كانت محكمة . إنها لم تأخذنى ، إنها أسرتنى ، مع أنى شهدتها قبل ذلك فى باريس . والحق أن هذه المسرحية تدخل فى نطاق الأدب الذى يصفه عامة النقاد بالصعوبة والإغلاق أحياناً . وهو الأدب الممتلئ قوة وطرافة وبعداً ؛ لأن مصدره مطاوى النفس ، ومشعله حرارات الروح ، وأداته لطافة النثر النابض شعوراً الواثب خيالا ، وغايته تمجيد القوى الروحانية وتعزيز القيم الانسانية .

« البشارة إلى مريم » تتلخص فى تضحية الجسم فى سبيل الروح ، ووقف هذه الروح لعبادة الله وخدمة الدين . وإن كانت المسرحية مسيحية فهى صالحة لكل بيئة تغلب المعنى على الحس وتتطلع إلى الأسمى والأبقى .

وليس يفوتنى أن المسرحية لم تنجح فى باريس إلا من سنوات معدودة نجاحاً محدوداً ، وأنها لم تنجح فى القاهرة نجاحاً صادقاً ، إذ أقبل أكثر الناس عليها

من باب الاستطلاع أو تكلف التأنق ؛ وقد سمعت جارتين لى تضحكان وجاراً يتأفف .

هذه المسرحية تدور على سر قبلة تضعها فتاة مؤمنة تقية على شفة بناءٍ أجذم حتى تشتف من دمه المرض القتال ، فيستطيع أن يتم إقامة كنيسة تنشأ لحمد الله على مننه . وتحيا الفتاة منبوذة ، مثلومة العرض ظلماً ، وفى ضميرها راحة القديسين ومن يديها تخرج معجزات المقربين : انحلّ جسمها واشتعلت روحها ، ظلمت وحشتها وانتصر إيمانها . فهى أَمَة الله ، منه وله ثم إليه .

سيقول أهل العبث والتسلى أولئك الذين لا يستشفون دخلة المسرح وقد عميت بصائرهم عن الجد والبعد والشعر والسمو : إن هذا لا شأن له بالمسرح . ولست أناقشهم ، لأن رأيهم يمده الجهل بأصول الفن ، وذوقهم تفوته الرهافة .

وفى الجملة إن إدارة الأوبرة الملكية أتاحت لنا هذه السنة بعض المتعة فى ناحية المسرح ، ويسرت لنا الصبر على السخائف والتوافه التى لا تنفك الفرقة القومية المصرية « الرسمية » ترمى بها الجمهور المسكين المظلوم .

بشر فارس

على رمال الساحل

أيهـا الساحل يا أول أمـرى ... إعطنى الوحى الذى يشرح صدرى
هل لمن ربيتـه معنى جـديد ... لم يقـله الناس فى شعر ونثر
رائع من ثغـرك الرائـع مغر ... من محياك الذى يسبى ويغرى
ليت شعرى لم عقلى فيك خاب ... أنت يا منبـع إلهامى وشعرى ؟
أى روح قدسى ، أى معنـى ... عبقـرى ، أى خب ، أى سر
حيثما أهتف تجيبـنى هاتفـات ... عن يمينى أو شمالى أو بإثرى
فاذا وليت وجهى كى أراهـا ... هتفت خلفى وكان الأفق شـطرى
ليت لى عينين فى أذنىَّ حتى ... أشهـد التهتـاف من ثغر لثغر
ما ترانى شـاهداً إذ ذاك عرسـا ... أم مشاراً عبقريا ؟ لست أدرى
لـكأنى بالرمال البيض شبّعـ ... ـن بضـوء ثم روين بسحر
كلمـا البحر أتاهـا كاشـفاً عن ... ألف ليـل كشفت عن ألف فجر
سـطرتها الريح فى فن عجـاب ... فبـدت ثمـة سطراً خلف سطر
ضحـكات البحر موجـات حسان ... تزحم الأفـق وهذا ضحك بر
مثلما الخـلان قاما يذكران النـ ... ـادر المحـكى فى لهو وبشر
وكأن الرمل إذ مالت ذكـاء ... فضـة بيضاء قد شيبت بتـبر
ثم سـالت فهـو لألاء بهـىٌّ ... يا لعينى فى سـناه يالفـكرى
أى أيد قدسـيات قد أراقت ... ذوب شمس نضرة فى كل شبر

وحدت فوق سماء الغرب سزنا   متقلات لا بماء بل بجمر
لامستها الريح فى رفق فرفت   كرفيف الطير لكن أى طير
والصخور الصم تبدو من بعيد   فى طيوف من قنو الشمس حمر
هبطت فيها ذكاء فاقشعرت   عن ضياء قرمزى مقشعر
فكأن القلعة الشماء جن   ملهب يسبح فى جدول جمر
شفة الساحل لاحت دون عبر   ولهاة الأفق لاحت خلف عبر
والشراع انساب فى يم منير   كوكباً ينساب فى عرض المجر
خفقت أنفاس ريح الشرق فيه   فمضى يجرى إلى الغرب ويجرى
فتن الماضى وما يأتى تلاقت   حول خدر الشمس من دهر ودهر
راقصات دائرات مطرقات   شاخصات باسمات حيث تسرى
مسرح ألقى عليه الليل ستراً   من ظلام ثم ثناه بستر

محمود ادريس فهمى

من هنا وهناك

رأى شاعر فرنسى كبير
فى أحد معاصريه من الكتاب

[هذا الحديث جرى مع الشاعر الفرنسى الكبير بول كلوديل . وهو معروف لدى جميع المتصلين بالأدب الفرنسى الحديث بنزعته الدينية وتمسكه كل التمسك بتعاليم الكنيسة الكاثوليكية . وأكثر أشعاره وقصصه التمثيلية تظهر فيها هذه النزعة بوضوح. فليس بمستغرب عليه فى هذا الحديث، وهذه نزعته ، أن يهاجم التفكير الحر المطلق من القيود فى شخص أندريه جيد الكاتب الفرنسى العظيم ، وأن يلوم الحريصين على نشر أشعار الشاعر الفرنسى رامبو وتتبع آثاره .

ولهذا الحديث قيمته فى الدلالة على شدة تعارض الآراء وتطاحن النزعات مما يدل على نشاط الحياة فى الأدب الفرنسى .]

غرفة ذات طلاء أخضر فاتح وستائر فى زرقة السماء، وراءها أغطية من التل، ومصابيح جميلة ذات أغطية ينفذ منها النور ، تلك من ميزات السلام . يقرب بول كلوديل بين مقعدين ويجلس ويصيخ بسمعه ، لقد طحنته السنون فلم يعد ذلك الرجل الذى وصف بأنه « المطرقة » ، أو الإعصار العاصف ، لقد قلت حدته وتضاءلت حماسته،فهو شيخ متين البنيان ، بدين وفيه حياة .

وبعد تبادل عبارات المجاملة نفذنا إلى لب الحديث .

— رامبو؟ أفضل ألا أتكلم عنه فقد دلّله أكثر مما ينبغى . وإنى لمتألم لهذا الاستعمال ، وإنه لما يحزن النفس تلطيخ مثل هذه المؤلفات ؛ فهى شبيهة بمكان جميل يكتشفه السياح فلا نلبث أن نجد فيه القمامة وعلب السردين ، فلا يعود صالحاً للزيارة .

— هل تذكر السردين ؟ إنى أرى فى قولك خير وصف لأنصار مذهب السيريالزم .

— لقد نشرت مؤلفات رامبو كلها ، ولكن أربعة أخماس هذه

المؤلفات يجب ألا ينشر . فما ظهر منها لا يضيف شيئاً إلى مجده و إلى معرفته ، وكان جديراً أن يبقى حيث كان فى عالم الخفاء .

— فى مثل هذه الحالة الغامضة التى تلفت نظر علماء النفس وعلماء وظائف الأعضاء وعلماء الحالات المرضية إلا تجد كل شئ ضروريا ؟ . . .

— لكنى لا أجد فى حالة رامبو غموضاً . إن الرجل الكاثوليكى مثلى ، لا يجد فى حالته غرابة وليس فى رامبو ما هو مدعاة للغرابة غير شبابه وصباحته وجماله .

— ما دخل الكثلكة فى مشارب الخمر والكؤوس والغراميات غير المشروعة والمال المغتصب وطلقات المسدس وما يوجد فى مؤلفاته من فوضى وثورة ؟

— لكن هذه الثورة هى من جهة مسيحية ، وليس فى كل ذلك ماهو عجيب . إنه لواضح تماماً . ولكن العجيب أنه بلغ فى فصاحته إلى الكمال طفرة واحدة . وإنه أنشأ فى الأدب قانوناً جديداً ، وهذا مايميزه عن مقلديه الذين تنقصهم دقة العبارة والوزن . فمباحث الباحثين فيه خالية من كل قيمة .

— على أن العقل الباطن . . .

— العقل الباطن ! العقل الباطن ! إنه لا يصبر باطناً إذا أمكن التغلب عليه .

أجل ! التغلب عليه . . . فلنترك هذه الأشواك .

— إذا كنت لا تقر بمجهود تلاميذ رامبو فلعلك تهتم بغيرهم من الكتاب الناشئين ؟ إنه لمن المهم أن تخبرنى عن نظرتك إلى أولئك الذين يصدون بناء نظرية القيم الأخلاقية على الانسان وحده فى عالم تجرد من الآمال .

— إن القيم الأخلاقية هى أوامر الله وأوامر الكنيسة ، ولا توجد قيم أخلاقية أو روحية بعيدة عن ذلك ، وما يكتشفه كتابك هؤلاء هو فى نظرى حقير .

— إن مأساتهم و إخلاصهم . . .

— هذا لا يهمنى مطلقاً فليتصرفوا كما يستطيعون .

— . . .

وقد رأى علىّ علائم الاضطراب فرقت حاشيته .

— إنى مثل الديك الذى لايفهم شيئاً عن البطة . وليس الفهم من شأنى أنا ذلك الرجل الكهل . وإن عدم الفهم لجزء من صفاتى .

— ومع ذلك فان البحث عن

الصفات التى لا ترفع من شأن الانسان المسيحية لمدرسة للقوة نتعلم فيها هى عمل رجل من معاصريك وهو البطولة .

أندريه جيد .

— إنى لأمقت هذا كل المقت

— ؟ ؟ ؟

— إنى لا أعترف له بأى نوع من الموهبة.

أى قول هذا !

— إن حيرته أو ما يسميه عدم اطمئنان . . .

— ألا تظن أن هذا القول طعن فيه ؟

— . . . إن ما يغيب عن فهمى هو نفوذه . فمن الوجهة الفنية ومن الوجهة العقلية لا أرى فى جيد شيئاً . ونفوذه هو عندى موضع غرابة لا تنتهى .

— لقد قلت عنه : « إن الشر لا يخلق شيئاً ! » وهو يعترف فى مذكراته أنه لا يفهم تماماً معنى لهذه الغيبة .

— إن قواعد الدين تعلمنا أن الشر غير موجود ، بل هو عنصر مهدم وسلبى ، وأن الشر لا أهمية له إلا عن طريق الألم . فهو من هذه الوجهة عنصر خالق لا اعتراض عليه . ومن شأن جيد أن يستسلم للشهوات الرخيصة وللحاجات التى يظن أنها طبيعية بدلا من أن يخلق وسطا حيا لنفسه . إن

— وإذا كان جيد لم يؤمن ...

— ذلك لأنه يسير بغير دليل فهو يضرب مثلا سيئاً للجبن والضعف.

— إنه لا يحب أن يدافع عنه... ولكن هل تجهل شجاعته فى آرائه المتناقضة وإخلاصه لها ؟

فضحك ضحكة الاحتقار الهادئ .

— لأترك لك كلمة الاخلاص لكى ترتاح نفسك .

ونظر إلى نظرة إشفاق .

— لا تعتقد أنى أضمر لك السوء ، ولكنك توجه إلىّ أسئلة غير منتظرة ولم يكن لدى من الوقت ما أفكر فيه .

— هل هذا ممكن !

— إنى لا أريد الجدل . لقد كنت متصلا بجيد عندما كنت أعتقد فى مسيحيته وكنت أجهل عيبه الفظيع . . .

وترك إتمام عبارته فى حياء :

— أجل إلى اللحظة التى عرفت فيها . . . سقطته. ولا ريب فى أن رجال الشرطة يقاومون الذين يدسون السم للناس ، وهو ممن يدسونه . ولا أقول ذلك جزافاً ؛ فكم من رسائل جاءتنى من شبان جرهم للغواية .

ونجد دائماً جيد فى أول طريقهم للشر .

— ثم ينتهون بك .

— بعد وقت يجدون طريق الشر لا يؤدى بهم إلى شئ ، فيتجهون نحوى .

— إن جيد علمنا جميعاً قيمة الاخلاص نحوَ النفس وأضاء لنا أسباب أعمالنا .

— هل تظن أنه يقول حقا أسباب أعماله ؟ إن جيد تغلبه مناظر المرآة . وليست مذكراته إلا سلسلة من صور نفسه كما يراها حين وقوفه أمام هذه المرآة . ونحن إذا ما نظرنا إليها نتخذ دائماً موقفاً صناعيا، فمذكراته من هذه الوجهة هى صرح من عدم الاخلاص .

— إن فى كتابات جيد صفحات عديدة تدل على القلق، ولا أزال أذكر عبارة يقول فيها تقريباً ما يأتى : إذا كنت قد امتنعت بعض الوقت عن كتابة هذه المذكرات فذلك لأن الكتابة تجعلها أقل إخلاصاً ، وهذا دليل على موقفه الأدبى .

— إنه يفتح جرحه بريشة طائر صغير ، أما المأساة الأساسية فى حياته فهو لا يتكلم عنها .

— يكفى القارئ أن يعرف أن هنالك مأساة أساسية .

— أما عيبه الخطير . . . عيبه . . . الطبيعى فانه لا يكاد يشير إليه .

— ولكن هذا غير حقيقى بعد ما كتبه . . . وبعد كتابه « إذا كانت البذرة لا تموت » .

ولكن هل أسمع من لا يريد أن يسمع ؟

— إنى أحارب هذا التأثير بكل الأسلحة لدى ، فماذا تريد؟ نعم أو لا .

— وإذا كنا نجمع بين نعم ولا؟

— لا أفهم ما تعنى .

واعتقدت أن الحديث قد انتهى . ولكن كلوديل أضاف إليه كأنه على سبيل الانتقال :

— إن كل هذا لا يهمنى؟

— إذن ماذا يهمك .

— الصعوبات التى تجدها المظاهر الفنية فى فرنسا؛فان لدينا وزارة للفنون والآداب لخدمة الفن كما يقولون ... وقد أنشئت إدارة فيها مئات من الموظفين ، ومع ذلك تفرض ضرائب تخنق هذه الفنون . وخير مثل لذلك مايجرى فى الكوميدى فرنسيز . فأربعة أخماس البرامج يجب إلقاؤها فى سلة القمامة . فهم يمثلون «رى بلاس» ولابيش وأية قيمة لهذا وفى زمن مسيو فودوابيه كانوا يخرجون مؤلفات

عظيمة « كالملكة المتوفاة » و «الحذاء من الحرير » فما أن رحل مسيو فودواييه حتى أصدر مسيو ديكس أمراً بالعدول عن إخراج « الحذاء من الحرير». ولازلت أسائل عن السبب. وقد أنفقت ملايين فى سبيل تجديد مسرح الأوديون وهذا أكبر سخرية. فقد وضعو متراً من الأسمنت المسلح تحت المسرح ، فصار من غير الممكن تمثيل « الحذاء الحريرى » لأن السفينة التى قد تغرق على المسرح لا يمكن أن تخترق الأسمنت المسلح .فأنت ترى أنه ليس لدى الوقت للتجارب إذ يجب أن أحافظ على أملاكى وأسهر على نتاجى وهذا زمنه.

وخرجت . . . أستنشق الهواء وأسير على غير هدى.

وبعد أن تخلصت من دهشتى لا من ذاكرتى ، رأيت بيتاً من الشعر يسرح إلى ذهنى ، بيتاً بسيطاً رناناً براقاً ، وهو من أشعار بول كلوديل ، وكان مصرا على البقاء فى الذاكرة كأنه تفسير لما حدث وهو:

إنى أسكن من إمبراطورية قديمة خرائبها الأساسية.

عن الفرنسية

دومنيك اربان

محاضرة فى سر الزخرفة العربية

دعا الأستاذ المستشرق كونتز مدير المعهد الفرنسى للآثار الشرقية يوم الخميس ٢٩ مايو نخبة من الكبراء والأدباء إلى الاجتماع بدار المعهد لسماع البحث الذى افتتح به الدكتور بشر فارس أعماله فى المعهد على أثر تعيينه فيه عضواً مصريا.

وكان موضوع البحث يدور حول حكمة الزخرفة العربية واتصالها ببعض العقائد والمواقف الفكرية الاسلامية. فبين لنا الباحث بأسلوب فرنسى دقيق وشعرى فى آن واحد كنه هذه الزخرفة ، ففصل « الأرابسك » والتهذيب والتحوير والخط وأتى بألفاظ ومصطلحات جديدة بالفرنسية والعربية ، منها « الرمى » و« الخيط » لنوعين من أنواع التزويق. وقد أرجع كل ذلك إلى حياة روحية صرفة مستشهداً بآيات وأحاديث ، أنتجت

تصورات خاصة بين دينية واجتماعية .

ثم دلل الباحث على ماذهب إليه بعرض صور ناطقة إسلامية ثم مسيحية، وبخاصة قبطية تأثرت بروح الزخرفة العربية .

فجاء البحث غاية فى الطرافة والتدليل الصحيح ، وهو يعتبر اتجاهاً جديداً قائماً على الفلسفة وما بعد الطبيعة فى فهم الفن العربى الاسلامى .

م . ك

شهريات

شهرية السينما

لمحات

إن الموسم السينمائى فى مصر لقصير جداً ، فهو يمتد من شهر نوفمبر إلى شهر أبريل على الأكثر . وبابتداء الصيف نجد شبه ركود يشمل جميع نواحى النشاط السينمائى . والآن وقد انقضى موسم ١٩٤٦ — ١٩٤٧ نستطيع أن نلقى نظرة إلى الوراء لندرس درساً سريعاً الأفلام التى عرضت علينا فرنسية كانت أو مصرية أو أمريكية ونقدرها حق قدرها . ولست أرمى بهذه الدراسة إلى الحكم على الانتـــاج السينمائى فى بلاد العالم المختلفة التى تجهد فى هذا المضمار ، بل لأعرف أأتى لنا هذا الموسم بجديد فى ميدان السينما أم لا،لا من الناحيةالصناعية فحسب ، بل من الناحية الفنية أيضاً .

إن الذين اتبعوا أنباء مهرجان السينما الذى أقيم فى مدينة كان فى شهر سبتمبر ١٩٤٦ يعلمون حق العلم أن الأمم جميعها تسابقت إلى عرض أجود ما أنتجته ستوديوهاتها ، ويعلمون أيضاً حق العلم أنه لم يعرض فى القاهرة إلا عدد قليل جداً من هذا الانتاج الضخم الذى تقدمت به الأمم إلى هذا المهرجان. ومع أن دور السينما فى القاهرة والاسكندرية عديدة بحيث تستطيع أن تعرض على الجمهور المصرى أكثرية الانتاج السينمائى الذى عرض فى كان نجد أن هذه الدور لم يتح لها إلا عرض خمسة أفلام منه وهى : «عطلة الأسبوع المفقودة » ، « الحجاب السابع » ، « ماريا كاندلاريا » ، « الحسناء والوحش » ، « الوطن » . وقد يزعم بعضهم أن الموسم السينمائى فى مصر قصير جداً بحيث لا يمكن عرض الكثير من أفلام السنة الماضية ، ولكن أرى أن الموسم كاف لعرض أحسن هذه الأفلام وأجودها صناعة وفنا إذا لم يمتد عرض بعض الأفلام الضعيفة السقيمة أسابيع وأسابيع تكون فيها دور العرض خالية من الشاهدين تماماً . ودور العرض تضطر إلى هذه الاطالة

لأن ثمة سيطرة أجنبية على توزيع الأفلام فى الشرق، وهذه السيطرة تنفرد بها دولة واحدة ؛ فهى تشترى أفلام الدول الأخرى الأقل إنتاجاً وتتصرف فيها كما يتراءى لها، فهى تهيئ لانتاجها ربحاً كبيراً وتفرض على المصريين أسقم ما أنتجته وتطيل عرضه بحيث لا تسمح للأمم الأخرى بعرض أفلامها إلا لمدد قصيرة . ولولا هذه السياسة الباطلة فى توزيع الأفلام لشهدنا فى مصر أفلاماً فرنسية مثل « صراع القضبان » أو « السنفونية الريفية » أو « أبناء الفردوس » وأفلاماً انجليزية مثل « قيصر وكليوباترة » أو « إياك والشفقة » وأفلاماً إيطالية مثل «شوشا » أو « روما مدينة مفتوحة » .

فماذا عرضت علينا تلك الدولة التى تسيطر على توزيع الأفلام فى السوق الشرقية ؟ أو إن شئت ما هى الأفلام التى سمحت بأن تعرض علينا ؟ لقد شهدنا إلى جانب الأفلام الخمسة التى عرضت فى كان أفلاماً أخرى قليل منها جيد ، وكثيرها ضعيف لا حياة فيه . فالأفلام الأمريكية قد اتجهت فى هذا الموسم اتجاهاً نفسياً . فقد عرضت علينا « المسحور » ، وهو لا يمكن أن يعد فيلماً ذا قصة ، وإنما هو محاضرة فى معالجة مرض البارانويا ، وقد تلا هذا الفيلم « خطابات غرامية » وتدور حوادثه حول فتاة فقدت الذاكرة وهى قصة ممتعة وإن لم تكن ذات موضوع طريف . ولكن ما يمكن أن يعد أحسن الأفلام الأمريكية قصة وتمثيلا هو فيلم « عطلة الأسبوع المفقودة » الذى يدرس نفسية مدمن الخمر ويحللها تحليلا دقيقاً . وقد نجح المخرج والممثل فى عرض هذا التحليل فى السينما دون أن يشعر الشاهد بأى ملل . وهذا مما يعد براعة فنية قليلة المثيل . أما الأفلام الأخرى التى عرضتها أمريكا والتى تهتم بنواح أخرى من الحياة الانسانية فلا أجد منها ما يستحق الذكر إلا « سعادة مغتصبة » و « كل ونصيبه » وذلك لتمثيل ممثلتيهما بيت دافيز وأوليفيا دى هافلاند ؛ و « أجراس سانت مارى » وهو ذو موضوع طريف يدرس بعض مشاكل التربية والتعليم ، و « حد الموسى » وهو قصة لسمرست موجام . ومما يحمد عليه المنتجون الأمريكيون اهتمامهم فى أفلامهم بالقيم والمشكلات الانسانية .

أما الأفلام الفرنسية فأكثرها يتجه اتجاهاً اجتماعيا ، ولم يتح لنا أن نشهد مما أنتجته فرنسا إلا القليل من أفلامها الجيدة مثل « الحسناء والوحش » وهو فيلم ذو إخراج فنى

متقن وتصوير رائع ، وفيلم « الوطن » وهو يمتاز بأداء متقن وتصوير جيد أيضاً ، و « سحر » ، الذى عرض فى الشهر الماضى ، وهو فيلم يصور عقلية أهالى مقاطعة الأوفرنى L'Auvergne فى فرنسا تصويراً دقيقاً بارعاً .

وقد رأينا أخيراً فيلما فرنسياً يصور لنا كيف يخفق فى عمله الفنان مها عظم شأنه ، وعلا قدره ، وذاع صيته لا فى بلده فقط ، بل فى بلاد العالم أجمعها . والجمهور حينما يرى اسم هذا الفنان ، يرى نفسه فى لهفة إلى مشاهدة أثره الفنى ، فيسعى إلى دار العرض ليشاهد فيلمه فيخرج البعض آسفا على ما فقد من وقت فى المشاهدة ، فى حين يخرج البعض الآخر ، وقد سحره اسم الفنان اللامع ، فلم ير فى القصة عيباً ، ولا فى الاخراج مأخذا ولا فى التمثيل ضعفاً . والفنان بل الفنانون الذين أتكلم عنهم هم : كريستيان جاك ، جان ماريه ، وفيفيان رومانس فى فيلم « كارمن » . نشهد فى هذا الفيلم كريستيان جاك يجنح إلى محاكاة الامريكين فى الاخراج ، فيخفق إخفاقاً ذريعاً ؛ ونرى فيفيان رومانس تمثل دور كارمن ، فلا تؤدى الشخصية التى رسمها المؤلف ، بل الشخصية التى شاءت أن تمثلها ، وبهذا تخفق هى أيضاً إخفاقاً ذريعاً . وبهذه المناسبة أريد أن أقول لفيفيان رومانس ، إن التمثيل شئ ، والتهتك شئ آخر ؛ ونرى أخيراً جان ماريه لا يمثل بل يسرد دوره سرداً مملا ، فلا يصيب هو الآخر إلا إخفاقاً ذريعاً .

وقد جاءنا هذا الموسم بأفلام أمتين لم نشهد قط إنتاجهما السينمائى من قبل وهما إيطاليا والمكسيك . وقد تكلمت فى الشهر الماضى عن « صورة ماريا كاندلاريا » التى تقدمت به المكسيك إلى مهرجان كان فحازت جائزة التصوير . أما الأفلام الايطالية التى عرضت علينا فهى أفلام ذات قصص غنائية تدل على أن إيطاليا حديثة عهد بصناعة السينما ؛ فالتمثيل والاخراج لم يتحررا بعد من الطابع المسرحى ولو أنهما على شئ من الجودة فى بعض الأحيان . وقد نعيب على السينما الايطالية أنها لم تقدم إلا المثلين أنفسهم فى جميع أفلامها فيبدو للشاهد أن التمثيل السينمائى لم ينهض فى تلك الأمة ما دام المثلون فيها يؤثرون المسرح على السينما .

وقد عرض فى هذا الموسم قليل من الأفلام الانجليزية مع أنها أرفع فناً وأجود صنعاً من الأفلام الأمريكية .

فلم نشهد منها إلا « القناع السابع » وقصته تحليلية متقنة وتمثيله من ذلك النوع الذى يخلب النفوس ؛ «والقافلة» وهو فيلم يصور حياة البوهيميين ؛ وثالثاً لم يعرض فى القاهرة للآن مع أنى شهدته فى الاسكندرية فى شهر فبراير ، وهو « إياك والشفقة » وقصته مقتبسة من رواية لستيفان زفايج .

أما الأفلام المصرية فلا مكان للحديث عنها بعد أن خصصت لها مقالا فى السنة الماضية [1] ولم يغير من رأيى فيها ما أنتجته الستوديوهات فى هذا الموسم .

ومهما يكن من عدد الأفلام الممتازة التى عرضت علينا فى موسم ١٩٤٦ — ١٩٤٧ ، فإنى أرى أن نصيب مصر من الانتاج العالمى الجيد ضئيل جداً فى حين نرى دور العرض مزدحمة بالأفلام الأمريكية فحسب ، فنحن نريد أن نشهد أفلاماً فرنسية و إيطالية أكثر مما شهدنا ، نريد أن يكون فصل الصيف غنياً بالأفلام الجيدة وألا يعرض علينا تلك الأفلام البوليسية الرخيصة التى تفرض علينا فرضاً لمدة أربعة شهور طوال ، فلست أرى مسوغاً فى أن تحرمنا المزاحمة التجارية الاستمتاع بالانتاج الفنى الخالص . فلتتزاحم الدول تجارياً بعيداً عن الفن .

رشدى كامل

(١) « انطباعات من السينما المصرية » . الكاتب المصرى عدد ١٢ (سبتمبر ١٩٤٦) .

من كتب الشرق والغرب

LA PATRIE SE FAIT TOUS LES JOURS

ETIEMBLE

الوطن يخلق كل يوم*

منذ ظهر المنشور الشيوعي من نحو قرن ، ساءت سمعة الوطنية . وبينما كان البعض يعلمنا أن « لا وطن للعمال » ، كان الآخرون يؤكدون لنا، وهم يصوبون غدارتهم إلى رءوسنا ، أن العمال لا يملكون إلا وطنهم . وأمست الأوطان منكرة تحت ضغط الدوليات الاشتراكية من ناحية ، والدوليات الفاشية الاستبدادية من ناحية أخرى . وأخذ المرء يعلن — على أسوأ الفروض قوميته (بشرط أن تكون قومية تامة). أما الوطنية فقد صارت شيئاً قديماً يثير السخرية .

وإن من أروع نتائج هذه الحرب وما صحبها من الاستبداد النازى ، لهو عودة الوطنية إلى القلوب التى كانت قد نفرت منها . وقد قال فرنسوا سورياك ، ولكلامه اعتباره بوصفه بورجوازيا وكاثوليكيا ، إن طبقة العمال فى بلادنا قد ضربت أعظم مثل للوطنية الخالصة. وعندما قام هتلر يناهض الأوطان ليقيم أوربا التى عمها الضباب والظلام ، أثار بذلك الأوطان على أوربا ، و بينما نرى التروتسكيين يسجلون هذه القوة الجديدة ويأسفون لها ، نرى الأحزاب الستالينية تطالب بالسيطرة عليها .

فما هى هذه الوطنية التى تلوكها الألسن اليوم ، والتى يريد كل واحد أن يحتكرها لنفسه ؟ أنا لا أعرف صفحات — فيما يختص بهذا — أدق وأوضح من تلك التى كتبها جان بولان Jean Paulhan مقدمة للنصوص الفرنسية التى جمعها هو ودومينيك أورى Dominique Aury من بين أروع ما ظهر أثناء

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصرى » .

لحرب(١). وهو يقول إنه جمعها للأطفال ، وإن المرء يتمنى أن يصير جميع الكبار أطفالا ، ولو لمدة نصف ساعة ، ليقرءوا هذه الأفكار . وبولان لايخدع فى كلامه ، فهو يقول : «هناك أكثر من مؤلف وطنى يشبه آلة حربية ، معدة للحرب ضد بلد ما ، ضد النرويج أو ضد التبت ، ثم إنك لواجد فى تلك المؤلفات كل أنواع المدح مختلطة مضطربة ، وهى على العموم يناقض بعضها بعضا . فاذا كانت جان دارك تحسن إذ تنصت لما تسمعه من أصوات ، فان فولتير يسىء إذ يسخر من جان دارك المنصتة لأصواتها . وإذا كان لنا أن نفخر بنابليون فلا يجدر بنا أن نفخر أكثر من اللازم بالقديس فرنسوا دى سال Saint François de Sales ثم إنه لا يمكن فرنسا أن تكون فى الوقت نفسه ابنة الكنيسة وأم التفكير الحر ؛ ولا أن تكون ضيعة الملوك الكابتيين Capétiens ومسيح الأمم . فلا بد لنا من اختيار أحد الجانبين » .

وبعضنا يؤثر نابليون على القديس فرنسوا دى سال ، والبعض الآخر يؤثر القديس فرنسوا دى سال على نابليون . وهكذا يقتطع كل واحد من وطنه ، وطناً عقليا ، وطناً مسبباً معقولا فلا يلبث أن يصبح غير معقول .

« فالجمهوريون فى عام ١٨٧٠ لم يغضبوا عندما هزم نابليون ، كما لم يغضب الرجعيون فى عام ١٩٤٠ عندما دحرت الجمهورية . » والعاطفيون على صواب إذن حينما يزعمون أنه ليس وطنياً ، ولن يكون وطنياً ذلك الذى لا يحب بلده إلا لأسباب معينة .

وهناك فى الواقع نوع آخر من الوطنية ، لا يهتم إطلاقاً بالرسالات أو بالمبادئ ، « ظل خفيف منعطف ، هو ظل جدتنا وهى تهرع للقائنا حين تدخل . . . بيت صغير (غير منظم) شمس غاربة ، رقة فى الهواء (الذى نتقاسمه عن رضا) ، امرأة لا تريد مطلقا أن نتقاسمها » ، كل هذا يكون دوافع تلك الوطنية ، دوافع يصدرها القلب والسمع والنظر والشم : عبير أزهار الغابة ، أو عطر الياسمين أو « الجاردينيا » . لقد عرفت شخصاً مات فى دنكرك لأنه كان يحب رائحة ذلك الهواء الخانق المندفع من فتحات التهوية على حافة أفاريز النفق التى يسير بها المترو بباريس .

« فعلى المرء إذن أن يمزج فى نفسه

---

(١) Jean Paulhan et Dominique Aury: *La patrie se fait tous les jours.* Textes Français 1939-1945. Les Editions de Minuit, 1947.

بين العقل والعاطفة ليكون وطنيا حقا، عليه أن يحب وطنه كما هو . كما عليه أيضاً أن يريد لوطنه أن يصبح وطناً آخر ، وأن يصمم على أن يخلق منه وطناً عادلا ومعقولا ، ولكن عليه مع ذلك أن يحب وطنه ولو كان غير عادل أو غير معقول . وبالاختصار عليه أن يعبده ، ولكن لا يجدر به أن يخضع له دون أن يحاول التأثير فيه . »

وسواء أكان أولئك المؤلفون الستون الذين حشدوا فى ذلك الكتاب عقليين مثل جوليان بندا Julien Benda أو عاطفيين مثل جان جيهينو Jean Guéhenno ، أو ممن جمعوا بين العاطفة والعقل مثل جان بولان Jean Paulhan فانهم جميعاً كانوا طيلة خمس سنوات يخلقون الوطن من جديد كل يوم . « ومن الخير أن نفتح ذلك الكتاب حيثما اتفق ، كما تفتح ديواناً من الشعر ، ثم تدعه بعدئذ . ومن الخير أن تحتفظ به فى متناول اليد وأن تقلب صفحاته فتحنق عليه حيناً وترضى عنه حيناً آخر ، وأن تثق بما يثير فيك من آراء أكثر من ثقتك بما يحتويه من آراء . وسترى هكذا أنه كتاب مشوق إلى أقصى حد ، بل سترى أنه كتاب مثير . » ومن الخير — بعد أن تتعرف عليه بهذه الطريقة — أن تعاود قراءته من أول سطر إلى آخر سطر ، كما تفعل بالروايات البوليسية ، من الخير أن تقرأه من أول المقالات التى كتبت عن ميونخ إلى تلك التى كتبت عن الجمهورية الرابعة. فميونخ ، ومهزلة الحروب ، والاحتلال والنفى ، والثورة ، والتحرير ، هى فى الواقع مأساة ذات فصول ، إذا كان من الممكن أن تنتهى مأساة بانتصار الخير .

نعم ! إن عدداً كبيراً قد جاءه التحرير متأخراً جداً ، فجاك دوكور J. Decour لم يعد بيننا إذ قتله النازيون رمياً بالرصاص . ومات فرنسوا فرنيه F. Vernet فى معسكر داشاو . ومات كذلك ماكس جاكوب M. Jacob فى معسكر درانسى ، وقتل جان بريفو J. Prévost فى المقاومة السرية ، وأما جان كاسو J. Cassou وأندريه مالرو A. Malraux وجان بولان J. Paulhan ، ولويس شوفييه Louis Martin-Chauffier فقد نجوا من الموت ولكنهم لم ينجوا جميعاً من العذاب. ونستطيع أن نقول هذا الشئ نفسه عن جميع الكتاب تقريباً الذين ثبتت أسماؤهم فى لوحة الشرف للآداب المعاصرة . « وأنا أعرف أن هناك من يقول : لقد ماتوا فى سبيل شئ تافه . فما كانت بعض المعلومات (التى لم

تكن دائماً مضبوطة) تستحق أن يضحى المرء من أجلها بحياته ، ولا كان منشور أو جريدة سرية (سيئة التأليف أحياناً) تستحق أن يموت المرء فى سبيلها . فالى من يقول ذلك أقول : لقد ضحوا بحياتهم لأنهم كانوا فى جانب الحياة ، لأنهم كانوا يحبون أشياء قد تبدو تافهة كبعض الأغانى وبعض البسمات . و يمكنك أن تضم يدك على نحلة حتى تقضى عليها، ولكنها لن تموت دون أن تلدغك . وستقول إن ذلك أمر تافه . نعم! إنه لأمر تافه ، ولكنها لو لم تلدغك ، لكان النحل كله قد فنى منذ زمان طويل . مات أولئك الكتاب لأنهم كانوا يحبون الحياة ، وذلك الحب هو سبب ما تجده فى كتاباتهم من جد واضح ومن سهولة بل من خفة أحياناً . ويكتب سارتر Sartre كثيراً عن فكرة الموت هذه دون أن تخونه شجاعته لحظة واحدة : « كنا نجعل من النفى والأسر ، والموت بصفة خاصة ، (هذا الموت الذى نخفيه بمهارة فى الأوقات السعيدة) موضوعاً دائماً لاهتمامنا ، وكنا نتعلم أن تلك الأشياء ليست حوادث يمكن منعها ، أو تهديدات دائمة خارجة عنا ، ولكنها نصيب لنا وقدر مكتوب علينا ، وأصل لوجودنا كأفراد من بنى البشر . وكنا نعيش فى كل لحظة تلك العبارة العادية « الانسان فان » ، كنا نحياها بأوسع ما تشتمل عليه من معنى . وكان اختيار كل واحد منا لطريقه اختياراً صحيحاً ، لأنه كان يحدث فى مواجهة الموت ، ولأنه كان يفضل الموت على الهوان . . . »

وترى اللهجة متغيرة فى كتابات جان برفو ، ولكن العزم والتصميم لا يتغيران . ففى إحدى أغانيه يقول :

لست بآسف على شئ
و إنى لراض بنصيبى من الدنيا
فقد عشت عيشة هنيّة
وذلك الذى أفعمت نفسه
بثلاثة أطفال وامرأة
يستطيع أن يموت عارياً
وهو راض

أتريد أن يفيض المرح على رسمى الدارس ؟
فليحمل اسمى قارب ذو مجدافين
ولتكن له سارية وشراع مثلث
وليكن خفيفاً رقيقاً جميلا

لقد قيل إن كل شئ فى فرنسا ينتهى بالأغانى . وفى هذه المجموعة يبدأ كل شئ بأغنية مثل أغانى أراجون الرائعة، وأغانى سيبرفييل Supervielle

الشجية . وكل شئ ينتهى بالتعذيب والموت . (وما أعجب أن تكون رءوس النصوص المجموعة هنا ، قصيدة محطمة أو قطعاً متناثرة من إحدى الأغنيات : باريس الحزينة ، نشيد النار ، أسلحة الألم ، مباركة البؤس ، سرب ميت ، خير من الغار على الرءوس ، خلود من لم أرهم . . .)

وإن المزايا الأدبية لما نقرؤه فى هذا الكتاب لهى جديرة بتلك القصيدة ولقد جمعه جان بولان تحدوه تلك الارادة القوية الطيعة التى سمحت له بأن يصدر تباعاً أو فى وقت واحد هذه المجلات : *La Nouvelle Revue Française, Mesures, Commerce, Les Cahiers de la Pléiade.*

وإنا لواجدوه بأكمله فى هذا الكتاب حيث نراه كريماً ولكن فى غير تنزل عن حقوقه ، وطنياً وحراً ، كلاسياً ومقداماً . إنه هو بمثابة الضمير فى آدابنا . وها نحن أولاء ، قد عرفنا أخيراً أننا كنا مخطئين فى قولنا : المشاعر الطيبة تنتج أدباً ضعيفاً ، وإنه لكتاب رائع (ولكن هل لى أن آسف على أن بعض الكتاب مثل René Char [1] واثنين أو ثلاثة آخرين قد تخلفوا عن هذه المجموعة ؟)

وتبقى لنا أمنية ، هى أن تحتفظ الجمهورية العاملة اليوم فى وضح النهار بفضائل الجمهورية التى كانت تعمل فى الليل وفى الصمت ، كما قال سارتر ، أن تحتفظ بفضائل الجمهورية التى كانت تعد لنا أياماً سعيدة مشرقة ، ولنتمن أن تكون أيامنا المقبلة سعيدة مشرقة .

ابتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) أصدر René Char منذ قليل يوميات ضابط فى القوات الفرنسية الحرة بعنوان *Feuilles d'Hypnos* .

من وراء البحار

أسبانيا ووراثة العرش

تقاوم الدول الكبرى النظام الذى أقامه الجنرال فرانكو فى أسبانيا ، وهو الذى ظل قائماً حتى الآن بالرغم من انهيار الدكتاتوريات الأخرى. وقد أعربت هذه الدول أكثر من مرة عن رغبتها أن ترى انتهاء هذا النظام . واتخذت قرارات عدة أخذ بعض هذه الدول الكبرى فى تنفيذها جدياً ، ولم يعمل البعض الآخر على تنفيذها إلا ظاهرياً . ولقد رأى الجنرال فرانكو أنه لابد من أن يتخذ خطوات فى سبيل تغيير نظامه ، حتى يستطيع تحويل الدول الكبرى عن خطتها فى مقاطعة أسبانيا والتضييق عليها تجاريا وماليا . ولذلك انتهز فرصة الاحتفال السنوى الثامن بانتصار الوطنيين الأسبانيين فى الحرب الأهلية وهو يقع فى ٣١ مارس ، فأعلن مشروعه عن وراثة الحكم . وتقول مجلة « العالم اليوم » الانجليزية — فى عدد مايو سنة ١٩٤٧ — إن هذا الاعلان جاء بعد إحدى الاذاعات الطويلة التى اعتاد الزعيم أن يلقيها على مسامع الشعب الأسبانى . وهو يدل على أن الزعيم واثق تمام الثقة بنفسه ، وأنه يطمع فى إقامة نظام صورى يقف وراءه النظام الحاضر . وهو فى الواقع يرد بعد سنتين على بيان دون خوان الذى يدعى العرش ، إذ أعلن من لوزان فى سنة ١٩٤٥ أنه لايقبل فرانكو ولا نظامه .

ويدل هذا المشروع للوراثة ، الذى قرئ على أثر حديث الزعيم ، على أن لا غرض له إلا إقامة ملوكية صورية . ففى المادة الأولى يصف أسبانيا بأنها دولة « كاثوليكية اشتراكية » ستكون مملكة بحسب تقاليدها ، وأن الجنرال فرانكو هو رئيس هذه الدولة . ومعنى ذلك أنها ستكون دولة ملوكية بلا ملك على مثال نظام هورتى السابق فى المجر ، أو أنه ابتداء عهد أسرة جديدة يؤلفها فرانكو على طريقة نابليون .

وتنص المادة الثانية على إنشاء

مجلس للدولة يساعد رئيس الدولة فى الأمور الهامة . ويرأس هذا المجلس رئيس مجلس الكورتيز ويتألف منه ومن الكردينال الأول أو رئيس الأساقفة الأول ، وأكبر رؤساء الجيش مركزاً ، واثنين أو ثلاثة من عظماء الدولة ، وممثلين ينتخبهم أحزاب المهن الكبرى فى مجلس الكورتيز .

ثم تنص المادة الثالثة والرابعة على من يخلف الزعيم فى حالة وفاته أو عدم قدرته على العمل . وهذا الشخص يجب أن يكون من دم ملوكى له حقوق سابقة ، وتتوافر فيه الشروط المطلوبة فى قانون الوراثة ، ومنها القسم على الاحتفاظ بالقوانين الأساسية للنظام الحاضر . ومع ذلك يوجد نص بأنه إذا كان مجلس الدولة والحكومة مجتمعين يقرران أنه لا يوجد من تتحقق فيه الشروط المطلوبة أو أن الشخص المعين لا يقبله مجلس الكورتيز فانه يقترح إقامة وصى فى هذه الحالة .

وتنص المادة السادسة فضلا عن ذلك على مجلس وصاية إذا خلت رياسة الدولة .

وتعلن المادة السابعة أن لرئيس الدولة فى أية لحظة أن يختار من يخلفه . وهذا النص ينطوى على نوع من الدعوة لدون خوان بأن يعود إلى أسبانيا كملك على أن يخضع لشروط فرانكو . ومما يلاحظ أن اسم دون خوان لم يذكر مطلقاً ولم يشر إليه فى الوثيقة بأكملها . ومما هو جدير بالذكر أن حزب الفلانج لم يذكر أيضاً . ويظهر أنه خرج تدريجياً من ميدان السياسة ولو أن روحه لا تزال قائمة ، وقد حضنت الحكومة برنامجه الاجتماعى .

ولقد أعلن نبأ هذا المشروع لدون خوان فى مقامه بأستوريل قبل ساعات من إعلانه ، ولكن لم يذكر له بأن الزعيم سيعلنه فى ذاك المساء . وكان رد دون خوان طبيعيا ؛ فانه شهر بهذه الحركة فى صراحة ، وقال إن نظام الوراثة المقترح باطل إذ ينقصه أمران هما أن الوريث الشرعى للعرش لم يؤخذ رأيه ، وكذلك لم يؤخذ رأى الأمة الأسبانية . كما أن فكرة الملوكية الانتخابية لا تتفق مع أساس التاج الأسبانى .

الأدب الأمريكى فى سنى الحرب

استعرض الأستاذ فريد ميليت ، من جامعة وزليان بالولايات المتحدة ، الأدب الأمريكى بين سنتى ١٩٤٠ و١٩٤٥ فى مجلة « أنجليش » التى تصدرها الجمعية الانجليزية فى بريطانيا ، فقال : إن العلاقات الثقافية بين بريطانيا وأمريكا تعطلت بسبب الحرب فلم يكن بينهما ذلك الاتصال الوثيق الذى كان قبل سنة ١٩٣٩ . وتضاءل عدد الكتب البريطانية التى تنشر فى الولايات المتحدة حتى كاد لا ينشر منها شئ . وفى الوقت نفسه كان الناشرون من البريطانيين لا يقدمون على نشر الكتب الأمريكية فى بريطانيا . فكتاب جلنواى وسكوت المسمى «الصقر الزائر»(١) الذى نشر فى أمريكا سنة ١٩٤٠ لم يظهر فى انجلترا إلا فى سنة ١٩٤٦ . ثم أدت أزمة الورق فى بريطانيا فضلا عن الاقبال الشديد على القراءة إلى أن نفدت طبعات الكتب الانجليزية قبل أن يستطيع القراء الأمريكيون أو المكتبات الكبرى أن تحصل على نسخ من هذه الكتب . وكان الأمر كذلك فيما يتعلق بالكتب الأمريكية .

ويمكن أن يقال بوجه عام إن الحرب كان لها تأثير فى إضعاف العناية بالفنون والآداب . وإذا كان من أغراض الحرب المحافظة على الحضارة ، فان كل شخص كان مضطرا إلى أن يراجع أهمية ما يعنى به فى هذه الأزمة . وإذا كان من واجب الكاتب أن يكتب ومن واجب المصور أن يصور ، فان هؤلاء لم يكونوا يجدون الهدوء الذى يتطلبه عملهم . ولقد قامت حكومة أمريكا كما فعلت حكومة انجلترا ببعض المحاولة للانتفاع بمواهب الكتاب والفنانين فى متابعة الحرب ، ولكن فى الغالب كان العلماء فى العلوم السياسية والنفسية بل الجنسية أنفع فى الحرب من الأدباء الخالقين . ولقد التحق كتاب كثيرون بقوات الجيش العامل ؛ وإذا كانوا قد احتجزوا تجارب قيمة ، فانهم لم يكونوا أحراراً فى متابعة عملهم الأدبى ولذلك لم ينتجوا كثيراً . ومن الأمور التى تلاحظ فى الحروب اهتمام القراء والناشرين بالكتب التى تعالج الحرب نفسها ،

---

(١) Glenway Wescott, *Pilgrim Hawk*

وبالكتب والروايات التمثيلية والسينمائية التى تؤدى مؤقتا إلى الابتعاد عن الضغط النفسى والعاطفى للأزمة القائمة . ومما يلاحظ فى أمريكا أن الهوة بين المثقفين والعاديين من القراء أوسع منها فى فرنسا بل ربما كانت أوسع منها فى بريطانيا . وقد أدى جو الحرب فى أمريكا إلى اتساع تلك الهوة بدل إزالتها .

ولقد تمكن كتاب من المعروفين من الاستمرار فى الكتابة والنشر بالرغم من جو الحرب غير الملائم للفنون ، كما أخرج الناشرون سيلا من الكتب له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بالحرب .

ويلاحظ أن الكتاب القدماء الذين لهم اسم ثابت فى عالم الأدب لم ينتجوا كثيراً فى هذه الفترة ؛ فلقد نشر شيرود أندرسون كتاباً سماه « مدينته »[١] قبل موته فى سنة ١٩٤١ بعام واحد ، ونشرت له مذكراته فى سنة ١٩٤٢ وكلاهما لا يضيف شيئاً لشهرته . وكتاب « سفيرة والفتاة الأسيرة »[٢] الذى نشرته ويلا كاثرز سنة ١٩٤٠ والذى يتكلم عن العلاقات بين الأجناس فى الجنوب الأمريكى ، لم يجتذب القراء كما اجتذبتهم قصصها الأولى التى صارت من عيون الأدب الأمريكى . على أن أرنست همنجواى فى كتاب «الذى يقرع من أجله الجرس»[٣] (سنة ١٩٤٠) ولقى نجاحاً كبيراً لدى القراء ولدى الناقدين وزاده نجاحاً إصدار القصة فى السينما سنة ١٩٤٣ . وظهر لماريان مور مجموعتان من الشعر قوبلتا مقابلة حسنة . كما أظهر الناقد ولاس ستيفنس فى كتابيه « مذكرات نحو الوصول إلى فن للقصة عظيم » و « أجزاء من عالم » قوة جمعت بين جمال الأسلوب و براعة التحليل .

ولا ريب فى أن الفنان الأمريكى يحاول دائماً أن يقدر ماضى أمريكا وحاضرها ، وأن عمله هذا يصير واجباً عليه عندما تكون ثقافة بلاده مهددة كما حدث فى السنين الأولى من هذه الفترة ؛ فتكون روحه فى ذلك الوقت إما مرحة ثابتة وإما مفكرة عابسة . وهذا الاتجاه بدأ فى السينما والروايات التمثيلية فى السنين الأولى للحرب . فالروايات السينمائية لقصتى جون

(١) Sherwood Anderson, *Home Town*

(٢) Willa Cathers, *Sapphira and the Slave Girl*

(٣) Ernest Hemingway, *For whom the Bell Tolls*

شتاينبك «أعناب الغضب» (١) ، و «الفيران والرجال» (٢) أظهرت لجمهوره بحوثه الأليمة فى حياة المحرومين ؛ كما أن الصورة السينمائية لقصة ثورنتون وايلدر «بلدتنا» وصفت الحياة فى نيوانجلند وصفاً مؤثراً . ولقد أخرج كونراد ريختر قصتين ظفرتا بنجاح كبير هما «الأشجار» (١٩٤٠) و«الحقول» (١٩٤٦) وصف فيهما الحياة عند افتتاح إقليم أوهيو .

و بمرور سنى الحرب أخذ الكتاب يزيدون بحثاً فى الحياة الأمريكية والأدب الأمريكى ؛ فكتاب ميرل كورتى عن نمو الفكر الأمريكى (١٩٤٣) هو بحث دقيق ورائق لم يأت بمثله مؤرخ للآداب من قبل . وقد أخرج كاتب جديد اسمه أرثر شريزنجر كتاباً عن عصر جاكسون (١٩٤٥) وكان كتاباً قيما حتى أصبح كاتبه بين يوم وليلة من أشهر الكتاب.

وأصدر الناقدون الأمريكيون كتباً عدة جديرة بالالتفات إليها . فكتابا فان فيك بروكس «نيو انجلند» (١٩٤٠) و «عالم وشنجتون ايرفنج» (١٩٤٤) هما سلسلة من الصور لأهم عهود أمريكا الثقافية . ولقد حلل فرنسيس ماتيش فى كتابه «النهضة الأمريكية» (١٩٤١) نحو ستة من أكبر كتاب القرن التاسع عشر من الأمريكيين . وأخرج فى سنة ١٩٤٤ كتاباً آخر عن هنرى جيمس فى طوره الكبير . وكتاب هارى ليفن عن جيمس جويس (١٩٤٢) هو دراسة قوية لهذا الكاتب الايرلندى .

ولقد ظهرت فى هذه الفترة كاتبتان برزتا إلى الصفوف الأولى ، هما الآنسة ماك كلرز والآنسة ولتى ، الأولى منهما بقصصها «القلب صائد فريد» (١٩٤٠) و «انعكاسات فى عين ذهبية» (١٩٤١) و «العضو فى حفلة الزواج» (١٩٤٦) والأخرى فى مجموعات قصصها لا سيما «الستار الأخضر» (١٩٤١) و «زواج فى الدلتا» (١٩٤٦) وكلاهما يهتم بالحياة فى الجنوب .

ولعل وليم فولكنر هو أكبر شخصية فى عالم القصة الأمريكية ، ولقد استمر يخلق الجو الثقافى والروحى فى الجنوب فى قصتيه «هملت» (١٩٤٠) و «انحدر ياموسى» (١٩٤٢) . ولقد

---

(١) John Steinbeck, *The Grapes of Wrath*

(٢) John Steinbeck, *Of Mice and Men*

وضع ملكولم كاولى الناقد كتاباً عنه أشاد فيه بأدبه كما أشاد أندريه جيد الكاتب الفرنسى العظيم بأدبه من قبل .

وظهر بنشر قصة ريتشارد ريت « الابن الوطنى » (١٩٤٠) ثم كتابه عن حياته (١٩٤٥) كاتب فى طليعة الكتاب الزنوج فى أمريكا .

وكان من أولى نتائج الحرب الأوربية فى أمريكا أن هاجر إليها عدد من الكتاب الانجليز والأوربيين الذين وجدوا فيها ملجأ من فظائع عصرهم . وليس من المستطاع الآن تقدير ما كان للجو الأمريكى فيهم من تأثير . ومن أظهر الأسماء بين هؤلاء الأدباء الانجليز أسماء أولدس هكسلى وجرالد هيرد وكريستوفر ايشرودد وأودن . أما أشهر اللاجئين الألمان فهو بلا ريب توماس مان ، ولقد قرر أن يتخذ الجنسية الأمريكية وأن يظل أمريكياً . ولا حاجة إلى أن نذكر الفرنسيين الذين لجأوا بعض الوقت أمثال جول رومان وأندريه موروا وجوليان جرين .

فنحن نرى من هذا القليل الذى ذكرناه أن الأدب الأمريكى كان خصباً وإن لم يكن بالخصوبة التى كان يرجوها مؤلف المقال والتى تعودها الأمريكيون فيما قبل الحرب .

ماذا تريد روسيا

ساءل الكاتب السياسى أدوارد كرانكشو فى مقال نشره فى مجلة « ناشنال رفيو » الانجليزية المحافظة عما تريد روسيا . وقد افتتح مقاله بقوله : إنه لتقدير أغراض دولة أجنبية يجب النظر إلى أمرين : رغبتها وقوتها . فمثلا الارهابيون من اليهود يرغبون فى تحطيم بريطانيا ، ولكنهم لا يجدون القوة لذلك . والولايات المتحدة تستطيع تحطيم بريطانيا ولكنها لا ترغب فى ذلك . وفرنسا ليس لديها الرغبة ولا القوة . ثم يجب البحث فى أمور تنطوى عليها هاتان المسألتان الأساسيتان ؛ منها أن القوة التى يعتد بها هى القوة المحتملة فى المستقبل كما هو شأن القوة الحاضرة . أما الرغبة فانها أكثر تعقداً فهى مرتبطة بالصفات الوطنية للدولة التى نبحث فى أغراضها وفى طبيعة حكومتها وفى مطامعها وفى مخاوفها . ومن الأمثلة على ذلك أن الشعب مهما كان قليل الميل للحرب فقد يدفع إلى حرب هجومية وهو يعتقد

بأنها حرب دفاعية . وقد تقدم أقل احكومات مطامع على مهاجمة دولة مجاورة وهى تعتقد اعتقاداً صريحاً بأنها تفعل ذلك لتنقذ بلادها من خطر الغزو . والتحمس لعقيدة دينية أو سياسية قد يدفع دولة محبة للسلم إلى التدخل فى الأمور الداخلية لدولة أخرى مما يؤدى إلى اشتعال الحرب بينهما . ويمكن ذكر أمثال كثيرة على ذلك ، وكل هذه الأمثال تقع تحت مسألتين أساسيتين هما القوة والارادة . ويجب أن تقدر هذه الوجوه عندما نبحث فى أغراض دولة أجنبية .

وهو يرى أن البريطانيين آمنون من فرنسا فى ضوء هذا البحث وإن قويت . أما ألمانيا فكان من البين بسبب نزعة حكومتها حوالى سنة ١٩٣٠ أنها ترغب فى الحرب ولكن القوة كانت تعوزها . ولكن إذا تغيرت الآراء فى فرنسا بأن صارت شيوعية مثلا وفى الوقت نفسه قويت فرنسا فان فرنسا تكون غير التى عرفها الانجليز ، ويجب عليهم أن يستعملوا خيالهم فيما يدرأ عنهم الخطر .

على أن هذه الأمور بسيطة . أما المشكلة الملحة التى تواجههم فى هذا الزمن فهى معقدة وصعبة . فانه عند البحث عن أغراض الاتحاد السوفييتى لا يكون من السهل أن يستعمل البريطانيون خيالهم فقط ، لأنهم لا يعرفون القواعد التى يبنون عليها هذا الخيال . فالسواد الأعظم من البريطانيين لا يعرف ماهى روسيا السوفييتية ، فكيف إذن يعرفون ماترغب فيه ؟ وإذا كان من حظهم أن يعرفوا شيئاً عنها فان طريقة تفكير روسيا تختلف كل الاختلاف عن بريطانيا حتى ليصبح البريطانيون فى خطر حين يفسرون أعمالها بما يتفق مع آرائهم ؛ إذ يكون هذا بعيداً عن الحقيقة .

لذلك يجب على البريطانيين أن يكونوا على حذر من النتائج السريعة غير الناضجة ، وعليهم أن يتدبروا مسألتين : قوة روسيا وإرادتها . ويعتقد الكثيرون لا سيما الأمريكان أن روسيا لها القوة وبها الرغبة فى مهاجمة العالم الغربى . ولكن من الواضح أن هذا الاعتقاد ليس صحيحاً . فان الأمة إذا كانت لها الرغبة فى الهجوم وعندها الوسيلة أى القوة للقيام بهذا العمل ، فانها لا تتردد بل تقدم على الهجوم . لذلك لابد أن يكون الاتحاد السوفييتى تنقصه إما القوة وإما الرغبة وإما الاثنتان معاً وذلك مما ينقض الدعاية العصبية التى نكبت بها حياة الأمم الغربية اليوم ، كما يلقى ضوءاً فاضحاً على السياسة التى

تتبعها بريطانيا وأمريكا نحو روسيا ، بعد مؤتمر طهران وهى السياسة القائمة على رغبة روسيا وقوتها .

ولكن القول بأن روسيا تنقصها القوة للقتال اليوم ليس معناه أنها بعيدة عن هذه الرغبة ، ولا أنها لا تجد القوة فى الغد ، فيجب التفكير فى الغد أو فى اليوم التالى له للوصول إلى الحقيقة .

ففيما يتعلق بقوة الاتحاد السوفييتى إذا لم يستطع أن يصل إلى إتقان القنبلة الذرية أو إلى طريقة سهلة لتوزيع الأمراض بواسطة الميكروبات ، فانه تنقصه القوة لمهاجمة أمريكا أو بريطانيا فى السنوات العشر القادمة؛ وهذا أمر يستطيع أن يحكم عليه فقط العلماء الخبيرون بالتقدم العلمى فى روسيا . ولكن عندما ننظر إلى الرغبة الموجودة يجب على بريطانيا أن تفكر فيما يحدث بعد ثلاث سنوات أو خمس إذا وجد زعيم الروس نفسه قادراً على إيقاع ضرر ببريطانيا وبأمريكا بالهجوم المفاجئ . وهذا اعتبار يجب بحثه وإن كان الذين يعرفون روسيا يعتبرونه ضرباً من الخيال . لنفرض أن لدى روسيا الأسلحة لذلك ، فان الاستعداد والنظام الذى يتطلبه ضرب المراكز الحيوية لدى أعداء الروس أمر لا يكاد يتصور . ولقد عجب الناس لفعال الجيش الروسى فى الحرب الأخيرة ، ولكنها فعال تمت وتحققت لمجرد التفوق فى العدد، والاحتمال فى يأس ، وتضحية الملايين من البشر بلا تردد . ولقد ظن كثيرون فى ذاك الوقت أن روسيا ستهزم فى ستة أسابيع ؛ ولا ريب فى أنهم أخطأوا التقدير ، ولكنهم كانوا فى الواقع أقرب إلى الصواب . فقد انتصرت روسيا ولكن بتضحية لا تقبل أمة أخرى فى العالم أن تدفعها ثمناً للنصر . ولم يكن فى الجيش الأحمر ما هو جدير بالاعجاب مثل بطولته ومقدرته على الابتكار فى المواقف الصعبة . ويجب ألا يعزب عن أفكارنا أن الجيش الألمانى كان يفوق الجيش الروسى كثيراً ، ولو كان عدده كعدد الجيش الروسى لمسح تلك الأرض الواسعة وكان الآن فى فلاديفوستك .

ولقد كان من عادة بسمارك فى أوقاته الصريحة حين لا تكون له رغبة فى أن يخيف دول أوربا بالوحش الروسى ، أن يسمى روسيا اللاشئ الكبير . ولقد تحقق قول هذا السياسى ثلاث مرات فى حرب القرم ، ثم فى الحرب الروسية اليابانية، ثم فى حرب ١٩١٤ . والآن لم تتغير روسيا كثيراً عما كانت عليه فى الماضى .

ويرى هذا الكاتب المحافظ أن الأمور فى داخل روسيا سيئة وستظل سيئة بضع سنوات ؛ فوسائل الحياة صعبة ، وسكان المدن تظهر عليهم مظاهر قلة الغذاء ؛ والاهتمام الأكبر للروس هو تدبير الغذاء والمأوى . ولقد عملت الحكومة منذ سنة ١٩٢٨ على أن يشد الناس أحزمتهم حول بطونهم، ويتحملوا من الحرمان ما لا يمكن أن يفكر فيه البريطانى ، كى تصير روسيا من القوة بحيث لا تهاجمها دولة أخرى . ولقد ضحى الروس بكل شئ فى هذا السبيل ، فلما هاجمهم هتلر كان لذلك الهجوم تأثير كبير فى الروسى العادى . ولما صار الجيش الروسى الذى ظن أنه لا يغلب يذوق الهزيمة أثر الهزيمة على مدى واسع وفى سرعة ليس لها مثيل فى تاريخ الحروب ، كادت الروح المعنوية فى الأهالى المدنيين تنهار بعض الوقت .

ولكن إذا كان الشعب الروسى فى سنة ١٩٤١ قد بلغ هذه الحال السيئة فان ضعف هذا الشعب قد زاد بما أحدث الألمان فى تقهقرهم من تخريب منظم . ولقد أصيب الروس بضربة فى قوة الرجال لا ينهضون منها إلا بعد سنوات .

غير أن الشعب الروسى لا يترك لنفسه بل هو يجر للعمل أكثر مما يحب ، ثم هو يمرن دائماً على أن يفكر كما يحب أصحاب السلطان . وفى رأى الكاتب أن فى الروس من روح المقاومة للحاكمين أكثر مما يظن الناس . فقد اعتادوا منذ قديم الزمن على عدم تصديق الحكومة . وصار للروسى لغتان : لغة يتكلم بها إلى الأجانب ورجال الحكومة ، ولغة أخرى يتكلم بها إلى أصدقائه . ولو أن الحكومة كانت واثقة من أن الشعب يصدق السيل المنهمر من الدعاية بالاذاعة والصحف لخففت من وطأتها . ولكن فى استمرارها دليل على أنها لا تعتقد تأثير هذه الدعاية .

ولكن هناك نوع من الدعاية قد يصدقه الناس فى روسيا ، وهو أنهم مهددون من الدول الرأسمالية . وهذا طبيعى ؛ فلقد أخبرهم لنين أن ستأتيهم متاعب من الخارج فأتت هذه المتاعب، وأخبرهم ستالين بمثل هذا القول فتحقق قوله ، وكان ستالين يقول دائماً بالتفرقة بين الشعب الألمانى ونظام النازى ، وهو يفعل ذلك لكى يستطيع أن يقول بهذه التفرقة بين الشعبين الانجليزى والأمريكى وحكومتيهما فيما بعد الحرب . ولعل الطريقة الوحيدة لحمل الروس على العمل هو إدخال

الخوف على نفوسهم من هجوم الرأسماليين .

بلغت هذه الدعاية أوج قوتها منذ سنة ، ونجحت فى إدخال الذعر فى نفوس الروس ، حتى إنهم لم يستطيعوا التخلص من هذا الذعر بالرغم من تراجع الحكومة ، وكان البسطاء من الروس يسألون المتصلين بمؤتمر موسكو فى أثناء انعقاده متلهفين « كيف حال المؤتمر ؟ هل هى حرب أم سلام ؟ » وكان آخرون يبدون معرفة أكبر بالأمور فيقولون : « لماذا تنخدع بالمؤتمرات حتى تبتدئ المأساة ؟ » .

ولعل مثل هذه الدعاية يكون أشد تأثيراً ؛ لأن الحكومة نفسها تعتقد أكثر مايجئ فيها . فمن أسس عقيدتهم أن تكون هنالك رواية نهائية بين رأس المال فى سيره نحو الهاوية وبين طريقة الحياة الماركسية أراد أحد الجانبين الحرب أم لم يرد . ومسلك الولايات المتحدة أخيراً مما يقوى هذا الاعتقاد .

وفى رأى الكاتب أن الروس لا يقدمون على الحرب فى حالتهم الراهنة وأنهم لو كانوا أقوياء لما أقدموا على الحرب ، بل هو يرجح أن يرتكبوا أعمالا خارج حدودهم ربما أدت إلى الحرب إذا لم تعالج بحزم وعناية ؛ فالهجوم ليس من تقاليد الروس ولا البلشفيك ، بل سيعملون على التسرب إلى البلاد عن طريق الشيوعيين . ويرى الكاتب أن الحكومة السوفييتية هى عدوة الغرب المحتومة . ولكن إذا استطاع الغرب أن ينظم أموره الداخلية تنظيما متيناً فلا خوف من روسيا . وهو يقول إن النظرية الماركسية إما صحيحة وإما خاطئة ، فاذا كانت صحيحة فلا بد من الحرب مع روسيا أراد البريطانيون أم لم يريدوا ، وستنتصر روسيا فى آخر الأمر وإن لم يكن انتصارها فى القريب مؤكدا . أما إذا كانت النظرية خاطئة فيجب على البريطانيين أن يثبتوا خطأها بأن يحتفظوا بتوازنهم وألا يشتركوا مع الروس فى لعبتهم ؛ فاذا كان ذلك اضطرت روسيا أن تجرى تعديلا بعد تعديل فى نظريتها فيزول الخطر فى هدوء .

ظهر حديثا

العالم الطريف لألدس هكسلى نقله إلى اللغة العربية الأستاذ محمود محمود (دار الكاتب المصرى)

هى جرأة محمودة تلك التى أوحت إلى دار الكاتب المصرى نشر هذا الكتاب ، وإلى الأستاذ محمود محمود نقله إلى اللغة العربية ؛ فان نقل هذا السفر إلى لغتنا العربية لما يبشر بذلك الوقت، الذى نرجو أن يكون قريباً ، حين نرى الأدب العربى يساير الأدب الأوربى جنباً إلى جنباً ؛ فكما نجد كل مؤلف قيم فى لغة من اللغات الأوربية لا يلبث أن ينقل إلى اللغات الأخرى، كذلك نود أن نرى مثل هذا المؤلف لا يلبث أن ينقل إلى اللغة العربية ؛ وحينئذ نشعر كل الشعور بأن اللغة العربية تسير مع الزمن ، وأن عالم الفكر العربى يتابع النهضة الفكرية ويساهم فيها . ولكننا نرى من الجرأة نقل هذا المؤلف ؛ لأنه بموضوعه وبأسلوب مؤلفه وبطريقته فى معالجة الأمور يتطلب نقله إلى اللغة العربية جهداً ليس بالهين ، بل هو مجهود يعتبر بعض التوفيق فيه مدعاة للفخر ، فكيف إذا كان مجهوداً موفقاً كل التوفيق !

يتميز ألدس هكسلى من الكثير من الكتاب الانجليز فى هذا العصر بطابع خاص ؛ فهو سليل قوم عرفوا بالانكباب على الآداب والعلوم والانقطاع لها ، وأوتوا بسطة من العيش فليس منهم من شغل بتدبير أمور حياته ، ونشأوا منذ طفولتهم يعملون لتنمية مواهبهم ، واتباع ميولهم . فلا عجب إذا اشتهر من أهله أفراد بلغوا أوج الشهرة فيما اختاره كل منهم من نواحى الفن أو العلم . فجده هو هكسلى الطبيب الشهير فى تاريخ العلوم الذى أيد داروين فى آرائه . وأخوه اليوم عالم من أكبر الباحثين فى علم الحياة ، وهو يرأس الآن تلك الهيئة الثقافية التى أنشأتها هيئة الأمم المتحدة . أما ألدس فقد مال إلى الأدب وإن كان لم يهمل ثقافة العلم ، وكان فى شبابه ممن يعجبون بالكاتب د. ه. لورنس . ولقد تولى نشر جانب من رسائل لورنس إليه . ومنها نعلم تأثره بهذا الأديب . ولكن

الفرق بين طريقة الأستاذ فى قصصه والتلميذ كبير ، وإن كان أدب كل منهما يمثله كل التمثيل .

كان د. ه. لورنس يكتب باحساساته وبقلبه ، وكان شديد الاسهاب فى بعض المواقف حيث تمس آراء ونظريات يهتم بها اهتماما خاصا ، وذلك أكبر السر فيما كان له من تأثير فى قرائه .

أما التلميذ فقد أظهر حتى فى مؤلفاته الأولى وجهة جديدة خاصة ، تدل على أنه مع إعجابه بالأديب لورنس لم يتأثر به ولم يسر فى ركابه ؛ بل هو صاحب طريقة خاصة فى معالجة قصصه ، كما أنه صاحب نزعة خاصة فى أفكاره . فهو أولا وقبل كل شئ ذلك الرجل الذى امتلأ ذهنه الكبير بقراءات واسعة شاملة فى موضوعات مختلفة ، وهو الرجل الذى وجد الوقت ليدرس كل مايحب وكما يحب ، فحشد طائفة كبيرة من المعلومات الأدبية والعلمية وهو فى مقتبل العمر لا يمكن أن يحصل عليها كاتب نشأ فى فاقة مثل لورنس ولا يمكن أن يصل إليها إلا أن يبذل العمر فى هذا السبيل .

وشئ آخر نلاحظه فى كتابات ألدس هكسلى ومؤلفاته ولا نجد مثله بل نجد خيراً منه فى كتابات د. ه. لورنس ؛ ذلك أن وسطه العلمى جعل عباراته دقيقة حادة قاطعة كالمشرط فلا تجد فيها روح الشعر الذى تجده فى عبارات د. ه. لورنس ولا تلك البسطة فى العبارة .

الحقيقة أن ألدس هكسلى ظل يصدر عن عقله ، وعقله فقط ، فى كتاباته ، أما مشاعره فهى مشاعر الرجل الذى لا يؤمن إلا بالعقل وحده ؛ ففيه روح السخرية قوية لاذعة ، وهى إن تلطفت صارت فكاهة ولكنها لن تنزل إلى العطف .

ولذلك ترى أشخاص رواياته يتحركون ويتكلمون ويضطربون فى الحياة تدفعهم أهواؤهم وغرائزهم هنا وهناك ، وتسيطر على أقدارهم روح شريرة مرحة يتبين للقارئ بقوة أنها روح مؤلفهم الذى هو خالقهم .

أما موضوع القصة فلا يهتم به هكسلى . وقد تقرأ قصة من قصصه وتحاول جاهداً أن تعيد موضوعها لصديق فلا تكاد تجد موضوعاً . فلنرجع مثلا إلى قصة تلك الأوراق الخاوية إذا أحببت أن تسميها ، أو إلى قصة المتناقضات إذا شئت أن تسميها ، فان التسميات عند هكسلى معقدة ذات مرام كثيرة وليس من السهل ترجمتها ؛ وهاتان القصتان مما ظهر

قبل القصة التى نشير إليها اليوم فماذا نجد ؟ نجد أحاديث لا تنتهى بين جماعة من الذين يعملون فى الحياة أعمالا عقلية أو جماعة من المترفين ،ولكنهم جميعاً ممن أصيبوا بأمراض الحياة الحديثة ، فليس فيهم من يخلو من عقد نفسية وليس من فيهم يسلك فى حياته الخاصة مسلكا مستقيما كما اصطلح عليه الأجداد .

ولكن أهم ما يسترعى النظر ويبعث على الرضا أحياناً قليلة وعلى السخط كثيراً ، هو تلك النظرة الساخرة التى ينظر المؤلف بها إلى أشخاص قصصه ؛ حتى إنك إذا كنت تشعر بالكراهية نحو هؤلاء الأشخاص مرة ، فانك تشعر بالكراهية نحو الذى يعرضهم على مسرح الحياة مرات عديدة .

أما القصة التى أصدرتها اليوم دار الكاتب المصرى فان لها موضوعاً طريفاً حقا ، هى الحياة فى هذا العالم كما يتخيلها المؤلف بعد تقدم العلم وتطور المجتمع . وفيها يستعمل الكاتب براعته فى السخرية من هذه الحياة الناشئة عن تقدم العلم ، وهو يبتدع أساليب طريفة فى هذه السخرية ، فمن سخرية بالعلم نفسه تنطوى تحت المسميات التى يبتدعها وينحتها على مثال مايفعل العلماء ، ومن سخرية بالمجتمع واتجاهه إلى محو الشخصية الفردية والانطواء تحت ألوية المذاهب ، وهذه بذور يجدها الأديب ويقتبسها من المجتمع الحاضر ، أو على الأصح من المجتمع الذى ألفت القصة فى زمنه ، ويسير بها إلى نتائجها المرتقبة ، أو قل غير المرتقبة . وهو فى هذه الصورة يكشف لنا الغطاء بنظرته الساخرة عن حياتنا وعن معنى ما نؤمن به فى الوقت الحاضر. ونحن فى هذه الصورة نعطف على المؤلف ونشاطره آراءه ، ولا نجد تلك الكراهية التى نشعر بها نحو المؤلف فى رواياته الأخرى .

فقصة « العالم الطريف » هى نقطة تحول عند ألدس هكسلى ، قبلها كان ألدس هكسلى ساخراً لاذعاً لا يشفق وكأنه لا يحفل بهذه الحياة التى يشترك فيها ، ولكنه فى هذه القصة بدأ يهتم اهتماما حقيقيا ، ويرى أن عليه واجباً فى هذه الحياة لا يستطيع إلا أن يقوم به وإن لم يتخل نهائيا عن سخريته .

لذلك نراه فى الكتاب الذى يليه يتجه اتجاها جدياً ، فى غير مواربة ، ومن غير اتخاذ ستار القصة ، إلى معالجة مشكلة الديمقراطية والحرية الفردية وكانت أوربا عندئذ على حافة الهاوية .

ووقعت الواقعة ونشبت الحرب الأوربية الأخيرة ومسته فى صميم حياته . فماذا فعل الأديب حينئذ ؟ غادر انجلترا وهاجر إلى أمريكا وانضم للقائلين بأن البلاد التى تصلى نار الحرب ليست أصلح البلاد للأدب ؛ وأن موضع الأديب ليس الاقامة فى وطن يضج بالسلاح ؛ فضجيج السلاح يشوش الأفكار ويخفت صوت الأقلام ، وإنما موضعه بلاد بعيدة عن القتال ولو فسر ذلك على أنه خيانة لوطنه ؛ فأول واجب للأديب هو المحافظة على سلامة نظرته وابتعاده عن المؤثرات الوقتية ، ولا يتيسر ذلك إلا فى جو غير جو انجلترا التى كانت وقتئذ فى أشد المعمعة ، لا يعرف أهلها الراحة يوماً أو نهاراً .

وسواء أكان مخطئاً أم على صواب فقد عاش فى أمريكا طول مدة الحرب، وأخذت كتاباته تتجه اتجاهاً قوياً نحو مشكلات الفلسفة ، ونحو نزعة قد تصفها بأنها صوفية وقد تصفها بغير ذلك ، ولكنها تنم عن نفس مريرة فيها من التبرم بالحياة أكثر مما فيها من السخرية .

ولسنا نريد أن نتعرض لدراسة ألدس هكسلى فى تطوراته الأخيرة فان لمثل هذه الدراسة مجالا آخر ، ولا نريد أن نتكهن بما ينتظر منه وهو لا يزال يرجى منه فى شيخوخته الشئ الكثير . غير أننا نستطيع أن نقول إن ألدس هكسلى يزداد شهرة على شهرة ، ليس فى انجلترا وحدها بل فى جميع البلاد الأوربية والأمريكية ، ولعل شهرته فى البلاد الأوربية والأمريكية أكبر منها فى انجلترا .

فدار الكاتب المصرى بنشر هذا الكتاب الطريف وإخراجه فى الصورة الأنيقة التى عرفت بها مطبوعاتها قد أسدت يداً إلى المكتبة العربية .

صورة جديدة تمثل النبى العربى للدكتور بشر فارس (مطبعة المجمع العلمى المصرى) .

هذا الكتيب هو عبارة عن محاضرة ألقاها الأديب المعروف الدكتور بشر فارس فى المجمع العلمى المصرى فى ٢٧ مايو سنة ١٩٤٦ ، وهى نتيجة لكشف خطير عثر عليه الدكتور بشر فارس ؛ فلقد وجد « منمنمة » وهى التسمية التى ابتدعها للتعبير عن الصورة الصغيرة

التى تزين بها الكتب وتقابل كلمة miniature فى اللغات الأجنبية . وهذه المنمنمة يرجع عهدها إلى سنة ٦١٤ هـ وفيها صورة للنبى العربى صلى الله عليه وسلم . وكان المعروف لدى العلماء والباحثين أن تصوير النبى فى منمنمات الكتب لم يحدث إلا بعد ذلك بقرن . ولكن الدكتور بشر فارس تمكن بدأبه وبحثه من الرجوع بتاريخ هذا التصوير إلى ما قبل قرن من الزمان .

وقد احتفظ حضرته بحقوق النشر والنقل والتصوير ؛ إذ هو عازم على متابعة هذا البحث ثم نشر ما جمعه من معلومات قيمة سيكون لها شأن كبير فى تاريخ التصوير العربى .

حسن محمود

قلوب الناس قصص تحليلية للأستاذ ابراهيم المصرى (دار الكاتب المصرى)

مجموعة قصصية تشتمل على إحدى عشرة قصة فى بضع وثلاثين ومائة صفحة ، تعالج كل قصة منها حالة من حالات النفس فى شدة نالتها أو كارثة ألمت بها أو عاطفة مشبوبة حصرتها فى زمان ومكان وفكرة ؛ ففى كل قصة منها حادثة ، ولكن مما يجرى فى داخل النفس لا فى ظاهر الحياة ؛ ولذلك اختار المؤلف أن يكون عنوان مجموعته « قلوب الناس » إذ كان فى كل قصة منها صورة قلب .

ومثل هذا الضرب من القصص التحليلى عسير المطاب على قارئه وعلى كاتبه جميعاً ؛ إذ كان الكاتب لايبلغ فيه مبلغ الاجادة إلا إذا بلغ من قوة النفس وعمق النظر ونفاذ البصيرة مبلغاً يتيح له أن يرى فى كل منظر من صور الحياة ما لا يراه غيره من ذوى العيون الباصرة ، وأن يسمع فى نبر كل حديث من ألحان النفس مالايسمعه كل ذى أذن ؛ ثم يكون له إلى ذلك من القدرة على « التجرد » مايعينه على التخلص من وساوس نفسه وخصائص وجدانه وحوادث ماضيه ؛ ليكون لفنه من صفة « العموم » مايرتفع به عن بعض هذيان المحمومين من ضحايا « الفكرة الثابتة » الذين لا يستطيعون الخلاص من بعض مايؤثر فى خاصة حياتهم فلا يطيقون كتمانه ولا يملكون الأسلوب الصريح للتعبير

عنه ، فيحاولون نوعاً من القصص التحليلى ليتنفسوا به من ضيق ويتفرجوا من حرج ، فلا يبلغون من الفن شيئاً ولا يزيدون على أن يقدموا للقراء صورة حائلة لجانب من جوانب نفوسهم المريضة فى إطار ملفق من الرياء والكذب والأثرة ؛ ومن ثمة كانت صعوبة تناول هذا اللون من القصص النفسى .

بلى ! قد يبلغ الكاتب من قوة الإيمان بنفسه مبلغاً يهىء له أن يعرض حياته — أو جزءاً من حياته — عرضاً قصصياً رائعاً يبلغ به الغاية فى الفن ، ولكن شرط الاجادة الأول فى هذا اللون هو « الصدق » ، ولابد فيه كذلك من « التجرد » بمعنى الارتفاع على التقاليد الاجتماعية التى تفرض عليه نوعاً من الوقار — أو التوقر — يجعل فنه غثًّا بارداً لا حياة فيه ولا عاطفة !

أما بعد فهذه إحدى عشرة قصة تحليلية قد استطاع مؤلفها أن يحقق فيها شرط الاجادة ، فكان له من قوة النفس وعمق النظر ونفاذ البصيرة ، ثم من القدرة على التجرد ، ما هيأ له أن ينفذ إلى قلوب بعض الناس فيصفها وصفاً رائعاً كأنما يصف حادثة فى ظاهر الحياة رآها رأى العين وسمعها سمع الأذن ؛ فلولا بعض المبالغة فى الوصف وبعض الاسراف فى التعبير عن بعض حركات النفس أو بعض حركات الجسد ، لأحس كل قارىء فيما يقرأ صورة من نفسه أو صورة من حوله قد وعاها وعى ذى قلب وعين .

أما القصة الأولى « سامية وإنعام » فتصف حال فتاة من أوساط الناس قد نشأت على الفضيلة والمحافظة فلا تعرف من فنون الحياة إلا الطهى والخياطة وإعداد الفراش ، وإلا الصلاة والصوم وتلاوة القرآن والأدعية ؛ والأوراد ، فلما نضجت أنوثتها واكتملت انتقلت إلى بيت زوجها ... ثم . . . ثم كان كل ذنبها عند زوجها أنها لا تعرف إلا الطهى والخياطة وإعداد الفراش ، وإلا . . . فاتخذ زوجة ثانية يلتمس عندها من فنون « الأنثى » ما لا يجد عند زوجته الأولى . وتعصف الغيرة بالمرأة فتحاول أن تتكمل وتتعوض مما بها من النقص ، فتسرف فى الزينة والتجمل إسرافاً يزيد الهوة اتساعاً بينها وبين زوجها ؛ ثم يكون ذلك أول سقوطها . . .

لعل بعض القراء أن يسأل : أهذه هى القصة ؟ وإلى أى غاية تهدف ؟ وأين منها فن القاص وصفة العموم

وما رأينا فى الحياة العامة أن التربية الدينية المحافظة تقود فتاة إلى السقوط؟

ولست أملك جواباً عن واحد من هذه الأسئلة أو عنها جميعاً ؛ وليس يعنينى حين أعرض هذه المجموعة من القصص أن أتحدث عن الغاية التى تهدف إليها كل منها ؛ وليست هذه الحادثة هى القصة فيما قرأت ، وما التمست صفة العموم — ولعل المؤلف لم يلتمسها مثلى — فى الحادثة ، وإنما التمسها فيما تضمنته الحادثة من الانفعالات وصور الوجدان . وأحسب أن المؤلف قد أجاد — لولا المبالغة — فى وصف هذه الانفعالات وتلك الصور الوجدانية العامة ، على حين لم ينظر إلى الحادثة إلا على أنها إطار لهذه الصور والانفعالات .

ويصف المؤلف فى القصة الثانية « المقامر » قصة شاب أغرم بالقمار ثم سلا . تلك هى الحادثة كلها ؛ ولكنها قصة ، قصة إنسانية رائعة تصور فى أروع أسلوب وأحسن معرض كيف تتنقل نفس المقامر فى الإثم والرذيلة منزلة بعد منزلة حتى تهوى به إلى الحضيض الذى لا نهضة منه .

والثالثة « قصة امرأة » فى رسالة وهى امرأة يتراوح قلبها بين كهل غنى وشاب فقير : قد استهواها المال فتزوجت ذلك الكهل ، فلما تحقق لها فى بيته ما كانت تصبو إليه من الغنى والجاه عاودها الحنين إلى الشباب ، فاصطنعت الأسباب للطلاق من زوجها الكهل لتتزوج الشاب الذى كان هواها إليه ؛ ثم لم يكد يتحقق لها ما أرادت حتى افتقدت ما كانت فيه من الغنى والسيادة ، فهمت أن تعود ... ولكن . . .

وفى القصة الرابعة « أطوار النساء » يحاول المؤلف أن يعالج مشكلة الأم الثانية ، ثم ينتهى إلى الرأى بأنه لا أم إلا الأم ؛ فاذا ترمل الأب فقد حق عليه أن يصير لولده أباً وأماً ، وحرم عليه أن يتزوج ثانية إلا أن ينسى أبوته وولده .

والخامسة « مأساة ضمير » ، ضمير رجل انغمس فى القمار والرذيلة وأضله هواه حتى فقد كل ما كان يملك أو أوشك أن يفقده ، فلم يجد لنفسه خلاصاً من ضيقه إلا أن يبيع إمرأته لاحدى شركات التأمين ليتفرج بثمنها من ضيقه ، فأمّن على حياتها ثم دس إليها أسباب الموت ليحصل على قيمة التأمين . . . ثم استأنف حياة جديدة وتزوج أخرى، وتطورت به الأيام من حال إلى حال حتى وجد نفسه ذات يوم فى مثل ما كان فيه من الضيق قبل أن يقتل

امرأته الأولى ، فسولت له نفسه أن يعيد تمثيل المأساة . . . وألحت عليه وساوسه فلم يجد إلى الخلاص إلا سبيلا واحدة . . . وثأر من نفسه لامرأته القتيل !

ثم القصة السادسة ، وعنوانها « بعد سبع سنوات » . ولو أنصف المؤلف لسماها « قصة شاب » لتكون بازاء « قصة امرأة » التى أسلفنا الحديث عنها ؛ فالحادثة واحدة فى القصتين أو تكاد ، ولكن البطل فى هذه القصة شاب ، لا امرأة ، يتراوح قلبه مثلها بين الغنى والشباب ، فتبدأ قصته كما بدأت قصته تلك ، وتكاد نهايتهما تكون واحدة ! أكان من الضرورى أن تكون المجموعة إحدى عشرة قصة ؟

والسابعة « نداء البحر » وكل مافى العنوان من الدلالة على الموضوع ، أن أكثر حوادث القصة كانت على شاطئ البحر فى الاسكندرية ، أما « النداء » فلم أسمعه ؛ وفى القصة مشابه من قصة سامية وإنعام ؛ كل الفرق بين الحادثتين أن الفتاة هنا همت أن تتزوج رجلا ثانياً — إن صح هذا التعبير — أما فى القصة الأولى فقد تزوج الرجل امرأة ثانية . على أن الجو النفسى مختلف فى القصتين ، فلولا تشابه الحادثة لكانت هذه القصة بأصالة موضوعها وحركات النفس فيها أروع وأمتع وأعمق أثراً .

ولست أستطيع أن أعرض القصة الثامنة « روايح الجنة » إذ كان قلب المرأة فيها من نوع لا أعرفه من « قلوب الناس » ؛ قلب متناقض الأهواء متقلب الاحساس ، يحب الشئ ويبغضه فى وقت معاً ، و يرضى ثم يأبى لا يعرف أحد فيم كان رضاه وفيم كان إباؤه !

فاذا بلغت القصة التاسعة « الحياة الثانية » قرأت قصة تستحق أن تقرأها ، ثم لا تلبث بعدها قليلا حتى تذكر قصتين أخريين من المجموعة نفسها : « قصة امرأة » و « بعد سبع سنوات » فيحملك التشابه القوى بين هذه القصص الثلاث — على تفاوته فى بعض المراحل — على أن تظن ظنا أن بين هذه الحادثة بألوانها الثلاثة فى هذه القصص وبين نفس المؤلف رابطة ما ، وأن ثمة فكرة لا تزال تلم به حيناً بعد حين لأن لها فى حياته أثراً ما . . .

أما القصة العاشرة « هو القدر » فنمط من الحكاية معروف ، وهو إلى باب « الحواديت » أقرب !

ثم تأتى القصة الأخيرة « سلطان

المثل الأعلى » ويبدؤها المؤلف بالكلمة الآتية :

« هذه قصة قد لا تقع فى بيئة مصرية . وقد تقع كل يوم فى كل مكان. وليست العبرة فيها باللون المحلى أو الرسم الواقعى ، بل بما تنطوى عليه من نزعة مثالية كامنة فى كل نفس بشرية وكل خيال إنسانى . »

ولعل القصة كما وصفها مؤلفها ، بل إنها كذلك فيما أرى ؛ ولكن النزعة المثالية التى يشير إليها المؤلف لم تكن إلا فى الطفل ، فى الطفل وحده دون كل من فى القصة من رجال ونساء ؛ لولا أن ذلك الطفل المسكين لم يجد خلاصاً من أزمته إلا بأن يزهق نفسه ! وقد كانت المثالية أن يجد من نفسه القوة على مواجهة الحياة بشجاعة ، ولكنه طفل ، ولكنها مثالية طفل !

هذه هى « قلوب الناس » كما رآها الأستاذ إبراهيم المصرى فى مجموعة قصصه التحليلية التى أخرجتها دار الكاتب المصرى هذا الاخراج الأنيق فأسدت إلى الأدب العربى يداً .

ولكنى لا أريد أن أختم حديثى دون أن أنبه الكاتب الأديب إلى ضرورة عنايته بلغته ؛ فان ثمة أغلاطاً فى اللغة والنحو والتعبير ليس يجمل بأديب مثل الأستاذ إبراهيم المصرى يعالج الكتابة منذ بضع عشرة سنة أن يقع فيها .

وثمة شئ آخر لا أجد مندوحة من التنبيه إليه ، هو إيثاره العامية المصرية فى بعض الحوار ، على حين كانت العربية أسلس أداء وأطوع للسان . وقد يحتج الأستاذ المصرى لمذهبه ذاك ببعض ما كان يحتج به دعاة العامية من البكم والعجزة : أنه لم يجنح إلى العامية إلا فى بعض الحوار لتكون اللغة طبيعية على ألسنة الناطقين بها . . . وهى حجة لا أرى الأستاذ المصرى يؤمن بها ؛ فهو لم يلتزم عامية الحوار إلا فى قصة واحدة دون سائر المجموعة ؛ فلو أن طبيعة الحوار كانت تقتضى العامية كما يزعم من يزعم لما آثر الفصحى فى عشر قصص من إحدى عشرة ، فكانت العامية فى قصة واحدة هى الشذوذ الذى يلفت النظر وينبو عنه السمع ويلتوى به اللسان .

محمد سعيد العريان

دير بارم تأليف ستندال تعريب الأستاذ عبد الحميد الدواخلى (دار الكاتب المصرى)

« دير بارم » هى قصة من أروع ما كتبه ستندال من قصص ، وآية من آيات الأدب القصصى الفرنسى . قصة من هذا النوع الذى يتسلط عليك ، فما تكاد تبتدئ قراءتها حتى تشغف بها شغفاً شديداً و إذا بك تواصل القراءة وتجد فيها لا تريد أن يشغلك عنها شاغل ولا أن يمنعك عنها مانع حتى تصل إلى نهايتها . وهذا الشغف بالقصة إنما يتولد فى نفسك من حبكة حوادثها وتسلسلها المنطقى ، ومن التحليل النفسى البارع الذى اشتهر به ستندال والذى جعله منعزلا فى عصره . فستندال الذى عاش أثناء ازدهار المذهب الرومانتيكى سنة ١٨٣٠ يسرف فى التحليل النفسى إسرافاً جعل معاصريه يملون قراءة كتبه وقصصه ؛ إذ كان الأدب فى عصره لا يتعرض لتحليل النفس الانسانية ، بل كان يكتفى بوصف الشعور والاسراف فى هذا الوصف . فهذه الحساسية المريضة لا نجدها عند ستندال ، وإنما نجد استقصاء عن أسباب الأشياء ونتائجها . وهذا الميل إلى الاستقصاء هو الذى جعل ستندال منعزلا فى عصره ، وكدت أكتب منعزلا فى الأدب الفرنسى كله ؛ فهو لا يعد من الرومانتكيين مع أنه عاصرهم ، ولا يعد من الكلاسيين مع أنه يمت إلى هذه المدرسة بأكثر من سبب ، ولا يعد من الواقعيين مع أن هؤلاء نظروا إليه كأنه المنشئ الأول لمذهبهم . وفى الحقيقة أن ستندال يجمع فى أدبه شيئا من مميزات كل مذهب : فهو رومانتيكى إن شئت أن تعده كذلك ، وهو كلاسى إن أردت أن تعتبره من الكلاسيين ، وهو واقعى إن أحببت أن تضمه إلى أنصار هذه المدرسة . ولكنه قبل كل شئ عالم قدير بالنفس الانسانية وأسرارها ودقائقها وغموضها، وقصصى بارع قلما نجد فى الأدب الفرنسى من يضاهيه براعة فى هذا الفن .

اكتشف ستندال نحو سنة ١٨٣٣ بعض مخطوطات إيطالية من القرن السادس عشر أو القرن السابع عشر. والناظر إلى هذه المخطوطات يجد فيها قصة تحمل هذا العنوان : « نسب أسرة فرنيزيه الكبيرة » وهى التى أوحت إلى ستندال قصة « دير بارم ». ففبريس دلدنجو بطل القصة يشبه

شبهاً كبيراً البابا الكسندر فرنيز ، لأن حياة الكسندر فرنيز قد أوحت إلى ستندال مغامرات فبريس وأخلاقه. وقد يظن من يعرف أن حادثاً عابراً قد أوحى إلى ستندال قصة « الأحمر والأسود » أن خيال هذا الكاتب محدود لا يعرف إلى الجموح سبيلا . وهذا الزعم باطل لا يمت إلى الواقع بصلة ؛ فخيال ستندال جامح كل الجموح ، ويشهد بذلك قصصه المتعددة التي كتبها مثل « لوسيان لوين » و « أرمانس » و « حياة هنرى برولار » ، ولكنه يحتاج إلى بعض الوقائع الثابتة ليسترسل . فقصص ستندال ما هي في بادئ الأمر إلاعود جاف يحتطبه ثم يعيده إلينا بعد أن يزينه ويخلع عليه أجمل الحلل فيبدو مزهراً ناضراً حافلا بالثمرات .

ومهما يكن المصدر الذى أمد ستندال بقصة « دير بارم » فهذه القصة بما تعرض علينا من تحليل لشخصياتها ولشعورهم وما تصوره من صميم الحياة الايطالية ، تشهد ببراعة مؤلفها وإدراكه الواسع بخفايا النفس الانسانية . فهي تختلف إذن كل الاختلاف عن المصادر الجافة التي استمد حوادثها منها .

تبتدئ هذه القصة بصورة دقيقة لمدينة ميلانو وحالة سكانها وعاداتهم عقب موقعة لودى ، وهي صورة صادقة رسمها ستندال لا من الخيال بل من الواقع ؛ لأنه حارب مع نابليون وتبعه في جميع حروبه . ثم ينتقل بقارئيه من إيطاليا إلى فرنسا حيث يصف لهم موقعة واترلو وصفاً دقيقاً يفوق وصف فيكتور هوجو لهذه الموقعة في كتاب « البؤساء » . وأخيرا يسرد لنا مغامرات فبريس دلدنجو وغرامياته والمحن التي ألمت به واضطرته أن يعتزل الحياة العامة ويلجأ إلى دير بارم ليجد فيه راحة النفس وهدوء البال .

وقد أتاحت هذه المغامرات للمؤلف أن يطلعنا على خفايا السياسة الايطالية ويعرض علينا لوناً من الحياة في بلاط أحد ملوك إيطاليا الصغار وما يملأ هذه الحياة من مؤامرات وضيعة شائنة . كل هذا يعرضه علينا ستندال بطريقة جذابة محببة إلى نفس القارئ .

وأسلوب ستندال يجعل قصصه عسيرة الترجمة ؛ فميله إلى الدقة في اختيار الألفاظ ، وروحه الساخرة اللاذعة ونكاته البارعة لا تسهل مهمة مترجمه . فمهما بذل المترجم من جهد لنقل هذا الأسلوب وهذه الروح الساخرة لا يمكن أن تعطى الترجمة العربية صورة صادقة

من فن ستندال ، فالمترجم دائماً فى حاجة إلى أن يبتعد قليلا أو كثيراً عن النص الفرنسى لكى يتجنب ما تعسر عليه ترجمته وتأتى عباراته عربية صحيحة . وقد أجاد الأستاذ عبد الحميد الدواخلى فى ترجمته وأحسن كلما وجد إلى الاجادة والاحسان سبيلا ، والتزم الأمانة ما وسعه ذلك ؛ لأن الترجمة شقت عليه، وقد تشق على من هو أبرع منه إن كان هناك من هو أبرع منه . فلا يسعنى إلا أن أحمد له هذا المجهود الجبار لما تغلب عليه فى الترجمة من مشقة وعسر، وأشكره لأنه أهدى إلى قراء العربية أثراً أدبيا خالداً ، وأهنئه على هذا الأسلوب الرفيع الذى قدم فيه ترجمته .

رشدى كامل

في مجلات الشرق

صوت المرأة بيروت العدد ٦ (يونيو ١٩٤٧)

« هل فى لبنان أديبات ؟ »

سؤال توجهت به بعض المجلات اللبنانية إلى قرائها ، ويحاول الأستاذ يوسف الخال فى مجلة « صوت المرأة » أن يجيب ، ولكن على الهامش ، فيقول :

« هل فى لبنان أديبات ؟ هكذا يتساءلون : فكأنى بهم يضمرون التأكيد بأن فى لبنان أدباء ، فلماذا لا يكون فيه ، يا للشماتة ، أديبات !

«ونحن هنا لا نتوخى الرد على هذا التساؤل ، بل نحن هنا نتوخى التعليق على هذا التساؤل بتساؤل مثله : هل فى لبنان أدباء ؟

« أجل ! هل فى لبنان ، حاضراً ، أدباء ؟ نعنى أدباء حقيقيين قد تمرسوا بصناعة الأدب ، وانصرفوا بكليتهم إليها ، وتثقفوا بفنونها الرفيعة ، وتعمقوا فى دراسة آثارها الخالدة ، وانبروا ينتجون من فيض قرائحهم نتاجاً يساهم، ولو من بعيد ، فى مفاخر الفكر والروح .

« أدباء حقيقيين نعنى : لا منشئين يدور على معانيهم الباهتة اللفظ المشرق ، ولا صحافيين يقف القول على أبوابهم فى ذل السؤال ؛ ولا متشدقين يرمون وجوهنا بالفتات واعدينا بالمآدب السخية فى « سوف » من الأيام ؛ ولا بهلوانيين يمشون أمامنا على الحبل ، ويرقصون السعادين ، ويخرجون الفيران من أكمام سترتهم السوداء ؛ ولا مذهبيين يتأدبون فى السياسة ويتسيسون فى الأدب .

«أدباء حقيقيين نعنى : يعالجون مشاكل النفس البشرية كما تنعكس فى شخصيتهم ، وفى أمتهم ، وفى العالم كله ؛ وينفلتون فى القول البليغ من حدود الموضوعات المزيلات المطروقات ، إلى ما عمق وغاص فى خضم الكيان الانسانى — هذا الكيان الرحب بما فيه من قلق وانهمام وألم ويأس وفرح وأمل وحب وبغض ، وبما ينطوى عليه من تفجر وخلق وتمرد .

«أدباء حقيقيين نعنى : فأين هم فى لبنان اليوم ؟ أيستطيع هذا الذى يزعم أن ليس فى لبنان أديبات ، أن يدلنى على أكثر من أديبين أو ثلاثة فى

لبنان حق لنا ، مع التساهل ، أن نحسبهم كذلك ؟

«ولبنان كما نعلم ، قيم منذ فجر النهضة على الحركة الأدبية فى المشرق العربى ، فاذا شاء أن يظل ، ينبغى له أن يعى الحال التى هو فيها ، فيعمد إلى النهوض بها ورفع مستواها .

«وبعد، فاذا كان البعض يتساءلون عما إذا كان فى لبنان أدبيات ، فأحر بهم أن يتساءلوا عما إذا كان فيه أدباء . وعندئذ ، ولا ريب ، يخفضون جناح المسكنة والعار . . . »

الجزيرة الموصل العدد ١٤ (يونيو ١٩٤٧)

خواطر يثيرها الأدباء — يسائل الأديب عبد المنعم رءوف الدورى فى مجلة الجزيرة : أيهما أجدى : النزعة الفردية أم النزعة الجماعية فى الأدب؟ ثم يحاول الجواب ، فيعرض آراء أصحاب المذهبين وما يحتج به كل منهما لمذهبه ، ثم يقول :

« والواقع أن لكل من النزعتين فوائد ومزايا ، تحمد عليها وتشكر لها . فالنزعة الفردية مثلا تريد أن تجعل الأدب حراً فى تفكيره ، حراً فى اتخاذه مادة فنه ووحى إلهامه . وهى ترى أن من حق الأديب أن يكون حراً ، وأن نوسع أمامه المجالات لكى يخلق لنا أدباً إنسانياً زاهراً ، يتسرب إلى المكان ويبقى مشمخراً فى حدود الزمان . أما النزعة الجماعية ، فهى ترى أن من واجب الأديب — وهذا مفروض فيه بداهة — أن يتعرف إلى مشاكل عصره وشؤون مجتمعه ، فينظر إليها نظرة الفاحص المدقق ، ثم يحاول معالجة كل ذلك . ومما لا ريب فيه أن مثل هذا الاتجاه جليل المزايا ، عظيم الأثر ، سيما فى الرقى بالمجتمع والنهوض به .

« ولكن لنقف لحظة متمعنين متدبرين ، ولنحاول أن نتعرف إلى معنى كلمة « فرد » ومعنى كلمة « مجتمع » لنصل إلى نتيجة معقولة ، فأقول :

«ليس المجتمع إلا مجموعة من أفراد، فالفرد فى المجتمع هو بمثابة الحجيرة الحية فى الجسم الحى ، وبدون الأفراد لن يكون المجتمع ، فبين المجتمع والفرد إذن علاقة كبيرة ، أو قل إن المجتمع لن يوجد من غير الأفراد الذين يكونونه . وعلى ذلك فالفرد هو دائماً وأبداً يعيش فى المجتمع ، ولا يتصور قط وجوده وحيداً ، أى خارجاً عن الجماعة . و إذا كان الفرد يعيش داخل الجماعة

فلا بد أن توجد بينها وبينه روابط وعلاقات ، ولا بد أن ينتج من كل هذا شعور واحد ، وهذا الشعور هو الذى يجعل من الجماعة أمة أو دولة .

«وإذا كان هذا فينبغى أن نعلم أن هذا الشعور الذى يسود جماعة من الجماعات ، يسيطر بطبيعة الأحوال على أكبر كمية من الأفراد المكونين لتلك الجماعة أو الجماعات ، وبكلمة أدق أن رجال الفكر — وفيهم الأدباء هم الصفوة التى تتمثل فيها رغائب الأمة ، فهم والحالة هذه مرآة لجماعتهم أو لمجتمعهم ينعكس فى إنتاجهم كل ما يدور فى تلك الجماعة أو ذلك المجتمع من مؤثرات ، وما يلابسها من أحوال .

« فالواقع إذن أن ليس هناك إنتاج أدبى فردى محض ، ولا إنتاج جماعى محض ، بل الحقيقة أن الانتاج الأدبى هو خليط أو مزيج من تلكم النزعتين .»

الجنرى اللبنانى بيروت العددان (مايو — يونيه ١٩٤٧)

الرقيـــق الأبيض — فى عدد مايو من هذه المجلة ، نشر الخبر التالى ، بعنوان « ٢٥ ألف امرأة ألمانية : تعويضات أستراليا الحربية » وهو :

« بلغت خسارة أستراليا فى الحرب العالمية الثانية ٣٠ ألف مقاتل ، وهو عدد ضخم بالنسبة لعدد سكانها الذين لا يزيدون عن خمسة ملايين نفس ؛ لذلك قررت الحكومة الاسترالية أن تكون حصتها من التعويضات الحربية التى ستفرض على ألمانيا ٢٥ ألف امرأة بشرط أن يسافرن إلى أستراليا بمل‌ء إرادتهن ، حتى إذا وصلن إلى هناك استقبلهن معتقل مؤقت وعرضن فيه على أنظار طالبى الزواج من الشبان الأستراليين .

«ومعروف أن أستراليا يكثر فيها الذكور ، وهى محتاجة دائماً إلى استيراد نساء من الخارج ! ومنذ مئة سنة استوردت عدداً كبيراً من نساء الهند ، ولكن تجربة الزواج بهن من الشبان الاستراليين أخفقت إخفاقاً عظيما ؛ لأن الشبان رفضوا اتخاذهن رفيقات لحياتهن ، فعادت الهنديات إلى وطنهن ، ومنهن من تزوجن بصينيين . »

الحرب الثالثة — تلك بعض أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تعود بالانسانية إلى الدرك المنحط الذى يجعل بعض الآدميين — أو بعض الآدميات —

رقيقاً فى يد النخاسين ؛ رقيقاً لا يساوم عليه فى الأسواق ، بل يساوم عليه فى المؤتمرات الدولية التى تجتمع لاقرار السلام وتأمين الانسانية . فالى أى درك أحط وأسفل يمكن أن تنحدر الانسانيـة إذا نشبت الحرب الثالثة ؟

ولكنهم مع ذلك لا يزالون يهيئون أسبابهم لتلك الحرب الثالثة ويحسبون حساب نفقاتها وتكاليفها دون أن يفكروا فيما وراء التكاليف والنفقات من أعقاب . وهذه نبذة من عدد يونيه من تلك المجلة ، عنوانها « تكاليف حرب عالمية ثالثة : ١٠٠ مليار فرنك كل يوم » وهى :

« من الصعب تقدير المبالغ التى أنفقت على الشؤون العسكرية بين ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ ، لأن الاتحـاد السوفياتى لم ينشر أى إحصاء فى هذا الباب ، كما أن خبراء الحلفـاء لم يتمكنوا بعد من تقدير نفقات ألمانيا العسكرية ؛ على أن المرجح أن نفقات المحاربين من الحلفاء والمحور كانت تتراوح بين ٢٠ ، ٥٠ مليار فرنك كل يـوم منـذ إعـلان الحرب حتى الهدنة .

« وقدر إحصاء قامت به دائرة المعلومات الكندية أن الدول المنتصرة فى الحرب الأخيرة تنفق ٢٤ مليار فرنك كل يوم فى سبيل الاستعداد للحرب العالمية الثالثة ، وأن الحروب الجارية فى الهند الصينية ومدغشقر والصين وأندونيسيا تكلف مليـار فرنك كل يوم .

« ومنذ ثلاثين سنة كان الجندى المعبأ يكلف دولته نفقات يومية للأكل فقط دون السلاح ، نصف دولار ، ولا يستبعد أن يكلفها فى الحرب المقبلة ثلاثة دولارات .

« وإذا أضفنا إلى هذه النفقات أثمان الأسلحة الجديدة ونفقات العناية بها ، فضلا عن نفقات استخدامها فى القتال ، فقد لا تقل تكاليف حرب عالمية ثالثة عن مئة مليار فرنك كل يوم . »

المرأة دمشق العدد ٣ (يونيو ١٩٤٧)

المجهود الأدبى للإناث — وفى سوريا — كما فى لبنان — عناية ما بتتبع الآثار الأدبية للمرأة ، فهذه الكاتبة نديمة المنقبادى تقول فى العدد الأخير من مجلة « المرأة » :

« وهذه ناحية جديرة بالبحث ...

فالمجهود الأدبى يقوم الآن فى كافة نواحيه تقريباً على الرجل والرجل وحده . . . ولا أريد بهذا أن أنتقص من جهد هذا الرجل ، فهو قد لمس فى نفسه الاستعداد للعمل ، فنشط إليه يصقله وينميه ، وكان من ثمرته إنتاج خصب فى عالمى العلم والأدب .

«أما المرأة فى بلادنا فما أعتقد أنها سارت فى ذلك شوطاً بعيداً أو قريباً ... وإذا حدث أن ظهرت مؤلفات أدبية لبعض الكاتبات فهى من الندرة بحيث تعد فى يسر وسهولة . . . ولست أرمى إلى أن المرأة ضعيفة الانتاج ، تأخذ أكثر مما تعطى ، وإنما أعتقد أنها فى حاجة إلى شئ من الشجاعة لتنهض من استكانتها الأدبية ، وإلى شئ من النشاط لتجرد قلمها وبيانها ، وإلى جو حافز يضمن لها التقدير والتشجيع فى خطواتها الأولى . »

نحو الآفاق البعيدة — على أنه ليس من الانصاف أن ننكر ما بلغته المرأة اللبنانية والسورية من الأدب ، أو نجحد فضلها فى هذا الميدان ، ولدينا ثبت حافل بأسماء السوابق فى مضماره ؛ وحسبى أن أقتبس سطوراً من مقال ممتع للسيدة أسمى طوبى ، عنوانه « نحو الآفاق البعيدة » فى ذلك العدد من مجلة « صوت المرأة » تتحدث فيه عن نهضة فتيات المشرق . وإذا كانت قد قصرت حديثها على الفلسطينيات ؛ فان لهن أخوات فى سوريا وفى لبنان ؛ تقول :

« وفى بيروت اليوم عدد من الفتيات الفلسطينيات يدرسن للحصول على شهادة ب . ع ، كما أن من حصلنها ، وهن كثيرات ، أصبحن يشغلن مراكز جيدة فى الدوائر الحكومية فى البلاد . أما شهادة م . ع فقد حصلها كثيرات أيضاً .

« وفى مصر أيضاً عدد لا بأس به من الطالبات ، أعرف منهن الآنسة باكلين نورى من حيفا وهى تدرس الصحافة ، والآنسة رائدة جار الله من القدس وقد حصلت شهادة ب. ع من الجامعة الأميركية فى بيروت ، ثم التحقت بجامعة فؤاد الأول بالقاهرة فحازت فى العام الماضى درجة ماجستير فى التاريخ الاسلامى ، فكانت أول فتاة من الأقطار الشقيقة تحوز هذه الدرجة من الجامعة المصرية ؛ وقد عادت الآنسة رائدة إلى الجامعة لتعمل على نيل الدكتوراه .

«وفى لندن اليوم فتاتان فلسطينيتان تدرسان نظم الشؤون الاجتماعية لتطبقاها

فى فلسطين ، ولم تخل لندن منذ عشرين عاماً من طالبات فلسطينيات كن بعثات حكومية يدرسن نواحى علمية مختلفة .

« ولفلسطين اليوم ثلاث طبيبات الأولى تخرجت من لندن والثانية تعمل فى المستشفى الحكومى فى القدس والثالثة تعمل لحسابها فى حيفا .

«أما المدارس العالية فى فلسطين، وأما اللواتى يدرسن فيها ليثبن إلى مصر أو أوربا ليحققن أمانى تخفق فى صدورهن فما أكثرهن ! »

فى مجلات الغرب

من باريس

الآداب *Lettres* عدد ٨ و ٩

يبدأ هذا العدد بمجموعة من الحكم بقلم الكاتب بتنكور وبعنوان ، « جسدى يدافع » يتجه أكثرها إلى مناقشة الدين ، ولكن من بينها مايتجه إلى الدنيا كقوله « يقول نيتشه : لا أسمح إلا للناجحين فى الحياة بأن يعالجوا فلسفة الحياة . ويقول فاليرى: لا حق لأحد أن ينتحر إلا إذا بلغ السعادة الكاملة . فهل نجح نيتشه فى الحيـاة ؟ أو لم يكن فاليرى سعيداً ؟ » . وفى هذا العدد أربع قصائد مترجمة من شعر جارسيا لوركا الشاعر الاسبانى . وفيه بحث طريف للوى كورتيس عن الكاتب والمفكر الانجليزى ألدس هكسلى ألم فيه الباحث بتطوراته الفكرية وحلل طريقته فى الكتابة . وفيه قطعة مختارة من الرواية الأخيرة لسمرست موجام الروائى الانجليزى . ونشرت المجلة ٣٠ رسالة لفولتير لم يسبق نشرها ، وبحثاً لجان بنليفيه عن مكان الباحثين الفرنسيين فى السينما .

وهو بوجه عام عدد ممتاز بهذه المجموعة وغيرها من المقالات ، كما هو ممتاز بالعشرات من البحوث الأخرى فى الأبواب العادية الأخرى التى تعالج الأدب والمسرح والتصوير والفلسفة والمقالات والرسائل الخارجية ، ومن أهمها نقد لكتاب عن روسيا بالأمس واليوم ، وكتاب آخر عن الأدب الأمريكى .

فونتين *Fontaine* عدد ٥٨

تحدث جوليان جراك فى العدد ٥٨ من مجلة «فونتين» الفرنسية *Fontaine* عن أندريه بريتون ، وهو يقول إن الناقد ليصطدم بصعوبة عند الرغبة فى تحليل هذا الأديب ، هى حركته الدائمة وانتقالاته حتى ليصعب إصدار

حكم أو رأى فى شأنه . ولعل الكاتب نفسه يرحب بهذه الصعوبة ؛ فهو ليس من الذين يؤمنون بالتقسيمات التى يحاول أن يفرضها الناقدون ؛ ومع ذلك استطاع كاتب المقال أن يحلل أندريه بريتون تحليلا وافياً قد لا يكون آخر كلمة فى هذا الأديب الفرنسى ، ولكنه على كل حال من أوفى ما كتب عن هذا الأديب حتى الآن .

وفى هذا العدد بحث مترجم عن الألمانية من هيدجر الفيلسوف الألمانى عن العودة إلى أصول الميتافيزيقا ، وهو من آثار هذا الفيلسوف التى لم يسبق نشرها حتى بلغة بلاده .

ونشر الأديب دى روجمون صفحات من يومياته أثناء التجائه إلى الولايات المتحدة فى زمن الحرب ؛ وفيها صور طريفة عن حياة الأدباء فى نيويورك ووصف لزيارة إلى جامعة هارفارد ، ومحاولاته لنشر بعض مؤلفاته وسياحاته فى جهات مختلفة من أمريكا .

وتكلم الكاتب فوجير عن توماس مان وانجذابه إلى وصف الموت وفى المقال تحليل لروايته العظيمة « الجبل المسحور » .

ونشر فيكتور أوكامبو الكاتب الأرجنتينى ملاحظاته عن باريس وما يجده الغريب القادم من جنوب أمريكا فى البلد الجديد من مناظر تسترعى النظر .

وكتب رولان كايوا بحثاً طريفاً عن ماكرو وقيمته الأدبية ، كما بحث شارل إتيين فى التصوير وكنهه . وهذا عدا دراسات قيمة بقلم جوليان بندا وهنرى بوسكو ، وغيرهما من الكتاب الذين تعودنا أن نقرأ لهم فى «فونتين» .

من لندن

العالم اليوم *World Today* عدد مايو ١٩٤٧

فى عدد مايو سنة ١٩٤٧ من المجلة الشهرية الانجليزية «العالم اليوم» وهى التى يصدرها المعهد الملكى للأمور الدولية ، فضلا عن البحث الخاص بمشروع قانون الوراثة الجديد فى أسبانيا ، وهو الذى تكلمنا عنه باسهاب فى غير هذا المكان ، بحث عن الجنرال دى جول وحركته فى تحدى الأحزاب الفرنسية ، وتابع أحد كتاب المجلة البحث القيم الذى ينشره

عن السياسة والرأى العام فى جنوب أفريقيـة ، وهو يتكلم فى هذه المرة عن النضال بين الأجناس المختلفة الألوان وكيف تهضم حقوق السكان الأصليين. فمثلا لو سئل أحد أهل جنوب إفريقية من البيض عن عدد سكان بلاده لقال انه مليونان ونيف كأن التسعة الملايين الآخرين ليسوا إلا من المواشى ، ومع ذلك فان هؤلاء الأوربيين يشعرون بقلقهم أكثر مما يريدون أن يظهروا . ثم يتابع صاحب المقـال الكلام فى التفرقة بين الأجناس ومظـاهرها السخيفة التى تدل على التعصب والطغيان .

وفى العدد أيضاً مقال عن الميدان السياسى فى رومانيا ، ويريد الكاتب أن يدل على أن النظام الحالى الذى يرأسه الدكتور جروزا هو نظام غير ديمقراطى ، وأنه قائم بنفوذ روسـيا وتأييدها . وفى المجلة بحثان قيمان آخران عن تغيير الحكومة البلجيكية وماينطوى عليه هذا التغيير . ومطالب تشيكوسلوفاكيا فى معاهدة الصلح من الدول المجاورة . وفى المجلة أيضاً بحث عن بعض الواجبات التى يجب أن تقوم بها الدول حتى يمكن إحيـاء اليونان وإعادة حياتها الاقتصادية والزراعية .

ناشيونال ريفيو *National Review* عدد يوليو ١٩٤٧

أما مجلة « ناشيونال ريفيو » وهى المجلة الشهرية الانجليزية التى تعتبر من أهم المجلات التى تنطق بلسان حزب المحافظين ، ففى عدد يونيه منها الباب الافتتاحى ، وفيه حوادث الشهر . وأهم ما جاء فيه الكلام عن مؤتمر موسكو وإخفاقه والحالة فى رومانيا ، ثم فيه كلام عن السياسة الداخلية ، وما تدفعه بريطانيا من الاعانات لهيئة الاعانة والتعمير والهيئات الدوليـة الأخرى . وفيه حملة على الحكومـة البريطانية ، ويزعم المحرر أن بريطانيا تسير نحو القحط والمجاعة ، وقد تكلم عن زيارة ملك بريطانيا وملكتهـا لجنوب إفريقية ومغزى هذه الزيارة وما قوبلت به الأسرة المالكة من ترحاب لا سيما من الهنود والأجناس الملونة ؛ وود لو أن حكومة جنوب إفريقية تعيد النظر فى موقفها من الأجناس الملونة أثر هذه الزيارة .

وفى هذا العدد بحث عما تريده

روسيا أتينا على خلاصة وافية له فى مكان آخر.

وفيه بحث طريف عن السياسات المالية والاقتصادية الدولية المختلفة كتبه هنرى دراموند وولف تحت عنوان « ما القصد من هذا ؟ »

وفيه قصة طريفة لهنرى هاردنج بعنوان « الأموال السهلة ».

هوريزن Horizon عدد يونيو ١٩٤٧

وعدد «هوريزن» المجلة الأدبية الانجليزية لشهر يونيه يزدان ببحث واف عن آرثر كيستلر الكاتب الأمريكى، وفيه دراسة لحياة القديس يوحنا الصليبى وشعره، كما أن رنيه ليبوفتز يوالى بحثه عن التجديد والتقليد فى الموسيقى الأوربية الحديثة، وقد درس فى عدد سابق فن الموسيقار شونبرج، وفى هذا العدد دراسة وافية لأنطون فبرن.

انجليش English عدد الربيع

وعدد الربيع لمجلة «انجليش» التى تصدرها الجمعية الانجليزية حافل بدراسات عن معنى المأساة لكليفورد ليش وعن سترلنك وفنه فى الدراما وفيه نصائح للمبدئين فى النظم، كما أنه يحتوى على طائفة من الدراسات والأشعار التى تسترعى النظر.

من روما

أورينت مودرنو Oriente Moderno عدد ديسمبر ١٩٤٦

وقد وصل إلى أيدينا عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ من مجلة «الشرق الحديث» Oriente Moderno الايطالية وفى القسم السياسى التاريخى منه بحث بقلم السنيور برونو أليتى عن إيطاليا والسنوسية، وفيه رد على ماجاء فى بحث للأستاذ ايفانز بريتشارد أستاذ الاجتماع سابقاً فى جامعة فؤاد

الأول نشره فى مجلة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن ؛ وينفى كاتب المقال ما جاء فى مقال الأستاذ بريتشارد من أن إيطاليا كانت تعمل على القضاء على السنوسيين ، ولو أن بريتشارد استقى معلوماته من كتاب إيطالى نشره مكالوزو تحت عنـوان « الترك والسنوسيون والايطاليون فى ليبيا » ببنغازى سنة ١٩٣٠ .

ويرى السنيور أليتى أن مؤلف هذا الكتاب ، لم يكن ليعرف السياسة الايطالية ويعبر عنها ، وأخذ يثبت أن السياسة الايطالية لم تتجه قط هذا الاتجاه .

ومن الأبحاث الطريفة فى هذا العدد الحافل بالأخبار والوثائق عن بلاد الشرق ، كما تعودنا دائماً فى هذه المجلة ، بحثان جديران بالذكر : أحدهما بقلم السنيور أنريكو شيرولى عن المخطوطات الحبشية فى مكتبة وزارة الهند بلندن . والآخر بقلم السنيور أومبرتو ريتزيتانو عن الرمزية فى مؤلفات الأستاذ توفيق الحكيم الأديب المصرى .



محمد عبد الحليم عبد الله
لقيطة
قصة
جائزة فاروق الأول للقصة
من مجمع فؤاد الأول للغة العربية
دار الكاتب المصري

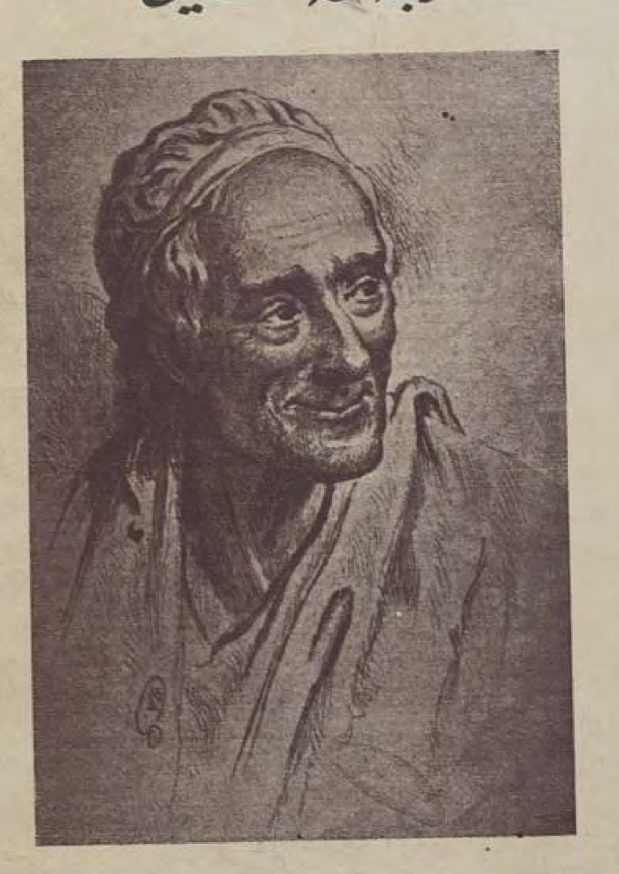
مجلد ٦ — عدد ٢٣
أغسطس ١٩٤٧

فولتير

زديج

أو القضـــاء

ترجمة طه حسين



الكاتب المصري
مجلة أدبية شهرية
رئيس التحرير : طه حسين

تحت الطبع

كتاب البخــلاء للجاحظ

تحقيق وشرح الاستاذ طه الحاجرى

المدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تأريخ قضاة الأندلس

نشره وعلق عليه إ. ليڤى پروڤنسال

أستاذ اللغة والحضارة العربية بالسربون

مدير معهد الدروس الاسلامية بجامعة باريس

قطوف

كتاب فى جزأين يجمع عدة مقالات وبحوث

بقلم عبد العزيز البشرى

البيت السبكى

بيت علم فى دولتى المماليك

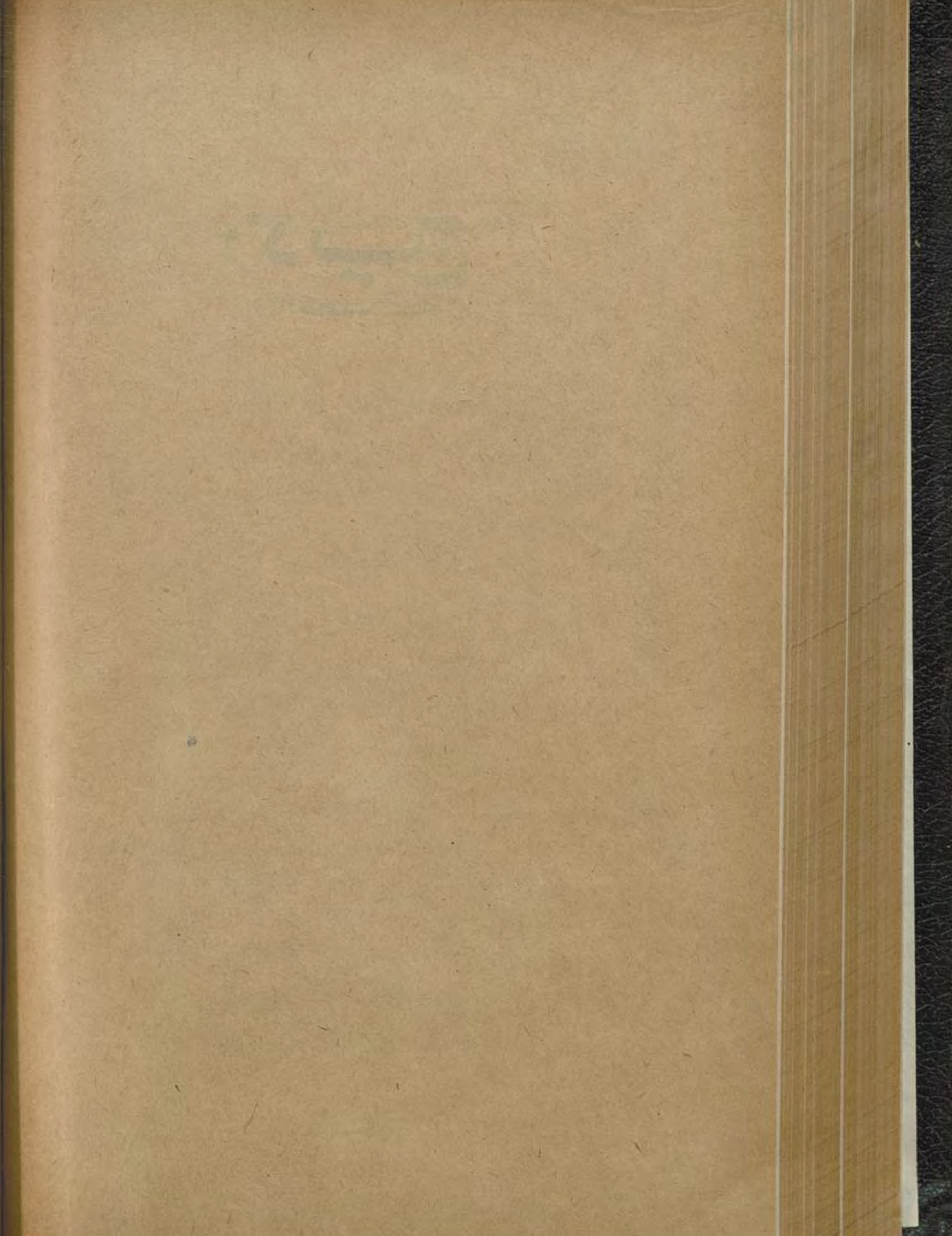
تأليف محمد الصادق حسين بك

تربية سلامه موسى

بقلم سلامه موسى

زديج

أو القضاء



فولتير

زديج

أو القضـــاء

قصة شرقية

١٧٤٨

ترجمة

طه حسين



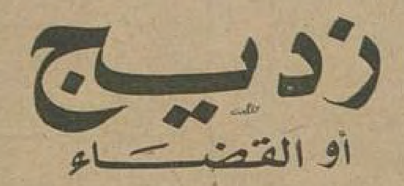
دار الكاتب المصرى

العنوان الأصلى للقصة
بالفرنسية

ZADIG

OU LA DESTINÉE

Histoire Orientale


زديج
أو القضاء